

القارئ العادي

مقالات في النقد الأدبي

تأليف : فرجينيا وولف • ترجمة : الدكتورة عقيلة رمضان • مراجعة : الدكتورة سهير القلماوي

القارئ العادى

تأليف : ڤرچينيا وولف
ترجمة : الدكتورة عقيلة رمضان
مراجعة : الدكتورة سهير القلماوى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

مقدمة المترجمة

أوضحت فرجينيا وولف – وهي تقدم لكتابها هذا «القارئ العادي» – الأهداف التي كانت تسعى الى تحقيقها من وراء نشر هذا الكتاب وهي، ابراز صورة شخصية من الشخصيات أو القاء الضوء على الحياة الاجتماعية في عصر من العصور بكل ما فيه من تقـــاليد ، ومثل ، وبكل ما يسيطر على أهله من آراء ومعتقدات ، أو شرح تفصيلي لنظرية في فن الكتابة كما تراها هي عندما تعرض لبعض مشاهير الكتاب عبر العصور المختلفة التي مر بها الأدب الانجليزي • وهي في سبيل ذلك تقدم لنا في عرض رائع، وحكم منصف محايد الآراء التي تصدر عن القارئ العادي مهما كانت قيمة تلك الآراء

وهذا الكتاب اذا ، يعرض سلسلة من الصـــور التي انعكست على الآداب ، أو انعكست الآداب عليها على مر العصور والأحقاب • وهو بذلك يتناول بالنقد ، الأدب في القرون المختلفة ، كأن تختار المؤلفة موضوعـا ترى أنه يســـتحق الدراسة أو التعليق أو ترى فيه مدى تأثر الأدب بالعصر أو مدى تأثير الأدب فيه أو كأن تتناول صورة لحيـاة انجلترا الاجتماعية وكيف صورت تلك الحياة في الكتب الأدبية من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين وكيف تعرضت هذه الكتب للحياة الاجتماعية والأدبية • ولكي تعطي المؤلفة صورة صادقة نراها تتعرض لحديث العجائز وثرثرتهن وهن حول مورد المياه في القرية ، ثم تنتقل الى ما يدور في بلاط الملك حتى تنتهي الى حديث الصالونات وهي في ذلك كله تقدم لنـــا ما يؤمن به العامة من شؤم وتطير

وغنى عن البيان أن فرجينيا وولف عندما تكتب فهى أنما تستعمل أسلوبها المعروف فى الكتابة أسلوب « تسلسل الأفكار العفوى » (Stream of consciousness) وهو أسلوب « الشىء بالشىء يذكر » فعندما يرد ذكر سقراط مثلا فان العقل يفكر فى هذا الفيلسوف وفى بحثه عن الحقيقة وفى ماهية الحقيقة كما يراها وعلى ذلك تسجل فرجينيا وولف تلك الخواطر وتلك الرحلات الفكرية التى يشطح فيها الفكر ثم يئوب

ومثال آخر لتلك الشطحات أنها عندما تعرضت فى حديثها عن الحقيقة التى يمكن أن تدركها « الروح الطيبة المنبت » تنطلق متسائلة من تكون اذا الأرواح الطيبة ، التى يجب علينا أن نقلدها ؟

أو فى موضع آخر عندما تذكر أن مونتينى «Montaigne» انتهى الى القول بأنه ربما يكون من الافضل أن‌نتجه الى الدين ليرشدنا ، نرى فرجينيا وولف تترك هذا الحديث وتسلسله الطبيعى لتقول « ربما » هذه هى احدى تعبيرات مونتينى المفضلة « ربما » ، « أظن » وكل هذه‌الكلمات التى تصور الادعاءات المتهورة ومثل هذه الكلمات تعين الانسان على اخفاء آرائه التى يكون من غير الحكمة الافصاح عنها وهكذا حتى تنتهى من هذا الاسترسال ثم تعود الى الموضوع الأساسى

وقد اضطررت أثناء الترجمة الى ادخال بعض التعديل والتحوير بل أحيانا كنت أرانى مضطرة الى التغيير فى اللفظ أو فى التركيب اللغوى حتى تؤدى الترجمة المعنى الذى كانت تقصده المؤلفة ، وذلك فى المواضع التى يكون فيها التقيد بالنص واللفظ الحرفى غير معبر أو غير واضح ، أو فى المواضع التى قد تؤدى الترجمة الحرفية فيها الى معنى مخالف أو غير دقيق وهذا هو أخطر ما فى الموضوع. ولعل مرد ذلك كله الى الاسلوب الذى تكتب به المؤلفة وهو أسلوب ملؤه المجاز والاستعارة .وقد تكون الصورة المجازية مفهومة لها جمالها الرفيع ومعناها الدقيق فاذا ما ترجمت حرفيا ضاع الجمال واختفى السمو بل تؤدى الترجمة الحرفية الى صورة مضحكة تخل بالمعنى أو تضل القارىء وتحيد به عن الطريق

وهذا الأسلوب المجازى فى الكتاب أو النمط الاستعارى فى الكلام أو فى التعبير جعل مهمتى عسيرة غير يسيرة ، فبقدر ما كنت حريصة على المعنى كنت حريصة كذلك وفى نفس الوقت على أمانة الترجمة وأصولها

وانى اذ أتقدم بهذه الترجمة أرجو أن أكون قـد وفقت الى اضافة هذا الكتاب الى المكتبة العربية فأسهم بذلك فى نماء هذه المكتبة وثرائها

والله أسأل أن يسدد خطانا

والله ولى التوفيق ،

دكتورة

عقيلة رمضان

يونيو سنة ١٩٧١

القارئ العادى

عبارة فى كتـــاب دكتور جونســون عن حيـــاة جراى (Gray) يجب أن تعلق فى اطار فى تلك الغرف التى نبالغ كثيرا فنسميها مكتبات، على الرغم من أنها مكدسة بالكتب التى يتابع قراءتها قوم معينون •والعبارة هى « انه ليسعدنى أن أتفق فى الرأى مع القارىء العادى ، فادراك القارىء الفطرى (الذى لم يفسده التحيز الأدبى المكتسب بالمهارات الرفيعـــة ، والتعصب العلمى) يجب أن يكون هو القول الفصل الذى يقرر أسس التفوق فى الشعر »

ان هذه العبارة تحدد مميزات هؤلاء القراء ، وتسمو بأهدافهموتسبغ عليهم نفحة من تأييد هذا الكاتب العظيم فى عملية بحث تســتنفد وقتا طويلا ولكنها لا تترك وراءها شيئا يمكن الاعتداد به

والقارىء العادى ــ كما يشير الدكتور جونسون ــ يختلف عن الناقد والعالم فهو أقل ثقافة منهما ، كما أن الطبيعة لم تغدق عليه فى سخاء من مواهبها • ان القراءةبالنسبة اليه متعة قبل أن تكون سبيلا الى المعرفة أو مجالا لتصحيح آراء الآخرين وهو فوق كل هذا قادر ــ بطريقـــة فطرية ــ على أن يخلق من جميع المفارقات التى يلتقى بها نوعا من الكل ــ بخلق صورة رجل أو مخططعصر أو نظرية فى فن الكتابة • وهو كثــيرا ما يصادف أثناء القراءة بعضا من المعلومات الضعيفة البعيدة عن المنطقالتى تحقق له الرضا الوقتى اذ تبدو كالأشياء الحقيقية وتتيح له الحب أو المزاح أو المناقشة وفى تسرع وسطحية تعوزهما الدقة نراه يختطف مرة هذه القصيدة وينتزع مرة أخرى قطعة من أثاث قديم دون أن يبالى فى أى مكان

يجدها أو ماهية طبيعتها طالما هى تقدم غرضه وتكمل البناء الذى ينشده ، وان أخطاءه كناقد أوضح من أن نعددها ولكنه ـ كما يؤمن الدكتـــور جونسون ـ اذا كان له قول الفصل فى تقسيم المجد على الشعراء ، فان هذا يجعلنا نرى ما يبرر تسجيل بعض آراء وأفكار مهما قلت أهميتهـــا فى ذاتها فانها تسهم فى تحقيق هذه النتائج العظيمة ٠

آل باستون وشوسو [1]

لا يزال برج قلعة كابستر شامخافى الهواء بارتفاع ٩٠ قدما كما أن عقـد البنـــاء ما زال قائما فى المكان الذى أقلعت منه صنادل سيرجون فاستولف(٢) لجلب الأحجار لبناء القلعة العظيمة ، وما زالت الغربان تتخذ من البرج أوكارها ، أما القلعة التى كانت تشغل ستة من الأفدنة فلم يبق منها الا الخرائب والجدران المتهالكة المحتفظة بكواتها ومراصدها التى قهرت الغزاة بحصونها ولكنها لا تضم الآن رماة بداخلها ولا مدافع بخارجها واما « رجال الدين السبعة » وكذا « الفقراء السبعة » الذين كان يجب أن يكونوا مقيمين للصلاة – فى هذه اللحظة بالذات على أرواح ســـيرجون ووالديه – فانه لا يسمع لصلاتهم صـــوت ولا تظهر أية علامة تنبىء عن وجودهم فقد أصبح المكان أطلالا ، وآثارا ضاربة ومتباينة

وعلى مسافة ليست ببعيدة تمتد خرائب أخـرى تلك خــــرائب برومهولم بريورى(٣) حيث دفن جون باســـتون ، الذى كان منزله يقع على مسافة ميل أو ما يقرب من ذلك على أرض منخفضة تمتد مع البحر لمسافة عشرين ميلا شمالى نورويش ان الشاطىء وعر أما الارض فلا يمكن الوصول اليها حتى فى وقتنا هذا ومع ذلك فان الغابة الصغيرة فى برومهولم ، وبقايا الصليب ، كانا يجلبان الحجاج الى بريورى بصفة مستمرة ليرتدوا مشدوهى الابصار ، ومشدودى الاطراف لقد رأى بعضهم مشهدا صدمهم اذ كان قبرجون باستون فى برومهـــولم بريورى بدون شاهد وسرعان ما انتشر الخبر فى الريف بزوال دولة آل باستون

---

(١) كتب هذا المقال بمناسبة نشر خطابات باستون التى أعدها ونقحها الدكتور جيمس جيردنر (١٩٠٤) وفيه تتعرض الكاتبة لصورة من صور الحياة فى الريف الانجليزى فى القرن الخامس عشر (المترجمة)

(٢) Sir John Fastolf.

(٣) Bromholm Proiry.

فهؤلاء الذين كانوا فى يوم من الايام ذوى بأس شديد ليس فى مقدورهم الآن أن يضعوا شاهدا على جثمان جون باستون ، كما أن أرملته مارجريت لا تملك أن تدفع ديونها ، والابن الأكبر – سيرجون – بدد أملاكه على النساء وعلى المراهنات بينما كان الابن الأصغر يتلهى بصيد الصقور أكثر مما يفكر فى الحصاد

كان هؤلاء الحجاج بطبيعة الحال كاذبين مثلهم كمثل الذين رأوا جزءا من الصليب الحقيقى فاختلقوا القصص والروايات ولهؤلاء الحجاج العذر فى أن يكونوا كاذبين ورغما عن ذلك فقد صادفت تلك القصص والشائعات هوى ومنها أن آل باستون برزوا فى الوجود ، ويروى الناس فيما يروون عنهم أنهم كانوا أسرى الى عهد قريب وعلى كل حال فما زال هناك من الأحياء من يذكر كليمنت جد جون وهو يعزق أرضه كأى فلاح كادح ، كما أصبح ويليام ابن كليمنت قاضيا يقتنى الأراضى ، وتزوج جون – ابن ويليام – زواجا طيبا واشترى الضياع كما ورث أخيرا جدا القلعة المترامية الأطراف فى كايستر وكل أراضى سيرجون فى نورفوك وسافوك ويقول الناس أيضا انه زور وصية الفارس القديمة ٠ فما الذى يدعو الى الدهشة اذا ان كان فى حاجة الى شاهد للقبر !! ولكننا اذا تمعنا فى شخصية سيرجون باستون وابنه الأكبر والطريقة التى نشىء عليها وما كان يحيط به ، والعلاقة بينه وبين أبيه – كما كشفت عنها خطابات العائلة – فاننا سوف نرى الى أى حد كان من الصعب أو من المحتمل اهمال وضع شاهد على قبر أبيه

ولنتخيل منزلا شيد حديثا فى أكثر بقاع انجلترا عزلة دون تليفون أو حمام أو مجارى للصرف أو مقاعد وثيرة ودون جرائد وبه رف واحد عليه كتب لم يحسن حفظها وليس من السهل – نظرا لارتفاع ثمنها – أن يجدها المرء فى كل مكان وتطل نوافذ هذا المنزل على بضعة من الحقول المنزرعة وبضع زرائب ومن ورائها يمتد البحر على أحد الجانبين وعلى الجانب الآخر يقع مستنقع شاسع يخترقه طريق واحد به حفرة شاسعة لدرجة انها تبتلع عربة على حد قول أحد الفلاحين وقد أضاف هذا الرجل المسمى توم توبكروفت أن ذلك البناء المجنون انطلق يجوب القرية وهو عار يهدد كل من يقترب منه بالقتل هذا هو حديث العائلة حول مائدة العشاء بالمنزل المنعزل بينما يتصاعد الدخان من المدخنة كثيفا وفى نفس الوقت يداعب تيار الهواء أطراف السجاد الذى يغطى الأرض ولقد أعطيت الأوامر بغلق جميع أبواب القصر مع غروب الشمس٠

وعندما يمضى الغروب برعبه وأخطاره يركع رجال القصر ــ المنقطعون عن العالم الخارجي ــ ونساؤه خاشعين فى صلاة عميقة

وفى القرن الخامس عشر تغير المنظر العام فجأة وانكسرت وحشة المكان ، فقد أقيم مبنى حجرى ضخم كأنه أكوام صخر فوق الكثبان الرملية بين ساحل نورفوك والمروج أشبه ما يكون بفندق حديث على الساحل ولكن لم يكن هناك قادمون ولا بيوت ينزلون فيها ولم يكن هناك رصيف فى ميناء « يارموث » فى ذلك الوقت كما لم يكن ذلك المبنى الضخم على مدخل المدينة سوى منزل يضم انسانا بلا ولد هو سيرجون فاستولف الذى حارب فى آجينكورت وحقق ثراء عريضا انه سير جون الذى حارب فى آجينكورت ولم ينل ما يستحق من مكافآت ولم يتقبل أحد نصائحه وكان القوم يتناولونه بالسوء من وراء ظهره وكان يعلم ذلك وعلى الرغم من هذا العلم لم يغير من مزاجه بل ظل حاد المزاج قوى الشكيمة يعانى من مرارة الشعور بالحزن كان يفكر باستمرار فى كايستر كما كان يحلم باقامة قصر خاص به على أرض أبيه عندما تسمح له واجباته بالاعتزال

وبينما كانت اقامة قصر كايستر الضخم تتقدم على مسافة بضعة أميال ، كان أبناء باستون لم يتجاوزوا سن الطفولة . وكان جون باستون الأب يقوم ببعض الاعمال ، أما أطفاله فقد كانوا يستمعون وهم لا يكادون يفقهون شيئا عن البناء والأحجار وعن المركب التى أقلعت الى لندن ولم تعد بعد ، وعن الست والعشرين غرفة الخاصة ، وعن الكنيسة الصغيرة والصالة والأساسات والأبعاد وعن خبائث العمال وأخيرا عندما انتهت الأعمال عام ١٤٥٤ وعندما وصل سير جون ليمضى آخر أعوامه فى كايستر رأوا بأنفسهم الكنوز الضخمة التى كانت مخزونة فى القصر مناضد زاخرة بصفائح من الذهب والفضة وخزائن ممتلئة بالملابس من القطيفة والحرير وأقمشة مذهبة وقبعات الفراء وستر جلدية مبطنة بالقطفية وحتى كسوة الوسائد كانت من الحرير الأخضر والأرجوانى والسجاد فى كل مكان ، حتى الأسرة وجدران غرف النوم كانت مغطاة بالقماش المشغول (الكنفاه) الذى يمثل مناظر الصيد والمطاردة وصيد السمك ورمى الأقواس ونساء يعزفن على القيثار أو يداعبن البط أو عملاق يحمل رجل الدب فى يده هذه هى ثمرات حياة نافعة اقتناء للضياع واقامة للقصور ثم ملؤها بصحائف من الذهب والفضة (وان كانت المقتنيات الخاصة مودعة فى غرفة النوم)

وأنفق باستون وزوجته الجزء الأكبر من طاقتهما فى نفس العمل المضنى فمنذ أصبحت رغبته فى التملك غريزة ، بات الفرد لا يطمئن الى ما ملكت يمينه طويلا فقد تتعرض الأجزاء المتطرفة لأملاك أى انسان للأخطار المستمرة فمثلا يطمع دوق نورفوك فى قطعة أرض ودوق سافوك فى قطعة أخرى وقد أعلن البعض الأعذار التى تبرر فعلتهم هذه بقولهم لما كان آل باستون أسرى فمن ثم يصبح لهم حق مصادرة المنزل وهدم المساكن فى غياب صاحبها وكقولهم كيف يتسنى لصاحب باستون وموتبى ودراتيون وجريشام أن يتواجد فى خمسة أماكن أو ستة فى وقت واحد خاصة وان قلعة كايستر قد أصبحت ملكا له الآن بينما هو موجود فى لندن يجاهد فى الحصول على اقرار الملك بضمان حقوقه والتصديق عليها وقد قيل ان الملك كان مجنونا هو الآخر حتى أنه لم يعرف ابنه وفى رواية أخرى قيل ان الملك فر هاربا أو انه كانت هناك حروب أهلية وقد كانت نورفوك دائما أكثر الاقطاعيات نكبة و.ن سادتها كانوا أكثر مشاغبة وشجارا ولو كان لزوجة باستون أن تختار لروت لأبنائها كيف أن ألفا من الرجال بالنبال والسهام ومقاليع النار هجموا على جريشام ـ وقت ان كانت هى فى شبابها ـ وحطموا الأبواب ودكوا جدران الغرفة التى كانت تجلس فيها بمفردها ثم حدث ما هو أفظع من ذلك للنساء ولكنها لم تنتحب أو تعتقد فى نفسها انها بطلة فالخطابات المطولة التى كانت تحرص على كتابتها بخط يدها وترسلها الى زوجها الغائب كالعادة لم تشر فيها الى نفسها بشىء بل كانت تكتب له عن الأغنام التى أتلفت الدريس وعن خروج رجال هيدن وتادينهام وعن سرقة ثور ، أو تكتب عن حاجتهم الملحة الى العسل ، أو انه يلزمها شىء من الملابس وهكذا لم تتحدث السيدة باستون عن نفسها بشىء

وكان الصغار يرقبون والدتهم وهى تكتب الرسائل الطوال صفحة بعد صفحة وساعة تلو أخرى ولم يكن ليجرؤ أحد على أن يقطع على الأم كتاباتها فى مثل هذه الموضوعات الهامة والا عد آثما ولم تقطع ثرثرة الأطفال ولا دروسهم فى الفصل أو فى حجراتهم تلك الاتصالات المطولة اذ كانت أغلب خطاباتها خطابات تابع أمين لسيده فهى اما مفسرة واما طالبة للمشورة واما راوية للأخبار واما عارضة لكشوف الحسابات. فمن اخبار بحادث سرقة أو قتل الى شرح صعوبة تحصيل الايجار الى أن ريتشارد كال لم يجمع من النقود الا قليلا ولم يكن لدى مارجريت لسبب أو لآخر من الوقت ما يسمح لها بأن تضع قائمة بالبضائع التى

يريدها زوجها كما كان ينبغي لها أن تفعل ويمكن أن تكون آجنس العجوز قد أشارت وهي تراقب شئون ابنها من بعد وبشيء من العبوس الى أن عليه أن يفهم انه « قد لا تكون مطالبا الا بعمل قليل فى الدنيا » وقد قال أبوك « فى الأعمال التافهة تكثر الراحة فالدنيا ليست الا عرضا زائلا مملوءة بالمنغصات وعندما نرحل عنها فليس لنا الا أن نحمل معنا أعمالنا الصالحات وآثامنا التى اقترفناها »

وهكذا صدمتهم فكرة الموت التى حلت بهم فقد رأى فاستوف العجوز فى نومه أنه غارق فى ثرائه وممتلكاته فى قاع جهنم فصرخ فى منفذى وصيته بأن يوزعوا الصدقات وأن يعملوا على أن تقام الصلوات بانتظام حتى تنجو روحه من عذابات التطهر واضطر القاضى ويليام باستون أيضا الى ابقاء رهبان نورويتش للصلاة على روحه « الى الأبد » فليست الروح نسمة فى الهواء بل هى جسم مادى يحل به العذاب والنار التى تفنيه نار حامية كأى نار تستعر على المواقد ويجب أن يبقى الى الأبد رهبان قرية نورويتش كما يجب أن تبقى كنيسة العذراء فى مدينة نورويتش فهناك شيء واقعى وايجابى ومحتمل فى تصورهما لكل من الحياة والموت

وهكذا بمقتضى فكرة البقاء التى تميزت بالعنف كان الأطفال يؤدبون ويلقن الصبية والبنات حدود سلوكهم ومراكز علاقاتهم حقيقة لابد أن يحصلوا على الأرض ولكن تجب عليهم طاعة والديهم فالأم تغسل رأس ابنتها ثلاث مرات فى الأسبوع ثم تقسو عليها اذا هى لم تحترم آداب السلوك فكانت جنس باستون — وهى سيدة بالمولد والنشأة — تضرب ابنتها اليزابيث وطردت مارجريت باستون — وهى امرأة ذات قلب رقيق — ابنتها من المنزل لانها أحبت ريتشارد كال التابع الأمين اذ لا يجب أن يعانى الأخوة من زواج اخواتهم بمن هم دونهم وبمن يبيعون الشموع (والمخللات) فى فراملنجهام ويتشاجر الآباء مع الأبناء أما الأمهات — وهن يفضلن البنين على البنات — فكن يتقيدن بالعرف والعادة فى اطاعة أزواجهن — وقد توزعت نفوسهن وهن يجاهدن فى قيام الوئام بين الآباء والأبناء وقد فشلت مارجريت — رغما عن آلامها — فى منع تهور ابنها الأكبر جون أو فى منع الكلمات المريرة التى وصفه بها أبوه عندما انفجر الأب قائلا له « انك عالة كالدبور فى خلية النحل التى تسعى لجمع الرحيق من الحقول وهو لا عمل له سوى أن يحصل على نصيبه

من العسل » لقد كان الابن يعامل أبويه بوقاحة ومع ذلك كان لا يصلح لتحمل المسئولية بعيدا عنهما وعن بيته عندما يسافر الى الخارج

وانتهت المشاحنات بعد وقت قصير بوفاة جون باستون الأب فى ٢٢ من مايو سنة ١٤٦٦ فى لندن ونقل الجثمان الى برومهولم حيث دفن ورافق الجثة اثنا عشر فقيرا على الجانبين يحملون المشاعل ووزعت الصدقات وأقيمت القداسات وألقيت المراثى ودقت الأجراس وأقيمت ولائم للمعزيين قدم فيها كميـات هائلة من الدجاج والخراف والخنـازير والبيض والخبز والبن واحتسيت الخمور والبيرة وأشـعلت الشـموع وانتزع لوحان من شباك الكنيسة لكى يتسرب منهما دخان المشاعل كما وزعت الأقمشة السوداء وأضيئت المقبرة بمجموعة من المشاعل ومع كل هذا تراخى جون باستون الوريث فى اقامة شاهد لمقبرة أبيه

كان جون باستون الوريث شابا صغيرا يبلغ من العمر حوالى أربعة وعشرين عاما سئم الحياة الريفية فى الريف الكادح وعندما فر من البيت كان ذلك لكى يلتحق ــ وهذا واضح ــ ببلاط الملك ومهما أثار أعداء آل باستون من شبهات حول أصلهم فان سير جون كان ــ دون أن خطأ ــ نبيلا لقد ورث الأراضى وأصبح الشهد الذى كد فى جمعه النحل ملكا له وكانت غرائز المتعة عنده أكثر من غريزة الاقتناء وجمع بين بخل أمه وطموح أبيه ومع ذلك فقد جمع كذلك بين الخمول وأبهة المزاج من كليهما وكان جذابا فى أعين النساء ، يحب المجتمع والمبارزة وحياة القصور والمراهنات بل قراءة الكتب أحيانا وبدأت الحياة تعتمد من جديد ــ وقد انتهى من دفن جون باستون ــ على أساس مختلف حقيقة لم يحدث تغيير كبير فى الشكل الخارجى اذ ما زالت مارجريت تحكم البيت وتتحكم في حياة الصغار كما كانت تتحكم فى حياة الكبار ٠ ولازال الأولاد فى حاجة الى التأديب للحصول على العلم على يد معلميهم ولازالت البنات تقع فى غرام الرجال الذين لا يصلحون لهن ولابد أن يتزوجن ممن هم لائقون بهن ولابد من جمع الايجـــار واســتمرت الدعوى القضائية التى لا نهاية لها ضد أملاك فاستولف والمعارك تخاض ٠ وذبلت زهور يورك ولانكستر ثم انتعشت من جديد ولازالت نورفوك ممتلئة بالفقراء الذين يسعون الى التخفيف من بؤسهم وعملت مارجريت مع ابنها كما كانت تعمل مع زوجها من قبل مع فارق له مغزى الآن فهى بعد أن كانت تثق فى زوجها وتستشيره أصبحت الآن تطلب المشورة من القسيس

ولكن كان هناك تغيير فى نفسية سيرجون اذ يلوح أن القشرة الخارجية قد استنفذت أغراضها وأن شيئا مرهفا فيه استحسان واستمتاع بالحب بدأ يولد فى قرارة نفسه وعلى أية حال فقد يشرد سيرجون أحيانا عن العمل الذى بين يديه وهو يكتب لأخيه جون الذى يقيم بالبيت ليروى له «نكتة» يطلق بها شائعة أو ليلقن أخاه ــ عن قصد منه وبدهاء ــ فنا من فنون الحب « اخفض جناحك اذا ما أصغيت لأمك ، ولكن لاتتواضع كثيرا أمام الخادمة ، ولا تفرح كثيرا بالنجاح السريع ولا تيأس من الفشل٠ وسوف أكون دائما المبشر بمقدمك والمحتمى بك هنا عندما تحضر أو فى البيت عندما أعود اليه وأرجو أن يكون ذلك قريبا خلال أحد عشر يوما على الأكثر » وبعد ذلك يرى وجوب شراء صقر وقبعة أو يرسل قطعة جديدة من الدانتيل الحرير الى جون فى نورفوك ، ثم يتابع قضيته ، ويطلق صقوره لتطير ثم يئوب بلهفة خالية من أى احساس رقيق بالاخلاص الى ضيعة باستون

مضى وقت طويل انطفأت فيه النار التى أشعلت على قبر جون باستون الأب ومع ذلك فلا زال سيرجون الابن يسوف ولم يضع الشاهد على القبر بعد ٠ ولديه أعذاره فهو مشغول بالقضية المدنية وبأعبائها فى المحكمة ومشغول كذلك بالاضطراب الذى أعقب اندلاع الحروب الأهلية كان وقته مشغولا وأمواله مبددة ولكن قد يكون هناك شىء غريب وقع لسيرجون نفسه ولم يحدث هذا الشىء لسيرجون الذى يتباطأ وحده فى لندن فحسب ــ بل وقع لأخته مارجرى كذلك فقد وقعت فى غرام محضر المحكمة وشمل التغيير كذلك والتر Walter الذى ينظم قصائد من الشعر اللاتينى بمدرسة ايتون وجون الذى يمارس الصيد باطلاق صقوره٠ وبقيت الحياة رتيبة ليس فيها من وسائل التسلية الا القليل ولم يكونوا واثقين ــ ثقة الجيل القديم ــ من حقوق الانسان وفروض الدين ورهبة الموت وأهمية شاهد القبر ولقد شعرت مرجريت المسكينة بهذا التغيير فبدأت تتحسس فى قلق قلمها ثم أخذت تسطر ــ والقلم لا يطاوعها ــ عددا من الصفحات لتكشف عن مشاكلها الأساسية فلم تكن القضية هى التى تحزنها اذ كانت على استعداد لأن تحمى كايستر بيديها اذا استدعى الأمر « على الرغم من اننى لا أقدر على القيادة ولا التحكم فى الجند » وانما هناك خطأ ما قد وقع للعائلة منذ وفاة زوجها وسيدها ٠ فقد يكون ابنها قد أغضب الاله ؛ اذ كان متباهيا أكثر من اللازم وقد يكون مسرفا فى نفقاته أو قد يكون قد قصر فى الرحمة اللازمة نحو الفقراء ومهما

يكن أمر هـــذا الخطأ فانها تعـلم علم اليقين ان ابنها قد أنفق من المال فيما لا يجدى ولا ينفع ضعف ما أنفق أبوه حتى أصبحوا غير قادرين على سداد ديونهم دون بيع جزء من الأرض أو الغابة أو بعضـــاً من محتويات المنزل (فكانت تقول انه الموت بالنســـبة لى كلما فكرت فى شىء من هذا) ، وهكذا يتناولهم الناس فى القرية بسوء فى حديث كل يوم لانهم تركوا جون باستون يرقد فى مثواه وقبره دون شاهد والأموال التى كان من الممكن شراء شـاهد للقبر بهـــا أو المزيد من الأرض أو الأوانى الفضية أو الطنافس أنفقها سيرجون فى شراء ساعات وحلى أو دفعهـا أجورا لكاتب نظير نقل المقالات التى كتبت عن الفروسية وما شابهها من الموضوعات وهذه هى أحد عشر مجلدا رصت فى باستون ـ صفا واحدا الى جانب أشعار ليدجيت(١) وتشوسر وتشيع تلك المقالات جوا غريبا فى منزل متواضع فقد كل مقومات الراحة مقالات تشجع على التراخى والكسل والغرور وتجذب أفكار الرجال بعيدا عن العمل ولا تؤدى بهم الا الى اهمال مصالحهم والتفكير باستخفاف فى الحقوق المقدسة للموتى

وبدلا من أن يمتطى سيرجون صهوة جواده ليتفقد أحوال المحاصيل أو ليتفاوض مع المستأجرين ، كان يقضى نهاره جالسا يقرأ • وهناك، وعلى المقعد الأصم فى الحجرة التى لا توفر أية راحة وبينما الهواء يرفع أطراف السجاد ويؤذى الدخان عينيه ، يجلس سيرجون ليقرأ تشوسر مبددا لوقته حالما • ترى ما هى تلك النشوة الغريبة التى كان يحصل عليها من الكتب؟ والحياة قاسية لا مرح فيهـا بل هى مليئة بخيبة الأمل اذ تمر السنة الكاملة يوما وراء يوم فى صورة كئيبة لا طائل من ورائها، وتساقط قطرات المطر المنهمر على ألواح زجاج النوافذ لم يكن يعنيه كما كان يعنى والده من قبل ولم يكن لديه أى دافع يحتم عليه تكوين أسرة ، أو يدفعه لأن يهيىء مركزا هاما لأولاده الذين لم يولدوا بعد وحتى اذا ما ولدوا فليس لهم الحق فى حمل اسم أبيهم • ولكن اشعار ليدجيت وتشوسر كالمرآة تمر فيها صور الشخصيات بوضوح وصمت وباحكام انها تريه السماوات والمزارع والناس الذين يعرفهم فى تكامل واحكام وبدلا من أن يتسقط الأخبار من لندن بفتور أو يشكل من اشاعة سمعها من أمه مأساة ريفية عن الحب والغيرة ، فقد كان يجد بغيته هنا ؛ وعلى صفحات قلائل من هذه الأشعار كان يجد قصته كاملة بين يديه وهو اذا ما ركب أو جلس الى المائدة فانه سوف يتذكر وصفا أو قولا ينصب على الوقت الحاضر فيدونه

---

(1) Lydgate.

أو يذكر عقدا منظوما من الكلمات يبعث فى نفسه السرور فيطرح جانبا هموم تلك اللحظة ثم يسرع قافلا الى منزله ليجلس على مقعده ويجد فى القراءة حتى يعرف نهاية القصة

ليعرف نهاية القصة !! فما زال تشوسر قادرا على أن يجعلنا نتوق شوقا الى معرفة نهاية القصة ان له موهبة فياضة فى رواية القصة التى يكتبها ، تلك الموهبه التى أصبحت أندر المواهب وجودا بين كتاب القصة فى العصر الحديث فلم يقع لنا من الأحداث ما سبق أن وقع لأسلافنا ، والحوادث قلما تكون لها أهمية اذا ما أردنا أن نعددها بل اننا أصبحنا لا نؤمن بها كحقيقة قد يكون لدينا ماهو أكثر أهمية لنرويه ولهذه الأسباب أصبح رواة القصة الطبيعيون ـ أمثال السيد جارنيت (١) ـ الذى يجب أن نميزه عن غيره من رواة القصة المتكلفين مثل السيد ماسفيلد (٢) ـ أصبح هؤلاء الرواة الطبيعيون نادرين وراوى القصة ـ الى جانب الاهتمام الذى يفوق الوصف بالوقائع ـ يجب عليه أن يروى قصته بمهارة ودون انفعال أو تأكيد ـ بلا مبرر ـ والا فاننا سوف نزدردها دفعة واحدة ثم تختلط أجزاؤها معا . وعليه أن يقف معنا ، ويعطينا الوقت لكى نفكر ونتأمل فى نفوسنا ومع ذلك فهو يحثنا دائما على المضى فى قراءة القصة وقد ساعدت تشوسر فى هذا ـ الى حد ما طبيعة العصر الذى ولد فيه الى جانب ما حظى به من ميزة آخرى لا تتوافر للمحدثين ولن تتكرر بالنسبة لأى شاعر انجليزى آخر لقد كانت انجلترا فى ذلك الوقت ريفا لم يفسده شىء بعد وتفتحت عيناه على أرض بكر وأعشاب وأحراش لم تطأها قدم ولم يكن هناك الا مدن صغيرة وأحيانا ترى قلعة قائمة بين المبانى ولم تكن سقوف الأكواخ تظهر من أعالى الأشجار فى كنت Kent الجميلة فتمسخ جمالها ، ولم يكن ثمة دخان يتصاعد من مداخن مصنع قائم عند سفح التل وكانت حالة الدولة أمرا بالغ الأهمية ـ اذا أخذنا فى الاعتبار كيف اتجه الشعراء الى الطبيعة وكيف استعاروا منها فى تشبيهاتهم وأضدادها حتى عندما لا يصفونها مباشرة ثم يتساءلون هل تزرع الأرض وتمتد لها يد الانسان أم تترك على حالها، وكانت حالة الدولة تؤثر فى الشاعر تأثيرا أكثر عمقا منه فى كاتب النثر . أما بالنسبة للشاعر الحديث وسط برمنجهام وما نشستر ولندن ، على سعة

(١) Mr. Garnett.

(٢) Mr. Masefield.

كل منهـا   فان الريف لا يعـدو أن يكون محرابا للأخـلاق الكريمة اذا ما قورن بالمدينة مهبط الرذيلة   فالريف هو المعزل والمأوى للتواضـع والفضيلة حيث يهرع اليه الناس للاحتماء به ولكى ينهلوا من الأخلاق . وهناك شيء معتل ـ كما لو كان قد انبثق من التقاء البشر ـ وهو عبـادة الطبيعة عند وردز ورث (١) ، وأكثر منه علة ذلك التفانى فى التفصيلات الدقيقة التى أسرف تينسون (٢) فى الالتجاء اليه عند وصفه أوراق الورد وبراعم شجر الليمون   وكان هؤلاء شعراء فطاحل   ولم يكن الريف بين أيديهم الا معرض مجوهرات أو متحفا يضـم أشياء غريبة يصفونها بكلمات قـد تكون أكثر منها غرابة   أما بالنسبة لشـعراء أقـل منهم موهبة فقد فسد المنظر منذ أن حلت الحديقة أو المرج محل البرارى القاحلة وانحسر سفح الجبل الشديد الانحدار عن أرض منبسطة ضيقة   ومنذ أن انتقلوا من أعشاش الطيور الى كيزان الصنوبر فبدت الحيـاة وكأنها قد علتهـا تجاعيد الشـيخوخة وافتقـدنا الأرض المنبسـطة المترامية الأطراف

أما بالنسبة لتشوسر فلقد كان الريف كبيرا جـدا وبريا خالصا بحيث لا يكون مقبولا فى مجموعه وكأنما الطبيعة طبيعة غيره من الشعراء قد فرضت عليه تجربة أليمة فتحول بغريزته من العواصف والصخور الى أيام الربيع المشرقة ذات المنظر المرح خفيف الظل   تحول من القسوة والغموض الى المرح والوضوح   ودون أن يكون لديه عشر الكلمات المعبرة التى هى ميراث العصر الحديث أمكنه أن يصـف فى كلمات قلائل معنى الهواء انطلق (وحتى عندما ندرس النص نجد أنه دون كلمة واحدة من الوصف المباشر)   يقول مثلا

« وأنظر كيف تتفتح الزهور اليانعة »

ويكتفى بهذا

ولم تكن الطبيعة غير المنمقة أو الثائرة فى فوضى مرآة للوجوه الباشة أو متنفسا للأرواح المعذبة   بل كانت الطبيعة موجودة لذاتها   أحيانا غير راضية وأحيانا أخرى سهلة   وانما هى دائما على صفحات تشوسر قسوة ونضرة تصور الحاضر الفعلى   وسرعان ما نلحظ شيئا ذا أهمية عظمى أكثر من المرح ومن روعة المظهر لعالم العصور الوسطى   نلحظ

---

(١) Wordsworth.

(٢) Tennyson.

الصلابة التى تبرز الطبيعة والاقتناع الذى يضفى على الشخصيات حيويتها فهناك منوعات ضخمة فى « حكايات(١) كانتربرى » ومع ذلك ففيها الاصرار على نمط واحد فلتشوسر عالمه وله فتيانه وفتياته • فاذا ما قابل المرء تلك الشخصيات وهى تعيش فى عالم شيكسبير فانه سيدرك انهم من عالم تشوسر وليسوا من عالم شيكسبير

أراد تشوسر أن يصف فتاة فهكذا بدت

عصابة رأسها مزركشة بدقة ،

عيونها رمادية تتلألأ كالبللور ،

فمها صغير رقيق فان ،

ولا شك أن جبهتها دقيقة عالية

وهى مع ذلك لا تكاد تكون ضئيلة الحجم

ثم يستمر يطورها فتغدو شابة عذراء باردة فى عذريتها

وأنا ــ كما تعلم ــ فى صحبتك

فتاة تحب الصيد وركوب الخيل ،

وتحب التوغل فى الغابات البرية

ولا أحب أن أكون زوجة وأما لأولاد

ثم يفكر تشوسر فى الحبيب وكيف يكون

وهى دائما حصيفة فى ردودها

وهى كالشاعر بالاس Pallas فى ذكائها •

لا زيف فى عباراتها

تبدو ذكية وانما على طريقتها

فهى اذا تحدثت كان لكلماتها

رنين الفضيلة والرقة

---

(١) Canterbury Tales.

كل واحدة من هذه المقتطفات ـ فى الواقع ـ مقتبسة من حكاية مختلفة ولكنها عبارة عن أجزاء ـ كما يحس المرء ـ لنفس الشخصية التى يتخيلها فى عقله وقد لا يشعر بذلك وهو يفكر فى شابة صغيرة ولهذا السبب كلما ظهرت فى قصة من حكايات كانتربرى ـ تحمل أسماء مختلفة ـ فانها فى الواقع لا وجود لها الا فى رأس الشاعر وهو يفكر فى امرأة صغيرة بطبيعة الحال وكذا عندما يفكر فى العالم الذى تعيش فيه شخصياته فهو انما يفكر فى نهايته وفى طبيعته بنفس المهارة وبنفس الفن لذلك أصبح عقله طلقا يعمل طاقاته فى أغراضه ولم يخطر على باله أن جريزيلدا (١) ربما تتطور أو تتغير ولا شىء يشينها ، ولا تردد، وهى لا تعنى شيئا راضية بأن تكون على ماهى عليه وعلى ذلك يمكن أن يستكين لها العقل بارتياح لا ارادى فيسمح له أن يضفى عليها ـ بتلميحات وافتراضات ـ من الصفات أكثر مما هى عليه فى الواقع وهكذا تكون قوة الاقناع ـ وهى هبة نادرة ـ هبة يشاركه فيهـا ـ فى وقتنا الحاضر ـ جوزيف (٢) كنراد فى باكورة قصصه ، هبة ذات أهمية بالغة اذ عليها يعتمد كل ثقل البناء وبمجرد الايمان بشباب وشابات تشوسر نصبح فى غير حاجة الى الوعظ أو الاعتراض ونحن نعلم ماذا يراه طيبا وماذا يراه رديئا ، وعنده خير الكلام ما قل ودل • فلندعه يتقدم بقصته يرسم الفرسان والسادة نساء طيبات ونساء خبيثات ، طهاة وبحارة وقساوسة وسوف نمدهم بالمناظر ونمنح مجتمعه معتقداته وموقعه بالنسبة للحياة والموت وهم يقومون بالرحلة الى كانتربرى فهى بمثابة حجة روحية •

ان هذا الاخلاص البسيط لكل ما يدركه من مدركات كان أسهل فى ذلك الوقت منه الآن من ناحية واحـدة على الأقل وهى أن تشوسر يستطيع أن يعبر بصراحة عما نعبر عنه نحن بمكر أو دهاء أو عما لانستطيع أن نعبر عنه أصلا ، ونراه قادرا على أن يعطى لكل معنى فى اللغة تعبيرا وبذلك لا يبقى عدد كبير من أجمل تعبيراتنا أخرس نتيجة لعدم الاستعمال• فاذا أراد كاتب جرىء أن يستعمل بعضا من تلك العبارات بدت غير مألوفة، بل انا نستغيث من مثل هـذا التعبير متسائلين كيف بقى هـكذا مع التعبيرات الأخرى وكثير من أعمال تشوسر أو ربما بضعة سطور من

---

(١) Griselda.

(٢) Joseph Conrad.

كل قصة من القصص غير سليمة اذ انها تعطينا ونحن نقرؤها احساسا غريبا بالعرى فى الهواء بعد أن كنا نستتر فى أسمال بالية وكما أن بعضا من الدعايات تعتمد على القدرة على الكلام ـ بغير تحفظ أو رقيب ـ عن أجزاء ووظائف الجسم فقد فقد الأدب المحتشم طرفا من أطرافه كما فقد قدرته على خلق زوجة باث (١) ومربية جوليت (٢) وأحزابهـا مثل شخصية مول فذندوز (٣) المعروفـة رغم أن التشـابه بينهـن باهت وقد اضطر ستيرن (٤) الى كتابة الأدب الفـاضح خوفا من أن يوصف بالخشونة والغلظة ـ ولابد انه كان لبقا وان كان غير مرح وكان عليه أن يلجأ الى التلميح بدلا من الافصاح وهل نستطيع بعد أن تركنا كتاب عولص (٥) لمؤلفه جويس وراءنا أن نصدق ـ أن ضحك الأيام الخالية يمكن أن تستعيده آذاننا مرة أخرى ؟

يا يسوع ، يا رب متى تذكرنى ،
أقسمت بيمينى وأقسمت بروحى
انها محفورة فى قلبى ها هنا
وحتى يومى هذا ، ما زالت تجعل قلبى يدق
فكأننى قد ملكت العالم فى زمانى
ان صوت تلك المرأة العجوز قد سكت الآن

ولكن هناك سببا آخر أكثر أهمية للبريق العجيب والسرور المؤثر الذى ما زلنا نجده فى حكايات كانتربرى فقد كان تشوسر شاعرا لم يهرب من الحياة التى كان يحياها الناس فى ذلك الوقت أمام ناظريه فهو يرى مثلا مزرعة بما فيها من قش وجلة وديوك وفراخ لا تحصى (تماما كما تعودنا أن نراها) فيجد فى ذلك موضوعا شعريا على عكس مانعتقد ويبـدو أن الشـعراء حاليا اما أن يكونوا قد استبعدوا المزرعة كلية من

---

(١) Wife of Bath.
(٢) Juliets Nurse.
(٣) Moll Flanders.
(٤) Sterne.
(٥) Joyce's Ulysses.

شــعرهم أو انهم يصرون على أن تكون المزرعة من مزارع الاغــريق فى تسلاى (١) وفيها خنازيرها الأسطورية ولكن تشوسر يقول مباشرة

وكانت تمتلك ثلاثة خنازير لا أكثر من ذلك

وثلاث بقرات وخروفا يدعى مالى

أو يقول مرة أخرى

كانت تمتلك فناء يحيط بها من كل جانب

وعلى مقربة منه بئر جافة والبوص قائم

انه لا يخجل من شيء ولا يخشى شيئا ـ فهو دائما دائما يتناول موضوعه عن كثب ـ يقول ليصف لحية رجل مسن

ذو لحية كثة يعلوها شعر خشن

أشبه بقشر السمك حاد كالشوك

أو يصف رقبة الشيخ

ان الجلد المتهدل حول رقبته يهتز

كلما صاح بالغناء ،

وانه ليخبرك بما تلبسه شخصياته وأوصافهم وأشكالهم وما يأكلون وما يشربون كما لو كان الشعر قادرا على أن يتناول الأحداث العادية في هذه اللحظة بالذات من يوم الثــلاثاء السادس عشر من ابريل عــام ١٣٨٧ دون أن ينتقص من جماله أو رونقه أما اذا رجع الى عهد الاغريق أو الرومان فانما يكون ذلك لمجرد أن قصته قادته الى هناك فلم تكن لديه الرغبة فى أن يطوى نفسه فى الحفريات وبذلك يتوارى خلف العصور القديمة أو أن يهز روابط اللغة الانجليزية التي تربط عامة الناس بعضهم الى بعض

وعلى ذلك عندما نقول اننــا نعرف نهـــاية الرحلة فان من العسير أن نقتبس أو نشير الى سطور بالذات على انها هى التى استخلصنا منهــا معلوماتنا ان تشــوسر يثبت ناظريه على الطريق التى أمامه وليس على

---

(١) Thessaly.

العالم الذى يحيط بهذه الطريق فقدرته فى التأمل المطلق كانت محدودة وكان لا يقبل ـ فى حدة غريبة ـ أية مناقشة مع العلماء أو رجال الدين

ان الجواب على ذلك لرجال الدين أتركه ،
ولكنى أدرك أن الآلام فى هذا العالم ستزداد ،
ما خطب هذا العالم وماذا يطلب الانسان فيه ؟
انه يعيش لفترة فى حب وبعد ذلك فى برد القبور
وحيدا بغير أنيس أو أليف
ما أقسى هذه الحياة التى تحكمها يا رب !
هذا العالم ارتبط منك بكلمة الخلود
نقشت على منضدة من الماس
تشبيهاتك والأرض الأبدية
وماذا يعنى البشر أكثر من أنهم فى قبضتك
كالماشية تجثو وتطلب رحمتك

وكانت الأسئلة التى يطرحها تشوسر تلح عليه ولكن نزعة الشعر عنده كانت من القوة فى هدفها بحيث لا يقف ليجيب على تلك الأسئلة بل كان يتركها بلا جواب حتى لا يصبح هذا الجواب المؤقت حجر عثرة فى طريقه وبذلك يظل متجددا بالنسبة للأجيال التى تعقبه • وفى حياته كان من المستحيل أن يعتبر تشوسر منتميا لهذا الحزب أو ذاك أهو ديمقراطى أهو أرستقراطى وهو وان كان رجلا غاية فى التدين فانه كان يضحك من القساوسة • وكان خادما قديرا للشعب وجليسا للأمراء أما وجهة نظره نحو الأمور الجنسية فقد كانت غاية فى التساهل وكان يشفق من الفقر ومع ذلك لم يفعل شيئا ليحسن من حال غالبية الفقراء • ويمكن القول بغير حرج انه لم يصدر قانون واحد ولم يقم بناء واحد نتيجة لأى شىء قاله تشوسر أو كتب عنه وعلى الرغم من ذلك فعندما نقرأ لتشوسر فاننا نزدرد الفضيلة من كل فتحة من فتحات مسامنا وذلك لأن الكتاب ينقسمون الى نوعين فهناك الكهنة الذين يمسكون بيديك ويقودونك مباشرة الى الغموض وهناك الرجل العادى الذى يخفى عقائده فى الماديات فى الجسد والدم ويقيم نموذجا متكاملا من العالم دون استبعاد للرذائل أو

التأكيد على الفضائل ومن بين الكهنة ووردز وورث (١) وكولريدج (٢) وشيلي (٣) ، فهم يقدمون لنا النص تلو النص ليعلق على الجدران والحكمة تلو الأخرى لتجثو على القلب كما يوضع الحجاب الواقى من المهالك

تبا للقلب الذى يعيش منعزلا

ان الذى يصلى فى خشوع هو من يحب فى صدق

يحب كل شىء العظيم والحقير على السواء

مثل هذه الكلمات من النصائح والأوامر ترد على الخاطر فى الحال ولكن تشوسر يدعنا نسير فى طريقنا ونؤدى الأعمال العادية مع النـاس العاديين ونتمثل حكمه فى معاملات الرجال والنساء كل مع الآخـر فنراهم وهم يأكلون ويشربون وهم يضـحكون ويتحـابون ونحس بمعنوياتهم دون أن تذكر كلمة واحدة وهكذا نراهم يندمجون ويصطبغون مع خلقهم ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أقوى من ذلك موعظة حيث كل التصرفات والانفعالات معروضة عرضا عمليا وبدلا من أن تقدم لنا النصيحة فى أسلوب مهيب يتركنا نشرد ونحملق ونستخلص لأنفسـنا المعانى انها فضيلة المخالطة العادية ، فضيلة الروايات والقصص التى يحكم عليها بحق ، الآباء ورجال المكتبات (٤)(بأنها أقوى اقناعا من الفضيلة التى يصدرها فى الشعر)

وهكذا نشعر عندما نطرح تشوسر جانبا انه ودون أن يذكر كلمة واحدة يقدم لنا النقد الكامل ، ويشتمل تعليقه كل ما كنا نقول أو نفكر فيه أو نقرأ أو نفعل وأننا عندما ندع تشوسر جانبا ، يمتلكنا احساس قوى جدا بأننا كنا فى صحبة طيبة ، وأننـا قد ألفنـا أساليب المجتمع الجيد ذلك لأننـا بينما نحن نمشى الهوينى فى الواقع فى الريف الطبيعى الذى لم تمتد اليه بعد يد الانسان بالتجميل نمشى أولا مع رفيق هو خير من يطلق النكتة أو يغنى أغنية تلو أخرى ندرك أنه على الرغم من ان ذلك العالم ـ وان كان يشبه عالمنا فانه ليس فى الواقع عالمنا

---

(١) Wordsworth.

(٢) Coleridge.

(٣) Shelley.

(٤) تقصد المؤلفة فرجينيا وولف بهم الطبقة المثقفة من الادباء لانهم هم الذين كانوا يقومون على أمر المكتبات (المترجمة)

اليومى بل انه دنيا الشعر فكل شىء فيه يقع سريعا وأكثر تركيزا وفى نظام أكثر احكاما من الحياة أو مما يصدر فى النثر فمن المتفق عليه فى الشعر استبعاد الكآبة وذلك جزء من رقى الشعر وهناك أبيات من الشعر تعبر مقدما عن كل ما كنا على وشك النطق به كما لو كنا نقرأ أفكارنا قبل أن نتعثر فى الكلمات وهناك أبيات أخرى نعيد قراءتها ونشعر بذلك الذوق الرفيع وبذلك السحر الذى يحفظ عليها بريقها فى العقول لفترة طويلة وهذه الأبيات جميعها تبقى فى مكانها وتحكم تنوعها وتجولها القوة التى تعتبر من أقوى القدرات تأثيرا وهى القدرة على التشكيل ـ هى قدرة المهندس وهذا هو ما يتميز به تشوسر واننا نشعر على الفور بتلك السرعة وبهذا السحر مع اننا لا نستطيع التدليل على ذلك بمقتطفات من أشعاره وعند أغلب الشعراء تكون المقتطفات سهلة وواضحة كبعض الكتابات التى تزدهر فجأة وكبعض الفقرات التى تبرز عن غيرها وانما تشوسر مستو فى أبياته متوازن فى قدراته ولايمكن الاستعارة منه فاذا أخذنا ستة أو سبعة من الأبيات على أمل أن نجد فيها تلك الصفات فاننا لا نجدها

الهى أنت تعلم يا من له من الأب منزلة.
جردت عنى أسمالى
ثم ألبستنى برحمتك من الثياب الغالية
ولم أقدم لك شيئا لخوفى
سوى ايمانى ونفسى وعذريتى

وفى هذا المقام لا يبدو انه خالد ومؤثر فحسب ، بل ملائم ليعبر عن الجمال الصارخ فاذا فرقنا هذه الفقرة وفصلنا أبياتها فانها تصبح عادية لا جديد فيها ويبدو ان لتشوسر مقدرة فنية هى التى تجعل الكلمات العادية والاحساسات البسيطة ـ اذا ما انتظم عقدها ـ تتألق واذا ما انفرط عقدها زال عنها بريقها وعلى ذلك فالمتعة التى يمنحنا اياها تشوسر تختلف عن المتعة التى يمنحها لنا أى شاعر آخر وذلك لأنها أكثر التصاقا بما نشعر به نحن أو بما نلاحظه مثل تناول الطعام والشراب والحديث عن الطقس البديع والربيع والديكة والدجاج وعمال المطاحن والنساء العجائز من الفلاحات وعن الزهور ـ ان رؤية كل هذه الأمور العادية على هذا القدر من النظام فيها منبه خاص يؤثر فينا ـ كما

يؤثر الشعر فينا ـ على الرغم من أنها مشرقة أو هادئة تماما كما نرآها فى الخلاء • وهناك شيء جديد فى هذه اللغة التى لا تعتمد على المجاز ، ذلك هو الجمال الجليل الخالد فى الجمل الصادقة التى تتتابع وراء بعضها كالنساء اللاتى يستعملن غلالة رفيقة فترى من ورائها ملامح الجسم اذا ما سرن

ثم سرعان ما وضعت قدر الماء

الى جوار عتبة حظيرة الثور

عندئذ يطل وجه تشوسر من الخلف كلما أخذ الموكب طريقه فى توافق مع جميع الثعالب والحمير والدجاج ليسخر من أبهة الحياة وحفلاتها بذكاء ومهارة على الطريقة الفرنسية وفى نفس الوقت يعتمد على قاعدة عريضة من الدعابة الانجليزية

وعلى هذا قرأ سيرجون كتبه الخاصة بتشوسر فى الغرفة التى لاتوفر أية راحة بينما الريح تزأر والدخان يتصاعد خافتا ، تاركا قبر أبيه دون شاهد ولكن لا الكتاب ولا قبر أبيه بقادرين على أن يشغلا باله طويلا فهو واحد من تلك الشخصيات الغامضة التى تعيش على الخط الفاصل حيث يلتقى جيل بجيل آخر وهذه الشخصيات ليست بقادرة على أن تعيش فى أى من الجيلين ففى لحظة ينصرف سيرجون بكليته الى شراء الكتب الرخيصة ، ثم فى لحظة أخرى يهرع الى فرنسا قائلا لوالدته « ان فكرى الآن ليس متعلقا بالكتب » وفى منزله حيث تغرق والدته مارجريت على الدوام فى عمل قوائم الجرد أو تفضى بأسرارها الى القسيس جلويز لا يجد سيرجون الأمن والراحة وكانت الأم محقة من جانبها وكانت امرأة شجاعة من أجلها يمكن للفرد أن يتحمل وقاحة القسيس وأن يكظم غضبه عندما يحتدم النقاش ويصبح علنيا وعندما يتبادل كل من سيرجون والقسيس الصياح « أيها القسيس المتكبر » و « أيها المالك المتعجرف» ويتملكهما الغضب فى الغرفة كل هذا ـ بالاضافة الى متاعب الحياة وضعف الشخصية ـ دفع سيرجون الى التسكع فى أماكن اللهو بحيث لا يعود الى البيت الا متأخرا ويؤجل الكتابة كما يؤجل سنة بعد أخرى استكمال قبر أبيه •

ومع ذلك فقد مضى اثنا عشر عاما منذ وورى جون باستون الثرى• وقد أرسل رئيس دير برومهولم كلمة يقول فيها ان كسوة المقبرة أصبحت فى حالة رثة حتى انه حاول ترميمها بنفسه والأشد مرارة من ذلك ـ على امرأة لهـا كبرياء مثـل مارجريت باستون ـ ان القرويين كانوا

يتهامسون بحاجة آل باستون الى التدين وان عائلات أخرى ـ كما ترامى الى سمعها ـ ليسوا بأعظم منهم شأنا ينفقون المال فى اصلاح نفس الكنيسة التى يرقد فيها زوجها نسيا منسيا وأخيرا ثاب سيرجون وأقلع عن غيه فى حضور المباريات وقراءة تشوسر كما هجر خليلته آن هولت وتذكر قطعة من القماش الموشى بالذهب والتى كانت تستعمل فى تغطية نعش والده والتى يحسن بيعها الآن ليغطى ثمنها مصاريف مقبرة والده وكانت مارجريت تحتفظ بها فى خزانة تدخرها وتحافظ عليها وأنفقت فى اصلاحها عشرين ماركا ـ امتلأت نفسها كمدا لفقدها ولكنه لم يكن هناك بد من ذلك فبعثت بها الى ابنها ولا زال الشك يراودها فى نياته أو فى صدق نياته فى الوفاء بما تعهد به فكتبت اليه تحذره « اذا كنت ستبيعها لغرض آخر فانى ـ وعهد الله ـ لن أثق فيك بعد ذلك ماحييت ».

ولكن هذا العمل الأخير ـ ككثير من الأعمال التى قام بها سيرجون طوال حياته ـ لم يتم فقد نشب نزاع بينه وبين دوق سوفوك فى عام ١٤٧٩ اضطر معه سيرجون لزيارة لندن على الرغم من الوباء الذى كان مستشريا فيها وهناك وفى المساكن القذرة وللانخراط فى المشاحنات والصياح العنيف من أجل المال مات سيرجون وحيدا ودفن فى هوايت فرايزر فى لندن ، تاركا ابنة غير شرعية وعددا ضخما من الكتب وقبر أبيه الذى ما زال ناقصا

ان الأربعة الأجزاء الضخمة من خطابات باستون قد ابتلعت هذا الرجل الضائع كما يبتلع اليم قطرات المطر وذلك لأن تلك الخطابات ـ شأنها شأن كل مجموعات الخطابات ـ تبدو كأنها تشير الى أننا لا نهتم كثيرا بحظ الأفراد فالعائلة ستستمر فى البقاء سواء فى ذلك أعاش سيرجون أم مات فطريقة هؤلاء الأفراد هى جعل التفاهات تتراكم فى كومات من رماد مشئوم فى أعداد لا حصر لها من تفاهات الحياة اليومية وهى تمر ثم تتلاشى سنة بعد أخرى وفجأة يصحو هؤلاء الأفراد ويسطع ضوء النهار ويتكامل حيا أمام ناظرينا ففى الصباح الباكر يهمس الرجال فى آذان نسائهم وهن يحلبن اللبن وفى المساء تصيح زوجة وارن فى فناء الكنيسة فى وجه آجنس باستون العجوز « ان شياطين الجحيم تدفع

بروحها الى النار » ٠ وان الخريف الآن في نورفوك وسيسلي دون(١) يأتي الى سيرجون يئن أو يشكو طلبا للملابس « وفضلا عن ذلك يا سيدى فأنتم تدركون أن الشتاء والجو القارص قاب قوسين أو أدنى وأنا لا أملك الا القليل من الملابس التى هى من فضل احساناتكم » هذا هو يوم قديم مر أمامنا ساعة بساعة

وفى كل هذا لم تكن هناك كتابة لمجرد الكتابة لا فائدة من القلم اذا لم ينقل السعادة والترفيه أو أى لون من ملايين ألوان الاعزاز والمحبة والاخلاص التى امتلأت بها الرسائل الانجليزية فى ذلك الوقت ومن آن لآخر وتحت تأثير الغضب فقط ـ فى أغلب الأجزاء ـ كانت مارجريت باستون تومض ببعض الرأى الحصيف أو اللعنة الحادة « يقطع الرجال أحيانا سيورا كبيرة من جلود غيرهم من الرجال ونحن نضرب فى الأكمات وغيرنا يحصل على الصيد يتعجلون الغنيمة وهى فى قلبى حراب مدببة » هذه هى فصاحتها وتلك هى آلامها ان ابناءها ـ وهذه حقيقة ـ يطوعون أقلامهم بسهولة أكثر لارادتهم فهم جامدون عندما يمزحون وهم غلاظ اذا اشتكوا وهم ـ عندما يتحدثون عن أنفسهم ـ يعطون صورة كاركاتورية أو بهلوانية تبين غضب القسيس العجوز ولومه الخشن ، ثم يعطون عبارة أو عبارتين بغير تنميق كما تصدر مباشرة فى حديث مواجه ولكن عندما كان تشوسر حيا ، كان لابد قد سمع بهذه اللغة بالذات ، لغة الحقيقة الواقعة غير المجازية التى تعد أكثر صلاحية للرواية منها الى التحليل وأصدق فى التعبير عن الرزانة الدينية أو الدعابات المختلفة ولكنها لغة جافة عندما تخرج من بين شفاه الرجال والنساء وهم يتبادلون الحديث فيما بينهم وجها لوجه وبالاختصار انه من السهل أن نرى من خلال خطابات باستون لماذا لم يكتب تشوسر لير (٢) أو روميو وجولييت (٣) وانما كتب حكايات كانتربرى

---

(١) Cecily Dawn.

(٢) Lear.

(٣) Romeo and Juliet.

ودفن سيرجون وخلفه شقيقه جون الصغير   واستمرت خطـابات باستون واستمرت الحياة فى باستون كما كانت عليها من قبل   يخيم عليها احساس بعدم الارتياح والافتقار الى القيم   مظاهر خلابة تخفى وراءها الحقيقة العارية   فالملابس الفاخرة توارت فيها أجسام قذرة وقطع الأوبيسون الفاخرة تتأرجح على جدران واهية ، وحجرات نوم تضم خصوصياتها   ورياح تجتاح أرضا لا ظل فيهـــا ولا ماء • وبقيت قلعة كايستر عبارة عن أحجار جامدة تغطى ستة أفدنة من الأراضى وظل آل باستون ذوو الوجوه الجامدة يكنزون الثروات بغير ملل ويجوبون طرق نوفوك فى مثابرة وشجاعة واصرار وكأنما الفضل المطلق فى أن أرض انجلترا العارية جرت ماء وظلا وثمارا انما يعود اليهم وحدهم

عندما لا نعرف اليونانية

لا جدوى ولا طائل من وراء الادعاء بمعرفة اليونانية ، اذ اننا في جهلنا بهذه اللغة يجب أن نرضى عن طيب خاطر بأن نكون في المؤخرة طالما اننا لا ندرك رنين الكلمات كما لا ندرى متى – على وجه التحديد – يجب أن نضحك اذا كان الموقف يقتضى الضحك أضف الى ذلك أننا لا نعلم كيف كان الممثلون يقومون بأدوارهم والاختلاف كبير بين هؤلاء القوم الغرباء عنا وبيننا لا من حيث الجنس واللسان فحسب ، وانما الى جانب ذلك تفصل بيننا هوة سحيقة من التقاليد والأكثر غرابة أننا نتمنى معرفة اليونانية أو أننا نحاول تعلمها ونحس بأننا مشدودون اليها ونظل في محاولة تكوين فكرة عن معنى اليونانية ومع ذلك فمن ذا الذى يرشدنا كيف نفرق بين الكلمات المتقابلة ومرادفاتها ؟ ومن ذا الذى يحدد لنا أيها أقرب الى المعنى الحقيقى في اليونانية ؟

ومن الواضح وضوحا يأتى في المرتبة الأولى – أن الأدب اليونانى انما هو أدب غير شخصى فبضع مئات السنين التى فصلت بين جون باستون وبين أفلاطون كما فصلت البقاع بين النرويج وأثينا هى التى خلقت فراغا من الاتساع بحيث لم يقو المد الجارف في المناقشات الأوروبية على اجتيازه فعندما نقرأ لتشوسر فاننا نرتفع اليه دون أن نشعر فوق تيار حياة أسلافنا الذى نقل الينا تلك الأعمال وأخيرا فكلما كثرت السجلات على الزمن وامتدت الذكريات أصبح من الأندر والأقل أن نجد الشخصية التى ليس لها عوامل ارتباط بغيرها أو بحياتها أو بلغتها بزوجها أو بعائلتها وبيتها ، بأخلاقها وسعادتها وحظها المنكود ومع ذلك بقى الاغريق في مجال خاص بهم وكان القدر كريما معهم اذ حماهم من الغلظة ، اننا لا نعلم أكثر من أن أوربدس (١) التهمته الكلاب وأن

(١) Euripides.

اسكيلوس(١) قتل بحجر وان سافو(٢) ألقى بنفسه من أعلى الصخرة وليس لدينا منهم الا أشعارهم

ولكن هذا ليس كل الحقيقة ولا يمكن أن يكون كذلك فلنختر أية مسرحية كتبها سفوكلس(٣) ولنقرأ منها

« ان ابنه هو الذى قاد جيوشنا قديما فى موقعة تروى » « ابن أجا ممنون »

وفى الحال يبدأ العقل فى عملياته الفكرية فيما يحيط بذلك يخلق العقل خلفية لعالم سفوكليس من النوع الوقتى ويتخيل العقل قرية ما فى مكان ناء من الدولة يشرف على البحر وحتى فى أيامنا هذه يمكن لمثل تلك القرية أن توجد فى برارى انجلترا مثلا وبينما نجوس فيها لانملك الا أن نشعر أن هذه القرية وهذه المجموعة من الأكواخ قد انقطعت عن الطريق وعن المدنية والطريق والمدنية هما من عناصر الكيان الصحيح للقرى وها هى الابراشية وبيت العمدة والمزرعة والأكواخ ؛ اما الكنيسة فهى للعبادة وأما النادى فللمقابلات وأما ملعب الكريكيت فللعب وعلى ذلك نرى ان الحياة قد برزت ببساطة فى عناصرها الرئيسية فللرجل عمله وللمرأة عملها كل يعمل لسلامة الآخرين وسعادتهم وهنا في هذا المجتمع الصغير ـ تصبح الشخصيات جزءا من مكونات هذه القرية فنجد مثلا ان انحرافات رجال الدين معروفة وان السيدات الراقيات يفقدن أعصابهن لأتفه الأمور ؛ كما نشاهد مبارزة الحداد مع بائع اللبن، وينبع الحب بين الفتيان والفتيات ليجمع من كل زوجين اثنين هناك فى تلك القرية خطت الحياة نفس علاماتها ومساريها منذ أجيال وقامت عادات وعششت أساطير فوق قمم الجبال والأشجار المنعزلة ولهذا أصبح للقرية تاريخها وأعيادها ومنافساتها

ان الجو فى بلاد الاغريق هو الذى يستحيل خلقه فى انجلترا فاذا حاولنا أن نفكر فى سوفوكليس فان علينا أن نزيل الدخان والرطوبة والضباب الكثيف الرطب المشبع به جونا فى انجلترا وعلينا أيضا أن نشحذ قمم التلال وأن نتصور جمال الصخور والأرض أكثر مما نتغنى

---

(١) Aeschylus.
(٢) Sappho
(٣) Sophocles
(٤) Background.

بجمال الغابات والمزارع لقد تغيرت الحياة تبعا لذلك ونتيجة للدفء وللشمس المشرقة وصحوة الجو أكثر أيام السنة ولهذا كان الاغريق يقضون حياتهم فى الهواء الطلق وترتب على ذلك انهم تناولوا أتفه الأمور بالمناقشة فى الطريق وليس فى « الصالونات » • وما زال أثر ذلك واضحا فى ايطاليا وهو أمر معروف لكل من زارها وهكذا صارت الحياة مسرحية ؛ وانطلقت تبعا لذلك ألسنة الناس من عقالها وأوحى اليهم هذا الجو بالسخرية وبالضحك وبالذكاء اللماح وبانطلاقة اللسان وخاصة بالنسبة للأجناس فى الجنوب (التى ليس لها ما يقابلها فى انجلترا) حيث التحفظ البطيء والأصوات الخافتة والتأمل والتمعن فى الحزن الذى يخيم على الناس ان هذا الجو قد دفع الناس فى انجلترا الى قضاء أكثر من نصف السنة داخل بيوتهم

تلك هى الصفة التى نلتقى بها فى الأدب اليونانى البديهة اللماحة والسخرية وطبيعة البقاء فى الهواء الطلق وهذا يبدو واضحا فى المناطق العظيمة والبسيطة على السواء • ان الملكة والأميرات فى هذه المأساة بالذات لسوفوكليس يقفن على الباب يتبادلن الحديث وكأنهن من الفلاحات ـ وكما يجب أن نتوقع ـ يملن الى الابتهاج فى الحديث والى تقسيم الجمل الى مقاطع والى الاصرار على التفوق اللفظى

ان مزاج هؤلاء القوم ليس ذا طبيعة جذابة مثل مزاج سعاة البريد عندنا وسائقى سيارات الأجرة ففى تعبيرات الذين يتسكعون عند منعطفات الطريق شيء من القسوة بقدر ما وهبوا من ذكاء ففى المآسى الاغريقية قسوة تختلف تمام الاختلاف عن العنف فى الأدب الانجليزى أليس بنتيوس (١) ـ مثلا ـ هو الرجل الوقور المحترم الذى أتى بالمهازل فى بكاى (٢) مملكة المخمورين قبل أن يتحطم ؟ وفى الواقع ـ وبطبيعة الحال ـ كانت هؤلاء الملكات والأميرات خارج الأبواب يمر عليهن النحل بطنينه ويداعب النسيم ملابسهن انهن كن يوجهن حديثهن الى عدد ضخم من المتفرجين الذين يلتفون حولهن فى ذات يوم من الأيام الصحوة من أيام الجنوب عندما تكون الشمس لافحة ومع ذلك فالهواء ثائر وعلى الشاعر عندهم أن يفكر فى موضوعات واقعية مختصرة يعددها الناس، ينقلها فورا وبأسلوب مباشر الى النظارة نظارة قد يبلغون سبعة عشر

---

(١) Pentheus.

(٢) Bacchae.

ألفا كلهم آذان صاغية وعيون متلهفة مرهفة لا تحتمل أجســـامهم البقاء طويلا على وضع واحد اذ تتصلب عضلاتهم لو بقيت بغير حراك انهم فى حاجة الى الموسيقى والرقص ولهذا كان من الطبيعى أن يختار الشاعر احدى هذه الأساطير مثل تريزترام(١) وايزيولت(٢) اللذين يعرفهما كل فرد وعلى ذلك يكون فيهما من العواطف الملتهبة شحنة ضـــخمة وما على الشاعر المحدث الا أن يعيد صياغتها فى قصيدة جديدة

فمثلا يتناول سوفوكليس قصة **ألكترا** القديمة ويفرض عليها طابعه الخاص ومع ذلك ــ وعلى الرغم من ضعفنا واضطراب معاييرنا ــ ما الذى يبدو لنا واضحا ؟ ان عبقريته فى المقام الأول من النوع الفياض وانه يختار القالب الذى اذا فشل فانما يكون فشله ذريعا منذرا بالدمار بغير رفق عندما يتضمن أمورا ليست ذات أهمية أو غامضة ؛ أما اذا نجح فهى تصل الى الأعماق وتلمس شغاف القلوب وتقف أمامنا « الكترا » كمـا صـــورها سوفوكليس شخصـــية متماسكة محكمة لا تخرج عن الخطوط المرسومة لها وكل حركة انما هى تعبير دقيق ــ ولكونها مقيدة ــ تنكر على نفسها أى تصرف أو تكرار أو اقتراحات وهى لذلك تكون كالدمية المقيدة بقواعد وأصول كلماتها عندما تتأزم المواقف تجدها فى الحقيقة عارية لا معنى لهـــا وما هى الا مجرد أنات يأس أو صيحـات فرح أو صرخات كره ٠

« يا لشقائى ، لقد هلكت هذا اليوم »

« انزع المعطف المزدوج ، اذا كانت لديك الشجاعة »

ولكن تلك الصيحات تعطى الملامح للمسرح وترسم حدوده وبهذه الطريقة ــ ولكن على درجة كبيرة من الاختـــلاف ــ يمكن أن تضـــع جين أوستن(٣) قصة فى الأدب الانجليزى وفى هذه القصة تقول اما (٤)

« سوف أرقص معك »

ان هذه الجملة تطغى على غيرها ومع أنها ليست أكثر انطلاقا أو أكثر عنفا وهى لا تجذبك لرشاقتها لغويا ــ فهى تحمل فى طياتها كل

---

(١) Tristram.

(٢) Iseult.

(٣) Jane Austen.

(٤) Emma.

الكتاب وفى كتابة جين أوستن تجد نفس المعنى مع أن القيود أقل احكاما ، ونجد كذلك شخصياتها محكمة مقيدة ببعض الحركات المحدودة • وهى كذلك ـ فى نثرها المتواضع اليوم ـ تختار من الفن الصعب أخطر مسالكه حيث يكون معنى أقل هفوة النهاية الفاشلة •

ليس من السهل أن نكشف السر الذى يعطى صرخات ألكترا كل هذه القوة لتقطع فى النفس وتحز أو تثيرها ولعل السبب فى ذلك يرجع من ناحية الى أننا نعرفها، وأننا نلتقط من اتجاهات الحديث والتواءاته لمحات عن شخصيتها ومظهرها ، وهى النواحى التى أهملتها ؛ ولمحات أخرى عن شيء تعانيه يثير الغضب وهى تستوعبه بكل قدراتها • ـ كما تعلم هى عن نفسها ـ « ان تصرفى غير ملائم ولا يناسبنى » لقد طمس الخوف من موقفها على عينها وحقر من شأنها وشهدت فتاة غير متزوجة شرور أمها ففضحتها على الملأ بصيحات عالية مدوية وبعنف ومن ناحية أخرى فاننا نعلم بنفس الطريقة أن كلايتمنسترا (١) ليست شريرة على هذا القدر فهى تقول

« ان الأمومة قدرة خارقة »

ولا يجوز أن نصفها بأنها قاتلة عنيفة لا يمكن اصلاحها أو تقويمها وهى التى قتلها أوريستس (٢) داخل المنزل وكانت ألكترا ترجوه أن يحطمها كلية « اضرب ثانية » ان الذين كانوا يمثلون أمام المتفرجين تحت سفح الجبل كانوا ممتلئين حيوية ومهارة وليسوا مجرد صور أو قوالب آدمية من الجبس

انهم لا يؤثرون فينا لمجرد اننا نستطيع تحليل شخصياتهم الى مشاعر • ففى ست صفحات من بروست (٣) يمكن أن نجد عواطف أكثر تعقيدا وأكثر تغيرا من مسرحية ألكترا بأكملها ولكن فى ألكترا أو فى آنتجون فاننا نؤخذ بشيء آخر ، بشيء أكثر تأثيرا نؤخذ بالبطولة نفسها وبالاخلاص ذاته وعلى الرغم من الجهد والصعوبات ، فانهما فى ذاتهما هما اللذان يجذباننا الى الاغريق ؛ ان استقرار الانسان الأول وبقائه انما يوجد هناك فالعواطف العنيفة مطلوبة لتدفعه للعمل ولكن عندما

---

(١) Clytemnestra.
(٢) Orestes.
(٣) Proust.

يحركه الموت ، أو الخديعة ، أو مصيبة بدائية فان آنتيجون (١) وآجاكس (٢) وألكترا يتصرفون بنفس الطريقة التى نتصرف بها لو أننا صادفنا نفس هذه المثيرات نفس الطريقة التى يسلكها كل انسان ولذلك فاننا نفهمهم بسهولة ومباشرة أكثر مما نفهم شخصيات « **حكايات كانتربرى** » هؤلاء – أى الشخصيات الاغريقية – هم الأصل وأما شخصيات تشوسر فهى صور متنوعة من الآدميين

والحقيقة – طبعا – ان هذه الصور من الانسان الأصل رجلا كان أم امرأة هؤلاء الملوك الأبطال وتلكم الفتيات المخلصات ، وأولاء الملكات الحزينات وهم أشبه بالعيدان تنبثق من الأرض على مر العصور ، يجمعون أرديتهم بنفس الحركات (بالعادة لا بالدفع الذاتى) انما يبعثون على الملل ويثبطون الهمم وان مسرحيات اديسون(٣) وفولتير(٤) والكثير من غيرهما لخير دليل على ذلك ولكننا (حتى فى مسرحيات سوفوكليس الذى اشتهر بأنه يكبح جماح نفسه ويسيطر عليها كما عرفنا من الدارسين حيث شخصياته على حزم وقسوة ولا يحيدون) اذا التقينا بهؤلاء الناس جميعا عند اليونان فاننا نجد أن نبذة من حديثهم قادرة على تلوين محيطات ومحيطات فى المسرحيات المحترمة اننا نلتقى بهم فى اليونان قبل أن تتجمد العواطف فى أنماط واحدة ولسوف نستمع الى دعاء الكروان فى لغته الأصلية وليس كما كنا نستمع الى صداه يتردد فى الأدب الانجليزى. ولأول مرة سوف نستمع الى أورفيوس(٥) بمزماره الذى يجعل الوحوش تتبعه كما يتبعه الآدميون أصواتهم تدوى واضحة حادة وسنرى تلك الأجساد النحاسية وقد كساها الشعر وهى تمثل فى ضوء النهار بين أشجار الزيتون انها ليست مرصوصة بوقار على قواعد من الجرانيت فى الطرقات الباردة فى المتحف البريطانى عندئذ وفجأة بين كل هذه الحدة وتحت ضغوط العواطف تبكى ألكترا حتى تبلل وشاحها وتمنعنا من التفكير فيها أكثر من ذلك ثم تناجى الكروان ذاته « ذلك الطائر

---

(١) Antigone.
(٢) Ajox.
(٣) Addison.
(٤) Voltaire.
(٥) Orpheous

مزقه الحزن يا رسول زيوس (١)   آه يا ملكة الحزن نيوبى (٢)   أنت فى نظرى مقدسة • أنت ؛ التى تبكين دائما فى لحدك الذى قد من صخر »

وبينما هى تهدىء من شجونها وشكواها تحيرنا ثانية بذلك السؤال الذى لا جواب له عن الشعر والطبيعة ، ولماذا ، وهى تتحدث الينا تؤكد كلماتها الخلود والأبدية ؟• أن هذه الكلمات يونانية ولهذا فاننا لسنا بقادرين على ادراك رنينها   انها تتجاهل المنابع الواضحة للانفعال   انها لا تعتمد فى سحرها على المبالغة فى التعبير   وهى بغير شك لا تلقى ضوءا على شخصية المتحدث أو شخصية الكاتب ولكنها تظل حية لأنها كلمات تعبر عن شىء ما   شىء لابد له من الخلود

ومع ذلك ففى المسرحية كيف يكون خطيرا هذا الشعر   ان الانتقال من التخصيص الى التعميم أمر تفرضه الضرورة ، ويقف الممثلون بأجسامهم يلقون الشعر (يميل النظارة الى سماع الشعر أكثر من اهتمامهم بأداء الممثلين للحركات التعبيرية) ! ولهذا السبب كانت مسرحيات شيكسبير الأخيرة حيث تزخر بالشعر أكثر مما فيها من حركة   أكثر جمالا عند قراءتها منها عند رؤيتها تمثل، ونكون أكثر فهما بالاستمتاع اليها متغاضين عن الممثل وحركاته التى تراها العين   وقيود التمثيلية غير المحتملة يمكن التخفيف من غلوائها لو وجدت الوسيلة التى بها يمكن تحرير التعميم الشعرى من ناحية التعليق لا من ناحية التمثيل بدون التأثير على تسلسل التمثيلية   وهذا هو دور المجموعة (٣)   أن المسنين الشيوخ والعجائز هم الذين لا يقومون بأى دور فى التمثيلية   والأصوات التى لا يمكن التمييز بين بعضها البعض والتى نغنى كما تغرد الطيور عندما تسكن الريح   تلك المجموعة هى التى فى مقدورها التعليق أو التلخيص أو التعبير عما يريد الشاعر الافصاح عنه أو عن وجهة نظر أخرى يراها المؤلف على سبيل النقد   ان الحاجة الى هذه الأصوات — فى الأدب الخيالى حيث تفصح الشخصيات عن نفسها وليس للمؤلف دور فيها   أى لا تظهر شخصيته — حاجة ملحة تفرض نفسها   وبالرغم من أن شيكسبير قد استغنى عن المجموعة (الا اذا اعتبرنا ان شخصيات المغفلين والمجانين تؤدى هذا الدور) فان الروائيين دائما يخلقون بديلا لها   ومن أمثلة ذلك

---

(١) Zeus.

(٢) Niobe.

(٣) Chorus.

ثكرى (١) يتحدث بلسانه بدلا من المجموعة ، وفيلدنج (٢) يخرج من بين الصفحات وقبل أن يرتفع الستار ليخاطب الناس وعلى ذلك ولكى نستوعب معنى التمثيلية فان المجموعة تكون فى غاية الأهميه وعلى المرء أن يكون قادرا على أن ينفذ بسهولة الى هذه المجموعة عن طريق أقوالها ، تلك الأقوال التى تصدر على طبيعتها بغير تنميق وتبدو وكأنها تصريحات خارجة عن الموضوع وأحيانا تكون عادية واضحة وذلك لكى يقرر المرء ما اذا كانت تلك الأقوال تتصل بالمسرحية أو لا تتصل ويضعها موضعها من المسرحية ككل

« علينا أن نكون قادرين على النفاذ بسهولة ولكن هذا هو بالضبط ما لا قبل لنا به ذلك انه غالبا ما تطرح المجموعة ـ بكل غموضها ـ جانبا وانتظامها ينهار ولكن يمكننا أن نتخيل ان سوفوكليس استعمل تلك المجموعة لا ليعبر عن شيء خارج عن المسرحية ، وانما ليتغنى بمديح فضيلة من الفضائل أو بجمال بعض أماكن أشار اليها فى المسرحية٠ انه يختار ما يريد التعبير عنه ويتغنى بكلونا (٣) البيضاء وكروانها أو بالحب الذى لا تقهره المبارزة وتنمو مجموعاته نموا طبيعيا فى مواقف المسرحيات وهى محبوبة شامخة هادئة ولا تغير وجهة النظر وانما تغير من الجو الذى يخيم على المسرحية وفى مسرحيات ايوروبيديس(٤) نجد ان المواقف ليست فى ذاتها شاملة ، بل هى تخلق جوا من الريبة ومجالا للافتراض ، ومبعثا على التساؤل ولكننا اذا نظرنا الى المجموعة لكى نزيل هذا الغموض والافتراض والتساؤل فاننا نحار أكثر مما نستفيد ـ فمرة فى مسرحية بكاى (٥) نرى أنفسنا فى عالم الشكوك واضطراب النفس ؛ حيث يلوى العقل الحقائق ويغيرها ويجعل مظاهر الحياة العادية تبدو كأنها جديدة مثيرة للتساؤل من يكون باكوس (٦) ، ومن تكون الآلهة وما واجب الانسان نحوها وما حقوق عقله المتقد ذكاء ؟ والمجموعة لا تجيب على هذه الأسئلة أو هى تجيب ساخرة ، أو تتحدث بغموض كما لو كان القالب الروائى السليم قد أغرى ايروبيديس أن يخل بها لكى يريح عقله من ثقلها ويبدو كأنه يقول لنا « ان الوقت

(١) Thackeray.
(٢) Fielding.
(٣) White Colonus.
(٤) Euripides.
(٥) Bacchae.
(٦) Bacchus.

قصير ولديه الكثير من القول ان لم تسمحوا لى بأن أجمع تصريحين معا فى حين انه من الواضح ألا علاقة بينهما وأوكل لكم أن تضعوهما معاً ،فان لم تسمحوا لى بذلك يجب أن تكونوا قانعين بمجرد الاطار الخارجى للمسرحية التى أقدمها لكم » هذا هو الحوار وعلى ذلك يعانى ايروبيديس أقل من سوفوكليس وأقل من اسكليس (١) ويمكن قراءة مسرحياته فى حجرة خاصة أحسن من أن تمثل على سفح الجبل تحت أشعة الشمس ويمكن تمثيل مسرحياته فى العقل وفى استطاعته أن يعلق على أسئلة اللحظة ويمكن أن تتنقل محبته وشعبيته من عصر الى عصر أكثر من الآخرين

فبالنسبة لسوفوكليس، ركزت المسرحيات على الشخصيات وبالنسبة لايروبيديس نستعيض عن المسرحية بومضات من الشعر وأسئلة معلقة دائما وبلا جواب أما اسكيلس فانه يصنع من التمثيليات القصار (٢) مسرحيات عظيمة فهو يطيل كل جملة الى أقصى ما تحتمل ويجعلها سابحة فى بحر من الاستعارات ، ويسخرها فتنطلق على المسرح وفيها روعة ولكن كأنها لا ترى

ولكى نفهم سوفوكليس ليس بالضرورى أن نفهم اليونانية بقدر ما يجب أن نفهم الشعر ومن الضرورى أن نحلق مع الشعر بغير معاونة من الألفاظ وحرفيتها وقد تطلب منا شكسبير ذلك أيضا ذلك ان الكلمات فى تعبيرها عن معنى كبير كهذا لابد أن تشع وتنفجر بمعناها كعقد نظمت حباته فيبدو جميلا فى مجموعاته فى حين ان الكلمة بمفردها من الضعف بحيث تعجز عن التعبير • فانتظام الكلمات فى لمحة سريعة من لمحات العقل يجعلنا ندرك على الفور وبالاحساس الفطرى ما تحمله من معان • ولا يمكن أن تعبر عن هذا المعنى من جديد كلمات أخرى وهناك غموض هو علامة الشعر الرفيع لا يمكن أن ندرك بالضبط ماذا يعنيه هذا الغموض ولنأخذ هذا البيت من **اجا ممنون** على سبيل المثال

« انه يتجه الى افروديتى بنظرات غيظ حاقدة »

ان المعنى المقصود بعيد كل البعد عما تحمله ألفاظ اللغة انه المعنى الذى نحس به – فى لحظات الانفعال العجيب – فى عقولنا بغير

---

(١) Aeschylus.

(٢) قصة أجاممنون Agamemnon. تتكون من ١٦٦٣ سطرا – بينما مسرحية لير Lear. تتكون من حوالى ٢٦٠٠

كلمات : انه المعنى الذى يقودنا عند دوستويفسكى(١) وهو معقد فى نثره ويزداد تعقيدا بترجمته الى فيض من العواطف الغريبة ويشير اليها ولكنه غير قادر على أن يحددها انه المعنى الذى نجح شيكسبير فى ابقائه وقد اكتنفه الغموض

وعلى ذلك فلن يقدم اسكيلس (٢) — كما فعل سوفوكليس — نفس الألفاظ التى يستعملها الناس فى لغه تخاطبهم وانما يعيد ترتيبها فيجعلها — بطريقة غامضة — ذات طاقة عامة وقوة رمزية لا كما فعل أوربيدس من بعده بأن يجمع بين المتناقضات فيزيد من دائرته الصغيرة ويصبح مثل الذى يزيد فى مساحة حجرة صغيرة عن طريق تثبيت المرايا فى الزوايا المتقابلة وبشىء من الجرأة وباستعمال فيض من الاستعارات يزودنا لا بذات الشىء ، وانما بالارتداد والانعكاس اللذين يعتملان فى رأسه فهو اذا يجسم الشىء ويزودنا بالشىء الذى صنع ؛ يزودنا بشىء هو قريب جدا من الأصل حتى كأنه يعرضه بذاته ، وفى الوقت نفسه هو بعيد عنه بالقدر الذى يوصله الى ما يستحق من رفعة ، ويعلى من قدره ويجعله عظيما

لم يكن لأى من كتاب المسرح هؤلاء الحرية التى يتمتع بها الروائيون كما يتمتع بها والى حد ما جميع مؤلفى الكتب المطبوعة ، وهى حرية صياغة معانيهم بلمسات خفيفة لا نهاية لها فهم يصوغون بعناية المعانى التى تتطلب القراءة الهادئة وأحيانا يقتضى الأمر اعادة القراءة مرتين أو ثلاث مرات حتى يدرك القارىء ما غمض منها فكل عبارة تنفجر معانيها كلما طرقت الأسماع وقد تصل الكلمات بطيئة رشيقة ، وقد يكون مضمونها مبهما ولم يكن فى مقدور أرفع الاستعارات وأغناها أن يعوض أجا ممنون حتى ولو حالت الصور وتلميحات أبرع الكتاب وأعظم الزخارف بيننا وبين تلك الصرخة المجردة

« وا أسفاه يا للحسرة ، شىء عظيم ، شىء عظيم »

يجب أن يكون هؤلاء الكتاب مسرحيين مهما كان الثمن

ولكن حل الشتاء بتلك القرى وخيم عليها الظلام والتف سفح الجبل ببرد قارص ولا بد انه كانت هناك أماكن مقفلة حيث يأوى اليها الرجال

---

(١) Dostoevsky.

(٢) Aeschylus.

سواء فى بأس الشتاء أو فى قائظ الحر يجلسون فيهـا ويشربون ويستلقون فى استرخاء ، ويتجاذبون أطراف الحديث ان أفلاطون بالطبع هو الذى كشف عن الحياة داخل البيوت فقد وصف كيف التأمت جماعة من الأصدقاء وتناولوا طعاما ليس بالفاخر واحتسوا قليلا من النبيذ ، ثم ألقى شاب وسيم سؤالا أو طرح رأيا ثم تناوله سقراط وقلبه وتمعن فيه ثم اذا به يفصله بمهارة الى عناصره المكونة له ويدل على ما فيه من زيف مما جعل المجموعة كلها تبحث معه عن الحقيقة انها عملية مجهدة فهو يعانى من تركيزه على المعنى الدقيق للكلمات ويحكم على ما يتضمنه كل تصريح ؛ ثم يتتبع عن عمد ــ وان كان محرجا ــ الفكرة وان كانت سافلة متغيرة مادامت تقوى وتعظم بالحقيقة هل تستوى المتعة والطيبة ؟ وهل يمكن اكتساب الفضيلة ؟ وهل الفضيلة معرفة ؟ ان العقل المجهـد أو الضعيف قد يذهب بسهولة بينما التساؤل المخلص المحايد باق ولكن ما من أحـد بمسـتطيع ــ مهما كان ضعيف العقـل ومهما يكن غير مستفيد كثيرا من أفلاطون ــ الا أن يحب المعرفة أكثر وأكثر وبينما تحتدم المناقشة وترتقى من درجة الى درجة فان بوتاجوراس (١) يسلم وسقراط يتقدم ولا أهمية كبيرة لما تنتهى اليه المناقشة وانما الأهمية هى بالأسلوب الذى نصل به الى النهاية ــ ان كل ما يمكن أن نشعر به هو الأمانة الفطرية والشجاعة وحب الحقيقة التى تجذب سقراط ونحن معه فى يقظته حتى تبلغ ذروتها الى حيث ننعم بأعظم الهناء الذى بلغناه اذا قدر لنا أن نبقى فيها لحظات

ومع ذلك فان تعبيرا كهذا ليس مناسبا لوصف حالة عقل طالب تكشفت له الحقيقة بعد جدال مضن فالحقيقة متفرعة وهى تنكشف لنا فى صور مختلفة ولا يمكن ادراكها بالفطنة وحدها وقد قال أفلاطون انه فى ذات ليلة من ليالى الشـتاء بينما الموائد قد امتـدت فى منزل أجاثون (٢) كانت هناك فتاة تعزف على المزمار وبعد أن اغتسل سقراط ووضع نعليه اذا به يتوقف فى البهو ؛ ويرفض أن يتحرك عندما أرسلوا فى طلبه ثم بدأ سقراط يتحـرك وهـو يداعب السيبياديس (٣) ويتناول الأخير ربطة الرأس ويلفها حول «رأس ذلك الشخص العجيب» . ثم يمجد سقراط ذلك الذى لا يهتم بالجمال المجرد وانما يحتقر كل

(١) Potagoras.
(٢) Agathon.
(٣) Alcibiades.

الصفات الظاهرية بدرجة لا يمكن تصورها سواء أكانت تلك الصفات جمالا أم ثراء أم أبهـة أم أى شىء آخر من شأنه أن يضـاعف من هناء صاحب تلك الصفات بل يعتبر سقراط كل تلك الأمور ـ كما يعتبرنا نحن الذين نمجدها ـ لا شىء ان سقراط يعيش بين الناس متخذا من الامور التىيعجبون بها موضوعات لسخريته • ولست أدرىهل رأى أحدكم ذات مرة الصور المقدسة التى فى نفسه أو قلبه عندما يكشف عنها ويميط عنها اللثام حين يكون جادا لقد رأيتها أنا ، وانها لصور غاية فى الجمال، انها ذهبية قدسية عجيبة حتى أن أى أمر يصدره سقراط تجب طاعته كما نطيع صوت الرب » كل هذا فاض من خلال حوار أفلاطون وضحكاته وحركاته ان الناس تذهب وتجىء ، والزمن يتغير والأعصـاب يفلت زمامها والنكات تنطلق مجلجلة ، ثم يبزغ الفجر ، وتبدو الحقيقة فى صورها المتنوعة وهى فى كل صورها أولى بأن نتبعها بكل طاقاتنا وهل علينا أن نقضى المسرات بعيدا ونتولى عن الرقة أو نستهين بالصداقة لا لشىء الا لأننا نعشق الحقيقة ؟ وهل يمكن التعجيل بالعثور على الحقيقة اذا أوصدنا آذاننا عن سماع الموسيقى أو لأننا أقلعنا عن احتساء النبيذ أو لأننا ننام بدلا من المناقشة خلال ليالى الشتاء الطوال ؟ اننا لاندعو الى تقيد المعلم فى حيز ضيق ومنعه من الانطلاق ، وانما نسعى نحو الطبيعـة المشرقة ، ونقبل على الانسان الذى يمارس فن الحياة على أحسن ما تكون الحياة حتى لا يتوقف شىء عن النمو وحتى تتفاوت الأشياء فيصبح بعضها أكثر قيمة من بعضها الآخر بصفة دائمة

ومن خلال هذا الحوار علينا أن نبحث بكل ما أوتينا من قوة عن الحقيقة • فلأفلاطون ـ بغير شك ـ عبقرية مسرحية وهو ينقل الينا بتلك العبقرية وبفنه الأصيل فى عبارة أو عبارتين ماهية التكوين وطبيعة الجو ثم تصبح العبارات بعد ذلك ـ وفى مهارة فائقة ـ حوارا نحويا دون أن تفقد حيويتها وعظمتها بل تنكمش لتحمل عبارة ثم اذا هى تطول وترتقى وهى تحلق فى أعلى طبقات الجو التى لا نصل اليها عادة الا بأبعد مقاييس الشعر انه هو ذلك الفن الذى يلعب بنا بطرق عديدة ونصل به الى متع العقل التى لا يمكن الوصول اليها الا عندما نستجمع كل الامكانيات لتشارك بكل طاقاتها جميعا

ولكن علينا أن نأخذ فى اعتبارنا ان سقراط لم يكن ليهتم « بمجرد الجمال » ان الذى كان يعنيه بالجمال المجرد انما هو الجمال الحسى والناس الذين يعتمدون فى حكمهم على السماع ـ كما كان يفعل أهـل

أثينا أى يعتمدون على حكم الأذن وهم جلوس فى الخلاء يشاهدون مسرحية أو يستمعون الى جدال فى ميدان السوق ــ هؤلاء عندهم من المقدرة أقل مما لدينا على اقتطاع جمل يمكن تذوقها بعيدا عن النص وعلى ذلك فليس هناك جمال ــ بالنسبة لهم فى كتابات هاردى (١) أو ميريديث (٢) أو فى مأثورات جورج اليـــوت (٣) فهم يرون انه على الكاتب أن يفكر فى الموضوع ككل أكثر مما يفكر فى دقائقه وتفصيلاته وطبيعى ان الذين يعيشون فى الخلاء لا تستهويهم الشفاه أو العيون وانما الذى يستهويهم انما هو هيكل الجسم وتناسب أعضائه ولذلك عندما نقتطف عبـارات من أعمال الاغريق فانما نحطم بذلك أعمالهم ونفسدها أكثر مما يحدث بالنسبة لكتاب الانجليزية ان فى أدب الاغريق عرى من الجمال التفصيلى واقتضـاب يؤثران فى ذوق تعـود على التعقيـد وعلى الكتب المطبـوعة والمصقولة وعلينا أن نوسع من أبعاد زوايا تفكيرنا حتى يمكننا أن ندرك الموضوع الخالى من جمال التفاصيل أو الذى يعتمد على قوة الفصاحة فى الاقناع ذوق تعود على النظر المباشر والبعيد أكثر من النظرة الدقيقة المنحرفة ، وكان من الأفضل لهم أن يخوضوا فى العواطف المتلاطمة التى تعمى وتحير عصرا كعصرنا وقدر على عواطفنا ــ خلال كارثة الحـرب الأوروبية الرهيبـة ــ أن تتحطم وأن ندعها جانبا قبـل أن نجـدها فى الاحساس بها فى شعر أو قصة والشاعران الوحيدان اللذان تعرضـا للعواطف تعرضا غير مبـــاشر بل بأسلوب تهكمى هما ويلفريد أوين(٤) وسيجفريد ســـاسون (٥) ومع ذلك لم يكن فى استطاعتهما أن يكون شعرهما مباشرا دون أن يكون فظا ولم يكن فى مقدورهما أن يتكلما ببساطة عن الحب دون أن يكونا عاطفيين فى حين ان الاغريق يمكنهم أن يقولوا ذلك « ومع كونهم أمواتا فانهم لم يموتوا » بل يمكنهم أن يقولوا « ان الموت بشهامة جزء هام من العظمة ، وبالنسبة لنا دون سائر الرجال ــ كان القدر سخيا فى ذلك ، ولنتعجل فى اقامة تاج الحرية فى اليونان فاننا نرقد وقد تملكنا الاعتزاز الذى لا يبلى » نعم يستطيعون أن يسيروا قدما وعيونهم مفتوحة وعندما يتقدمون بخطى لا تعرف الوجل تتوقف الانفعالات وليسمحوا للناس أن يتأملوهم ويعجبوا بهم

---

(١) Hardy.

(٢) Meredith.

(٣) George Eliot.

(٤) Wilfrid Awen.

(٥) Siegfried Sassoon.

ومع ذلك فان السؤال لا زال يلح علينا هل نقرأ اليونانية كما كتبت عندما نقرر اننا نقرأها ؟ ألا نكون مخطئين عندما نقرأ تلك الكلمات القلائل التى نحتت على شاهد قبر أو نقرأ فقرة من أقوال المجموعة (١) أو نهاية أو بداية لحوار لأفلاطون أو نبذة لسافو (٢) أو عندما نقدح عقولنا لتفسير بعض الاستعارات العـــديدة فى (أجا ممنون) بدلا من تجريد فرع من أزهاره فى الحال كما نفعل بقراءتنا (لير) ألســنا مخطئين فى قراءاتنا هذه ؟ ألا نفقد بذلك حدة بصرنا فى ظلمات التداعى؟ ولا نقرأ باليونانية الشــعر الذى لديهم بل ما نحن فى حاجة اليه ؟ ألم تتجمع اليونان بأسرها خلف كل سطر فى آدابها ؟ انهم يتيحون لنــا رؤية الأرض غير منهوبة ، والبحر غير مدنس والنضوج للجنس البشرى المثابر غير مقهور ان كل كلمة تعززها قوة تتدفق من شجر الزيتــون ومن المعبد ومن أجسام الشباب ان الكروان يذكره سقراط بالاســم فقط فاذا هو يغنى والأحراش توصف بأنهــا لم تطأها قدم فاذا نحن نتصور الأغصان المتشابكة وزهرات البنفسج القانية ونجد أنفسنا وقد جذبنا الخيال الى الماضى لنقحم أنفسنا ربما فى مجرد صورة عن الحقيقة وليست الحقيقة ذاتها انها يوم من أيام الصيف نتصوره ونحن فى قلب شتاء بلاد الشمال ان اللغة هى أهم مصادر العظمة هذه وربما تكون اللغة أيضا أهم سبب فى سوء الفهم اننا لسنا بقادرين على أن ندرك كل مرامى الجملة المكتوبة باليونانية كما ندرك الجملة المكتوبة بالانجليزية. فنحن لا نسمعها لأنهــا تارة تفقد رنينها عنــد الترجمة وتارة تكون متوافقة فيتوالى الرنين من بيت الى بيت عبر صفحة من الصفحات ونحن لا نقدر أن نلتقط ـ بغير خطأ ـ كل هذه الاشارات الدقيقة واحدة بواحدة لا نقدر أن نلتقط تلك الاشارات التى تصــنع الجملة فتجعلها لمحة وتبعث فيها الحياة ومع ذلك انها اللغة التى تجعلنا نرسف فى العبودية ، انها الرغبة فى ذلك هى التى تغرينا دائما بالعودة الى اليونانية. فهناك أولا أحكام التعبير فقد اضـــطر شيللى (٣) الى استعمال واحدة وعشرين كلمة انجليزية لترجمة جملة يونانيــة مكونة من ثلاث عشرة كلمة

« على أى حال فان الحب يبعث فى نفس الشاعر الوحى والالهام »

---

(١) Chorus.

(٢) Soppho.

(٣) Shelley.

فقد ترجمها شيللى بقوله (وذلك لأن كل واحد - حتى ولو كان من قبل غير منتظم على الاطلاق - يصبح شاعرا بمجرد أن يلمسه الحب)

ان كل جزء من الدهن قد كشط فأصبح اللحم صرفا صافيا وبذلك وعلى الرغم من قلة ألفاظ اللغة وخلوها من التنميق فانه لا توجد لغه غير اليونانية تتحرك بهذه السرعة وتتراقص وتهز المشاعر على هذا النحو انها فريدة فى تدفق الحياة فيها ومع ذلك فهى محكومة فى حدودها ثم تأتى الكلمات ذاتها التى تكون ، فى كثير من الحالات ، قد استعملناها للتعبير عن الانفعالات مثل « البحر » « الموت » « براعم الزهر » « النجم » ، « الفجر » لنأخذ أول ما يصل الى أيدينا صافيا صارما مفرطا ولكى نتكلم بوضوح دون أن يكون ملوثا للاطار الخارجى أو حاجبا للأعماق فان اليونانية هى وحدها المعبرة وعلى ذلك فقراءة اليونانية المترجمة عديم الجدوى ان المترجمين باستطاعتهم أن يمنحونا ترجمات مبهمة ان لغتهم مليئة بالأصداء والتداعى ولقد قال الأستاذ ماكيل(١) «ان الترجمة شاحبة» وكأن عصر بيرن جونز(٢) وموريس(٣) قد عاد فجأة وحتى المترجم الماهر ليس بمستطيع التعبير عن رنين الألفاظ ووقعها على الآذان ولا يمكن لأفصح الطلاب أن يحس تذوق اللغة نفسها فمثلا قول اننا أيها المنتحب على القبر الصخرى » ليس معبرا للمعنى مثل وهكذا على القبر الصخرى تذرف الدموع دائما

وأكثر من ذلك ونحن بصدد الغموض والصعوبات التى تعترض القارىء يبرز أمامنا هذا السؤال متى يجب أن نضحك ونحن نقرأ اليونانية فهناك قطعة من الأوديسا (٤) حيث يغمرنا الضحك ويستولى علينا ونحن نقرأ ولكن لو كان هومير (٥) ناظرا الينا كنا نفكر كثيرا قبل أن نبدأ فى الضحك فالضحك فى الوقت الملائم أمر هام وهو ممكن اذا كنا نستمع الى لغتنا الانجليزية ولكن اريستوفانس(٦) يشذ على هذه القاعدة وذلك لأن المرح أمر متعلق ومرتبط ارتباطا وثيقا باحساس

---

(١) Mackail.
(٢) Burne-Jones.
(٣) Morris.
(٤) Odyssey.
(٥) Homer.
(٦) Aristophanes.

الجسم فعندما نضحك من نكات ويتشرلى (١) فانما نضحك من ذلك الريفى الخام الذى هو فى الواقع يمثل أسلافنا فى القرية الخضراء فى حين يتوقف الفرنسيون والايطاليون والأمريكيون ـ الذين هم من سلالة تختلف عنا ـ عن الضحك تماما كما نتوقف ونحن نقرأ هومر وذلك لكى نتأكد أننا نضحك فى الوقت المناسب وهذه الوقفة خطيرة ولهذا كانت الملحة أولى الملكات التى تفقد طلاوتها عند ترجمتها الى لغة أجنبية وتقتضى من الغريب الوقوف حتى يدرك معانيها فعندما نترجم الأدب اليونانى الى الأدب الانجليزى فان الوقفة تطول وتبدو كأنها دهر طويل وخاصة عندما تنفجر ضحكات من يعرف اليونانية أو من لا يحتاج الى ترجمتها

تلك هى الصعوبات وأسباب الفهم الخاطىء للتشويه وللخيال وللعاطفة فتبدو ذليلة أو متعجرفة ومع ذلك تظل بعض الحقائق ثابتة حتى لدى الجاهلين ، منها أن اليونانية أدب غير شخصى ، وأنها لغة الروائع. وليس هناك مدارس تتبعها ولا مبشر بها ولا وارث لها ولا نستطيع أن نتتبع التطور التدريجى الذى يحدث لدى الكثيرين بطريقة غير سليمة ولكنه بشكل أو بآخر يصل الى درجة الكمال فى واحد بعينه . ومرة أخرى ان الأدب اليونانى وهو ذلك الأدب الذى فيه نشاط يخترق العصور سواء كان عصر اسكيلس أو عصر راسين (٢) أو عصر شيكسبير

ان جيلا واحدا على الأقل فى ذلك الوقت الزاخر ينفجر عن كتاب على هذا القدر من النبوغ ، كتاب يصلون بنا الى هذه المرحلة من اللاشعور التى تعنى ان الشعور قد أثير الى أقصى درجة ؛ ويتعدون حدود الانتصارات الصغيرة والخبرة التجريبية العادية ؛ هكذا نرى سافو بمجموعات تشبيهاتها وأفلاطون بتحليقاته الشاعرية الجريئة المتناهية فى شاعريتها وسط النثر ونرى فى كتابات تيوسيديدس (٣) الاختصار والأحكام أما سوفوكليس فيسبح بأسلوبه كما تسبح مجموعة كبيرة من السمك فى رفق وهدوء ، تبدو وكأنها لا حراك بها وفجأة تهتز زعانفها ثم تنطلق ؛ أما فى الأوديسا فليس لنا الا ما يبقى دائما وهو النجاح للقصة فالأوديسا أكثر القصص وضوحا وهى فى نفس الوقت أكثرها خيالا فى تصوير مقدرات الناس نساء ورجالا

---

(١) Wycherlev.

(٢) Racine.

(٣) Thucydides.

ان الأوديسا مجرد قصة مغامرات فهى تروى قصــة طائفة من البحارة ولهذا قد نقرأها بسرعة وبعقلية الأطفال لكى نعلم ماذا سيأتى بعد ذلك ٠ ومع ذلك فليس هناك شىء غير ناضج ؛ فالناس ناضجون ولهم صناعتهم وهم ذوو مهارة وعاطفة كما أن العالم نفسه ليس بالصغير ما دام البحر الذى يفصل جزيرة عن أخرى يمكن أن نعبره بزوارق صنعت باليد وما دام عرض ذلك البحر يقاس بمسافة طيران طائر النورس حقيقة ان الجزيرة ليست كثيفة السكان ، والناس ـ على الرغم من أن كل شىء يصنع يدويا ـ ليسوا مشغولين بالعمل بل لديهم من الوقت مايطور مجتمعا عظيما جدا وضخما ومن ورائه تقــاليد قديمة من الأخلاق تلك التقاليد التى تجعل كل العلاقات منتظمة وطبيعية ومليئة بالتحفظ ـ ونرى ونحن نقرأ ان بنيلوب (١) تعبر الحجرة بينما تذهب تليماكوس (٢) الى النوم أما ناوسيكا (٣) فتغسل ثيابها وتبدو تصرفاتهن مليئة بالجمال لانهن لا يعرفن أنهن جميلات ، لقد ولدت معهن ميزاتهن ، وهن لا يشعرن بأنفسهن أكثر مما يشعر بها الأطفال وهن يعرفن فى جزرهن الصغيرة التى مرت عليها آلاف السنين كل ما يمكن معرفته ان صوت البحر يملأ آذانهن ؛ وكروم العنب والمراعى وجداول الماء من حولهن انهن يشعرن بقدر قاس أكثر مما نشعر به نحن وهناك حزن يخيم على الحياة توارثه أهل الجزيرة دون محاولة منهم للتخفيف منه انهم يدركون كل الادراك وجودهم فى الظل بعيدا عن العالم ومع ذلك فهم متيقظون لأية رجفة أو ومضة فى الوجود ، هناك فى هذا الظل يعيشون وهم باقون ، واننا لنعود الى الاغريق عنـدما تفيض نفوســنا بالملل من الغموض ومن الخلط ومن عزاءات المسيحية ومن عصرنا الذى نعيش فيه

---

(١) Penelope.

(٢) Telemachus.

(٣) Nawsicaa.

حجرة عاديات فى عصر اليزابيث

ان هذه المجلدات العظيمة(١) يغلب الظن أنها لم تقرأ ـ ولعل أحد أســـباب جاذبية هيكلوت أنه فى الواقع ليس كتـــابا بالمعنى الصحيح بقدر ما هو حزمة ضخمة من الامتعة مضمومة الى بعضها البعض وكأنها ركن تجارى أو حجرة عاديات أو مقتنيات امتلأت بالزكائب القديمة ، وبأدوات بحارة عفى عليها الزمن وبالات ضخمة من الصوف وحقائب صغيرة مليئة بالياقوت والزمرد ان المرء يحـــل هذه الربطة هنا ثم يأخذ فى تصنيف محتوياتها هنا وهنـــاك وينفض التراب عن بعض خرائط العالم الفسيح ثم يجلس فى الضوء الخافت يستنشق رائحة الحرائر والجلود الغريبة وعبير العنبر بينما فى الخارج تتـــلاطم أمواج كالجبال فى بحر لم تحدد له معالمه فى عصر اليزابيث

ذلك لأن هذا الخليط من البذور والحرير وقرون الثيران المتوحشة وأنياب الفيلة والصوف والأحجار العادية والعمائم وقضبان الذهب ، هذه الاشياء المتنـــافرة ـ وبعضها لا قيمة له ولا يساوى شيئا على الاطلاق ـ جاءت ثمرة أسفار وتجارات لا تحصى ولا تعد واكتشافات لأراض مجهولة فى عهد الملكة اليزابيث وكان قوام الحملات من الدعامة البشرية فتية مهرة من غرب الدولة وكان بعض تمويلها على نفقة الملكة العظيمة نفسها. ولم تكن السفن ـ كما قال فرود (٢) ـ أكبر من اليخت الحديث وكان الأسطول يتجمع فى النهر عند جرينتش(٣) على مقربة من القصر «وكان ايوان العرش يظهر من نوافذ السراى والسفن راسية تطلق مدافعها.. والبحارة يصيحون ويصل صياحهم الى السماء فيرتد وكأن السماء تردد الرجع بنفس الصخب » وبينـــما تتراجع السفن مع الجزر يخرج بحار

---

(١) ظهر هذا المقال بمناسبة ظهور مجموعة هاكليوت Hakluyt عن رحلاته الاولى وسفرياته واستكشافاته عن الوطن الانجليزى ، وظهرت هذه المجموعة فى خمس مجلدات عام ١٨١٠

(٢) Froude

(٣) Greenwich

وراء آخر من أبواب العنابر ويتسلق القلوع ويقف على السطح الرئيسى يلوح لصديق بآخر وداع ان أغلب البحارة لا يعودون من رحلتهم أبدا وذلك لأن انجلترا والساحل الفرنسى كانا وراء الافق وتقلع السفن نحو بلاد غير مطروقة حيث للريح زمجرته وللبحر سباعه وثعابينه الضخمة والتبخر المتصاعد بسبب شواظ الجو وللدوامات دويها ولكن مع كل ذلك فان الله قريب والسحب تخفى وراءها السماء فى أجزاء متفرقة وأطراف للشيطان تكاد تكون مرئية ومن المألوف أن يعقد البحارةالانجليز المقارنة بين الههم واله الأتراك أى المسلمين فهم يقولون أن اله المسلمين لا تصدر عنه كلمة كئيبة ، ولكنه لا يعين عبده الا بحساب حتى ولو كان فى حاجة اليه ٠٠ ولكن مهما يكن الأمر فان الهنا قد أثبت انه اله محق٠٠» ان الله قريب من البحر كما هو قريب من الأرض ٠ هذا ما قاله سيرهمفرى(١) جيلبرت وهو يخوض وسط العاصفة وفجأة خبا أحد الاضواء وذهب سيرهمفرى جيلبرت تحت الامواج ، وعندما اشرق الصباح بحثوا عن سفينته دون جدوى ٠ كما اقلع سيرهيو ويللوبى (٢) ليكتشف الممرالشمالى الغربى ولكنه لم يعد وأطاحت ريح مضادة بايرل كمبرلاند ورجاله بعيدا عن ساحل كورنوول لمدة اسبوعين لعقوا خلالهما فى ألم الطين والماء من سطح السفينة وأحيانا يطرق رجل رث الثياب منهوك القوى ، باب منزل فى الريف الانجليزى ويدعى أنه ذلك الابن الذى تركته القرية يقلع من سنوات مضت فى البحر « ويؤكد سيرويليام والده والسيدة والدته أنه ليس بابنهما حتى يجدا العلامة السرية وهى الزائدة الجلدية عند احدى الركبتين ويحمل معه حجرا أسود « معرقا بالذهب أو ناب فيل أو سبيكة من الفضة ويستحوذ على شباب القرية بحديثه وهو يقص عليهم من أنباء الذهب المنثور على الارض كما يغطى الحصى حقول انجلترا ان احدى الرحلات الاستكشافية قد تفشل ، ولكن ماذا لو كان الطريق الى أرض الخرافة ـ حيث الثراء بغير حساب ـ يقع على خطوات فقط من الساحل ؟ ماذا لو أن العالم المعروف لم يكن سوى السبيل الى منظر شامل رائع ؟ فبعد الرحلة الطويلة تلقى السفن مراسيها فى النهر العظيم ثم ينطلق الرجال مستكشفين فوق الأراضى الوعرة فتجفل قطعان الغزلان التى ترعى ، ويرون أطراف المتوحشين معلقة على الأشجار ويملئون جيوبهم

---

(١) Sir Humphrey Gilbert

(٢) Sir Hugh Willowghby.

بالحصى الذى قد يكون زمردا أو قد يكون تبرا من الذهب، وأحيانا يجوبون أرضا غريبة ويرون من بعـــد طابورا من المتوحشين يهبطون رويدا رويدا نحو الساحل يحملون فوق رءوسهم أحمـــالا ثقيلة لملك الاسبان تنوء من تحتها أكتافهم •

تلك هى القصص اللطيفة التى كانت تسرى فى الجـزء الغربى من الدولة وتندد «بكفاءة الشباب» وهم يتسكعون حول الميناء ليتخلوا عن شباك الصيد ويسعون وراء الذهب • ولقدكان المسافرون تجارا من صفاتهم الحرص ، ومواطنين فيهم صفات التجار الانجليز الذين طبعت قلوبهم على الخير والسعادة وقد أوضح الربابنة مدى أهمية ايجاد أسواق خارجية لتصريف الصـــوف الانجليزى واكتشاف الأعشاب ألتى منهـــا تصنع الأصباغ الزرقاء ؛ هذا بالاضافة الى البحث عن الوسائل إلتى تنتج الزيت منذ أن فشلت كل محاولات استخراجه من بذور الفجل كما ذكروا المواطنين ببؤس الفقراء من الانجليز ، ألذين دفعهم الفقر الى الجريمة التى جعلت منهم « طعاما يوميا للمشانق » كما أقروا كيف ان تربة انجلترا قد جادت بكنوزها بما استكشفه الرحالة فى المـــاضى وكيف أن دكتور ليناكر(١)قد استجلب بذور الورد مندمشق وكذا التيوليب وكيف استجلب المواشى والمزروعات والأعشاب والتى بدونها لظلت حيا تنابدائية » كيف أن كل ذلك استجلب لانجلترا من وراء البحار رويدا رويدا • وهكذا أقلع الشباب القادر الى الشمال بحثا عن الأسواق وعن السلع وسعيا وراء الشهرة الخالدة التى تعود عليهم

وترك هؤلاء الشباب وهم صـــحبة من الانجليز يحيط بهم الجليد وأكواخ المتوحشين من كل جانب لـــكى يعقدوا ما استطاعوا من الصفقات ولكى يجمعوا من المعلومات مايجمعون قبل أن تعود اليهم السفن مع الصيف لنقلهم الى أوطانهم وهناك تحملوا العزلة فى صحبتهم الصغيرة ، وكانوا يتحرقون شوقا كلما أرخى الليل سدوله لقـــد توغل أحدهم حاملا معه خريطة كان قد حصل عليها من الشركة التي يتبعها فى لندن، داخل الاراضى حتى وصل موسكو وهناك قابل الامبراطور «جالسا على عرشه والتاج على رأسه ، ويحمل فى يسراه انتاج مجموعة من صياغ الذهب » • ووصفت كل المراسم التى رآها وصفا دقيقا وأول ما استرعى نظر التاجر الانجليزى هو ذاك الاناء الرومانى الرائع الذى رفع ووضع لفترة تحت ضوء الشمس، وعرض للهواء فرأته ملايين من الأعين التى ارتدت كئيبة متكسرة وهناك على حافة العالم ازدهرت تلك القرون، وأمجاد موسكو وأمجاد قسطنطينية،

---

(١) Dr. Linaker.

ازدهرت دون أن يشعر بها أحد وقد خلعت على الرجل الانجليزى ملابس لهذه المناسبة هى عبارة عن ثلاث سترات من الشمواه الاحمر ، وكان يحمل رسالة من اليزابيث «كتابا كان مزاجه الكافور ، يتضوع بعبير العنبر ومداده من المسك الفياح » وفى بعض الأحيان بدأ المواطنون يتوقون الى الصيد الثمين من العالم الجديد الغريب وكذا الى قرون الثيران المتوحشة وأقراص العنبر ويتشوقون الى القصص اللطيفة عن توالد الحيتان

وتداول الفيله والتنين الذى امتزجت دماؤه وتركزت فى لون قرمزى وأرسلت عينة حية هى رجل متوحش أسر حيا فى مكان ما بعيدا عن ساحل لابرادور(١) ، ثم أرسل الى انجلترا حيث عرض هناك كأى حيوان مفترس. وفى العام التالى أعيد ثم أحضر معه امرأة متوحشة على ظهر السفينة لتشاركه وعندما رأى كل منهما الآخر استحيا ، استحيا من الاعماق بينما البحارة ، وعلى الرغم من أنهم لاحظوا ذلك ، الا أنهم لا يدرون لماذا هذا الاستحياء وبعد ذلك هيأ الاثنان سكنا لهما على السفينة المرأة تقوم على حاجات الرجل وهو يمرضها فى مرضها ولكن ــ وقد لاحظ البحارة ذلك أيضا ــ عاش المتوحشان معا فى عفة كاملة

كل أولئك العوالم الجديدة ، والأفكار الجديدة والأمواج والمتوحشون ، والمغامرات وجدت سبيلها ـ وهذا أمر طبيعى ـ الى التمثيليات التى كانت تمثل على ضفتى التيمز وكان هناك نظارة يتأثرون بالألوان الجديدة وبالاصوات العالية نظارة يربطون بين

« بارجة صنع قاعها من خشب سيزن(٢) الثمين

وسقفت بأخشاب أرز لبنان الشامخة »

وبين مغامرات أبنائهم واخوانهم عبر البحار وكان لآل فيرنيز(٣) مثلا ولد شارد انخرط فى القرصنة ثم لجأ الى تركيا حيث فتك به الموت هناك وكان قد أعاد الى كلايدون(٤) جزءا من حرائره وعمامته ومتعلقات الحاج لتكون بمثابة مخلفات له وبقايا منه وقد زادت الهوة بين ربات البيوت فى نساء باستون(٥) وبين سيدات بلاط اليزابيث ذوات الذوق الرفيع اللائى عندما تتقدم بهن السن ــ كما يقول هاريسون(٦) ــ « كن

(١) Labrador.
(٢) Sethin.
(٣) Verneys.
(٤) Claydon.
(٥) Paston.
(٦) Hattison.

يمضين وقتهن فى قراءة التاريخ أو تدوين المجلدات من «عندياتهن» أو يترجمن أعمال الآخرين الى الانجليزية أو اللاتينية ، بينما السيدات الصغريات سنا يعزفن على العـود أو القيثـار ويمضين وقت فراغهن فى الاستمتاع بالموسيقى وهكذا بالغناء وبالموسيقى يظهر فى الوجود البذخ الذى يتميز به عصر اليزابيث ، كما تميز بدرافيل جرين(١) وبالمبالغة وبالاطناب وخاصة عند كاتب أنيق العبارة قوى الاسلوب مثـل بن جونسون(٢) وهكذا نجد أن كل أدب عصر اليزابيث موشى بالذهب وبالفضة ، يتحدث عن الاشـياء النادرة فى غانا ويشير الى أمريكا هذه ـ أو أمريكتى ! أرضى التى عثرت عليها حديثا والتى هى فى الواقع ليست أرضا على الخريطة فحسب ولكنها ترمز الى منـاطق الروح المجهولة ولهذا ترعرع خيال مونتينى (٣) فى سحر عبر المياه وحول المتوحشين وأكلة لحوم البشر والمجتمع والحكومة

وان ذكر مونتينى يفترض انه على الرغم من تأثير البحر والترحال ومعرض المقتنيات الذى اكتظ بحيوانات البحر والقرون والعاج والخرائط العتيقة وأدوات النوتية اذ ألهم كل ذلك الشعراء فأصبح عصرهم أزهى عصر للشعر الانجليزى فان هذا التأثير ـ فى رأيه ـ لم يكن صورة فى صالح النثر الانجليزى وذلك لأن القافية والاوزان ساعدت الشعراء على أن يتحكموا فى ضوضاء ما قـد وسعه أدراكهم من تلك المؤثرات ، بينما كتـاب النثر وهم غير ملتزمين بهـذه الالتزامات ، يجمعون العبـارات ويخرجونها فى نمـاذج تتناهى عدا وخطرا وتجـوب وتتعثر فى ثنايا المعلومات الفيـاضة ان النثر فى عصر اليزابيث قلما كان يتوافق مع وظيفته ، فى الوقت الذى كيف النثر الفرنسى الرائع نفسه بالفعـل ويمكن ملاحظة ذلك بعقد مقارنة بين قطعة من كتاب سيدنى(٤) «دفاع عن الشعر»(٥) مع قطعة من مقالات مونتينى

« ان الشاعر لا يبـدأ بتعاريف غير مفهومة ويملأ الهامش بتفسيرات غامضة تثقل على الذاكرة بالشك ولكنه يقدم لك عبـارات صيغت فى قوالب لطيفة ، قد تصاحبها الموسيقى الممتلئة بالطرب أو قد تكون العبارات قد أعدت لهذا النغم

---

(١) Greene.

(٢) Ben Jonson.

(٣) Montaigne

(٤) Sidney.

(٥) Defense of Pocsie.

وفي القصة مثلا فانه يأتي اليك بقصة «تجذب الاطفال بعيدا عن اللعب وتغري العجائز بالابتعاد عن المدفأة » وبغير كلفة يحول العقل من الشر الى الخير فالأطفال الصغار يعطون مر الدواء مغلفا بغلاف حلو المذاق هذا المر من الدواء لو أن المرء أخبرهم في بادىء الأمر بطبيعته المرة فانهم سوف يجدون مرارة طعمه في أفواههم بمجرد أن يطرق اسمه آذانهم حتى قبل أن يصل هذا الدواء الى أفواههم وهكذا الحال بالنسبة للرجال (وأغلبهم أطفال يمكن خداعهم في أحب الاشياء حتى آخر يوم من حياتهم) يسعدهم أن يسمعوا حكايات هرقل ..»

وهكذا يجري الموضوع في ست وسبعين كلمة أخرى فوق ذلك . ان كتابة سيدني تسير في حديث سلس لا تعترضه عقبات ، بل تتخلله ومضات فجائية من الجمال الممتع والعبارات الجذلة يصلح استخدامها في العويل والنحيب والأخلاقيات ، كما يصلح استخدامها في تركيبات طويلة ، ولكنها لم تكن سريعة أو دارجة متداولة ، عاجزة عن أن تحصر فكرة بدقة وبوضوح أو تكيف نفسها لتكون مرنة ومباشرة للهدف ولتغييرات العقل . واذا قارنا ذلك مع مونتيني نجد ان مونتيني سيد متحكم في آلة يدرك قوتها وحدودها.. آلة قادرة على أن تنفذ الى داخل الشقوق والفجوات مما لا قبل للشعر به ، قادرة على التجويد والايقاع ، ايقاع يخالف ايقاع الشعر ولكنه لا يقل عنه جمالا ، فيها مهارات وحوافز تجاهل عنها النثر كلية في عصر اليزابيث ان مونتيني يروي الطريقة التي لاقى فيها بعض الغابرين حتفهم

« جعلوا الموت يسيل ويمرق وسط زحمة مشاغلهم التي اعتادوا عليها بين الاصدقاء والرفاق ، ولا حتى كلمة عزاء ولا أية اشارة الى وصية ، ولا تصنع طموح للتماسك ، بغير حديث عن ظروفهم المقبلة وانما يأتي الموت وسط المرح والولائم والحفلات والاحاديث العامة والشعبية والموسيقى وأشعار الغزل » .

وانه ليبدو لنا وكأن حقبة من الزمن قد فصلت بين سيدني ومونتيني. فمقارنة الانجليزية بالفرنسية كأنها مقارنة بين أطفال ورجال ..

ولكن اذا كان لكتاب النثر في عصر اليزابيث تحرر الشباب من الشكل فانهم يتمتعون أيضا بتجدد الشباب وجرأته ففي نفس المقال صاغ سيدني لغة بمهارة أستاذ ، وفي يسر كما أراد هو ، وكانت في

مجازها طوع بنانه بغير كلفة ولكى يصل هذا النثر الى الكمال (وقد بلغ دريدن(١) أقرب درجة من الكمال) يجب أن نقدمه على المسرح مع نمو الوعى الشخصى لدى النظارة • فانه فى المسرحيات وخاصة فى الفصول الهزلية منها يظهـــر أرق نثر فى عصر اليزابيث ان المسرح كان بمثابة الحصانة التى يجد فيها النثر قدميه ليقف عليهما وذلك لأن الجمهور فى المسرح يلتقى ويطلق « القفشات » اللاذعة ويخلق الحياة ويتبرم بالثرثرة ويتحدث عن الأمور العادية •

كلير الجدرى على وجهها الخريفى ، جمالها المحطم ، لايسمحان لأى رجل بالدخول قبل أن تتهيأ فى هذه الأيام ، وحتى تضع المساحيق ، وتتعطر وتغتسل وتفرك جلدها ، كل ذلك والشاب ينتظر ، ثم تمطره بقبلاتها بشفاه غطتها المراهم حتى انتفشت كقطعة من الاسفنج • لقد وضعت أغنية عن الموضوع (أرجوك أن تسمعها)

تغنى الخادمة لا زالت تتألق لا زالت ترتدى ملابسها ثم تستمر ترو وأنا أيضا من جانبى أحب جمال المرأة التى تتألق فى ملبسها قبل أى جمال فى العالم ان المرأة عندئذ كروض رقيق ، لا يضم جمالا واحدا ، بل انها تتغير كل ساعة ، كثيراً ما تستشير مرآتها وتختار أجملها • اذا كانت أذناها جميلتين أظهرتهما ،واذا كان شعرها ناعما ، تركته مرسلا ،واذا كانت سيقانها رشيقة ، ارتدت الملابس القصيرة ، واذا كانت يداها دقيقتين ، كشفت عنهما تمارس أى فن لـكى يصـــلح من صحتها تنظف أسنانها ، تصلح من حاجبيهـا ، تســتعمل المساحيق وتفصح بذلك ولا تنكره •

هكذا يدور الحديث فى مسرحية «المرأة الصامتة» (٢) لبن جونسان، التى تأخذ شكلا معينا بتدخل المتفرجين وتشحــذ باصطداماتها بهم وهكذا لا يسمح لها بأن تقف فى حالة ركود أو يزداد حجمها فتصـبح رديئة وانما شهرة المسرح ووجود المتفرجين بصفة دائمة يثير روح العداء بالنسبة لهذا الشعور المتزايد بذات النفس ، ذلك التأمل فى العزلة وفى أسرار الروح (الذى يتمتع به الكاتب غير المسرحى) والذى كلما مرت الأعوام

---

(١) Dryden.

(٢) Silent Woman.

وجدت وسيلة للتعبير ووجدت بطلا فى عبقرية ســـير توماس براون(١) الرفيعة ان أنانيته المتضخمة قد مهدت الطريق أمام جميع كتاب القصة النفسانيين وكتاب السـير والـكتاب الذين يهتمون بالاعترافات وبالأوجه الغريبة من حياتنا الخاصة انه هو أول من تحول عن الاهتمام بالعلاقات الظاهرية بين الناس الى حياة العزلة فى داخليتهم

« ان العالم الذى أهتم به انما هو نفسى انه مصغر لـكيانى الذى أراه بعينى أما بالنسبة للجسم فانما هو بمثابة الكرة الأرضيـــة يضم داخـــله روحى وأحركه لتسليتى وانعاش نفسى »

لقد كان كل شىء غامضا يخيم عليه الظلام كماكان يسير أول مكتشف فى سراديب الأموات يحرك فانوسه ليمزق به ذلك الظلام المخيم

« انى أحس أحيانا وكأن جحيما يستعر فى داخليتى ويعقد ابليس محكمته فى صدرى ودبت الحياة مرة أخرى فى نفس الدنيا »

وفى كل هذه العزلة لم يكن هناك مرشد أو صديق

« أنا فى ظلام دامس وفى عزلة عن العالم أجمع وحتى أقرب أصحابى يرانى وانما فى غير وضوح » ٠

ان أغرب فكرة وأعجب تصورات دارت فى رأسه وهو يقوم بعمله٠ وهو فى الظاهر يبدو كأعقل انســـان وهو يقدر كأعظم ما يقدر طبيب فى نوروش (٢) لقد تمنى الموت،لقد ساوره الشك فى كل شىء ٠ماذا يحدث لو رحنا فى سبات فى هذا العالم ؟ ان غرور الحياة لم يكن أكثر من مجرد أحلام ، حانة الموسيقى جرس ايف مارى (٣) ، القـــدر المكسور الذى استخرجه العامل من باطن الأرض انه يقف كمن فقد الحياة اذا سمع تلك الموسيقى أو وقع ناظراه على تلـكم الأشياء كما لو كان قد طعن بالمنظر الذى انفتح أمام مخيلته

« اننا نحمل فى نفوسنا كل الغرائب التى نبحث عنها خارجنا ففيها افريقيا وأعاجيبها »

---

(١) Sir Thomas Browne

(٢) Norwich.

(٣) Ave Mary bell.

هالة من الدهشة تحيط بكل شىء يراه ، أنه يدير مشعله ببطء نحو الزهور والحشرات والحشائش تحت قدميه وذلك حتى لا يزعج شيئا فى أثناء عمليات وجودها الغامض وبنفس الخوف الممتزج بمنتهى المتعة يروى اكتشاف صفاته ذاتها وادراكاته • لقد كان كريما شجاعا كارها للاشىء لقد كان مفعما بالأحاسيس نحو الغير غير رحيم بنفسه

« أما عن حديثى ، فهو كالشمس مع جميع النــاس وبصورة ودية مع الخير والشر »

لقد كان يعرف ست لغات وقوانين دول كثيرة وعاداتها وسياساتها وأسماء الأبراج السماوية ، وأغلب النباتات فى بلده ومع ذلك فهو مكتسح فى خيالاته والأفق الذى يرى فيه ذلك المخلوق الضئيل يسير ، عريض حتى « أظن أنى لا أعرف الشىء الكثير عندما كنت لا أدرك أكثر من مائة (العدد) ولم أر أبعد من تشيبسايد » (١)

كان سير توماس براون من أوائل كتاب السير انه منطلق ومحلق فى عليائه ثم ينحدر فجأة بدقة محببة نحو تفاصيل جسمه • كان متوسط الطول ــ كما أخبرنا ــ وكانت عيناه واسعتين مضيئتين ، وكان أســمر اللون لكنه مشرب دائما بالاحمرار ، انه يرتدى ملابسه ببساطة متناهية وقلما يضحك يجمع العمـــلات ويحتفظ بالديدان فى علب ، شرح رئة الضفدع وتحمل رائحة شحم الحوت الكريهة ، انه متسامح مع اليهود يتكلم عن قبح الضفدع بكلام طيب ، ويجمع بين اتجاه علمى واتجاه متشكك نحو أغلب الأشياء مع ايمان نفسى بالساحرات وباختصار ــ كما نقول عندما لا نتمالك أنفسنا من الضحك من غرائب الناس ونعجب بها كثيرا ــ لقد كان شخصية وهو أول من جعلنا نشعر أن أكثر التأملات سمواً ورفعة فى خيال البشر قد صدرت من رجل بالذات ، يمكن أن نحبه • وفى وسط الخشوع الذى يحيط بالقارورة التى تحتوى رماد المتوفى فاننا نبتسم عندما يشــير الى أن الأحزان تؤدى الى تحجر الجلد ــ ثم تتســع الابتسامة فتصبح ضحكا عندما يتكلم عن العظمة الرائعـــة ، وعمــا يدور بخلد الميديتشى (٢) المقدس من غرائب وما من شىء يكتبه الا ويدمغه بفطرته حتى اننــا ندرك فى بادىء الأمر عدم نقاوته التى تلطخ الأدب بكثير من الألوان المتنافرة ومهما حاولنا فانه يظل من الصعب أن نتأكد

---

(١) Cheapside. وهو حى من الأحياء القديمة فى لندن (المترجمة)

(٢) Religio Medici.

مما اذا كنا ننظر الى رجل أم الى كتابته • نحن الآن نحلق مع خيال رفيع• فاذا ما تركنا سيرتوماس براون الى هيكلوت نجد أنفسنا نطوف فى أرجاء غرفة من أحسن غرف المقتنيات فى العالم غرفة قد ملئت من الأرض الى السقف بالعاج والحديد القديم والقدور المكسورة وقارورات رماد المتوفين وقرون الثيران المتوحشة ، والأوانى الزجاجية الساحرة المليئة بالضوء الزمردى والغموض الأزرق فالأول يبحث فى أعماق النفس ويكشف غموضها وغرائب مكنوناتها بينما الثانى يبحث فى أعماق أفريقيا ويكشف عن غرائب تلك البقعة من العالم ونفائسها

ملاحظات على المسرحية في عصر اليزابيث (١)

ظهرت كتابات كثيرة على درجة عالية من السمو فى الأدب الانجليزى ، وأغلبها عن الأحراش والأدغال والبرارى التى هى قوام المسرحيات فى عصر اليزابيث • ولأسباب كثيرة ـ وليس هنا مجال فحصها ـ يتميز شيكسبير الذى ظلت الأضواء مسلطة عليه منذ أيامه حتى أيامنا هذه والذى يحتل مكانه فى القمة عندما ينظر اليه من مستوى معاصريه ولكن بالنسبة للمسرحيات التى كتبها كتاب الدرجة الثانية من عصر اليزابيث مثل جرين (٢) وديكر (٣) ، وبيل (٤) وتشابمان (٥) وبومونت (٦) وفليتشر (٧) ـ نلاحظ أن المغامرات فى تلك القفار بالنسبة للقارىء العادى انما هى محنة وتجربة لا تستهويه ، وتلح عليه بالاستفسارات وتدفعه الى التشكك فهى تسعده تارة بالمتعة ثم اذا به تارة أخرى يضيق بها ذرعا وذلك لأننا على استعداد لأن ننسى ونحن أميل

---

(١) ان فرجينيا وولف فى هذا المقال انما تتعرض الى النقط الاساسية التى تعتمد عليها المسرحيات التى تكتب للجمهور والتى تتعمد اثارته فيستجيب لهـا مباشرة ثم تقارن بينها وبين تلك التى يكتبها المؤلف وهو جالس الى مكتبه ، يكتب لمجرد الكتابة ولايضع فى حسابه الجمهور الذى يخشاه مؤلف المسرحية ويدرك أهميته ولذلك وصفت الاولى بالانعزالية ثم هى تقارن بين القصة وبين المسرحية وتناقش الأسس الفنية فى كل منهما

(٢) Greene.

(٣) Dekker.

(٤) Peele.

(٥) Chapman.

(٦) Beaumont.

(٧) Fletcher.

الى أن نقرأ الروائع وحدها لعصر مضى (وهــذا ميل طبيعى) الى أى مدى بلغت القوة التى يفرض بها هــذا الأدب نفســه وكيف أنه لا يسمح لنا أن نقرأه فى سلبية أو دون تعمق ذلك أنه يأخذ بمجامع عقلنا وقلبنا ويكاد يقرأ ما فى خلدنا ويضعه أمامنا وأنه لا يعبأ بآرائنـا وينـاقش المبادىء التى تعودنا أن نأخذها قضية مسلمة ، وفى الواقع ان هذا الأدب يدفعنا الى رأيين ونحن نطالعه ـ حتى ولو كنا نستمتع بالقراءة ـ أما أن ترفع راية التسليم واما أن نتمسك برأينا

عندما نبـدأ فى قراءة مسرحية من مسرحيات عصر اليزابيث نرى التناقض الغريب يصدمنا ، التناقض بين وجهة نظر ذلك العصر عن الواقع وبين وجهة نظرنا نحن عن هذا الواقع ان الحقيقـة التى نشـأنا عليها وكبرنا بها وتعودناها ـ بصفة عامة ـ تقوم على حياة فارس يدعى سميث ووفائه·ورث هذا الفارس والده فى مهنةالأسرة مستوردين للأخشاب وتجاراً فيه ومصدرين للفحم ، فارس معروف فى الدوائر السياسيـة والـكنسية والدوائر ذات السمعة الطيبة ، قدم الـكثير لفقراء ليفـربول ومات يوم الأربعاء المـاضى من التهاب رئوى عندما كان يزور ولده فى مازويل هيل(١) هذا هو العالم الذى نعرفه ، هذه هى الحقيقـــة التى يعمل شــعراؤنا على ايضاحها والقاء الضوء عليها ثم نفتح أول مسرحية تصل اليها يدنا من مسرحيات عصر اليزابيث ونقرأ ·

رأيت ذات مرة

فى رحلاتى خلال أرمينيا

ثوراً وحشاً هائجاً بكل قواه

يجرى وراء صانع بأقصى سرعته

كان يرقبه ليحصل على الكنز الذى يحمله فوق رأسه

وقبل أن يتسلق الشجرة ليحتمى بها

وخزه بالقرن الثمين فأسقطه على الأرض

أين سميث ؟ اننا نتساءل ، أين ليفربول ؟ وحتى أحراش مسرحيات عصر اليزابيث يتردد صداها ، أين ؟ ان الانشراح هو أثمن شىء ، وأسمى

---

(١) Muswell Hill.

مراتب الراحة فى امكان التجول بحرية فى أرض الثور الوحشى ومع الصائغ وبين الدوقة والدوقات جونزالوس(١) وبلليمبرياس(٢) الذين أمضوا حياتهم فى القتل والدسائس وهم يرتدون ملابس الرجال اذا كن من النساء أو يرتدون ملابس النساء اذا كانوا رجالا يرون أشباحا ويصابون بالجنون ويموتون نتيجة للتمادى فى الاسراف لأتفه اثارة ويطلقون اللعنات فى انفعال شديد وهم يبكون أو يقعون فى يأس مميت ولكن سرعان ما يتساءل الصوت الخافت الذى تجرد من أية رحمة ـ ذلك الصوت الذى اذا أردنا أن نتعرف عليه فلابد أن نفترض أن قارئا بالذات قد أرضع الأدب الانجليزى الحديث والأدب الفرنسى والأدب الروسى ، ويتساءل هذا الصوت لماذا ، وعلى الرغم من هذه المؤثرات والسحر ـ لماذا ظلت هذه المسرحيات القديمة باقية على مدى الزمن ثقيلة غير محتملة ؟ أليس ذلك هو الأدب اذا كان عليه أن يجعلنا متيقظين طوال الفصول الخمسة أو الأبواب الاثنين والثلاثين ؟ أفيكون قائما ومؤسسا على سميث عندما تطأ قدمه ليفربول ثم يبتعد بنا ماشاء له البعد عن الواقع ؟ اننا لسنا على هذا القدر من البساطة لكى نعتبر أن رجلا لمجرد أن اسمه سميث وأنه يعيش فى ليفربول يصبح بهذا وحده « واقعا » واننا لنعلم يقينا أن لهذا الواقع صفات الحرباء فيصبح الخيال الذى نألفه ونحن نكبر مع الأيام ـ أقرب الى الحقيقة ويصبح العقل والحجا أبعد عنها ولا شىء يؤكد عظمة الكاتب أكثر من قدرته على التحكم فى منظر المسرحية ـ بعد أن يتمكن من اعطائها من اللمسات ما قد يظهر ذبذبات السحاب وخيوط الذرات الرفيعة التى تظهر فى عامود الضوء من أشعة الشمس عندما تدخل من احدى الفتحات .

ويدور جدالنا حول وجود موقف معين فى مكان ما حيث يرى سميث ليفربول فى أبهى وضع لها ، والفنان الكبير هو ذلك الرجل الذى يعرف أين يضع نفسه فى تتابع المناظر ، واذا كان عليه ألا يغيب عن ليفربول فانه يجب عليه ألا يراها من زاوية خاطئة . ان كتاب عصر اليزابيث يثقلون علينا ، فأبطالهم دائما من الدوقة ، وليفربول عندهم جزر خرافية وقصور فى جنوا وبدلا من الاحتفاظ بالتوازن فى الحياة فانهم يحلقون أميالا فى السموات العلا حيث لا شىء يرى لساعات طوال غير سحب وكأنها أرواح عربيدة وقطاع من السحاب ليس فيه ما يرضى عين الانسان انهم يثقلون علينا كذلك لأنهم يخنقون خيالنا بدلا من شحذه للحركة

(١) Gonzaloes.

(٢) Bellimperias.

وعلى الرغم من أن المسرحية قوية فان الملل الذى تبعثه من نوع يختلف كل الاختلاف عن الملل الذى تسببه رواية من القرن التاسع عشر كروايات تنيسون (١) أو هنرى تيور (٢) وتضارب الصور وطلاقة اللسان العنيفة تتخم وتشبع ولكنها تبدو مع ذلك كأنها مرسومة بقوة مثلها فى ذلك كمثل النار الهزيلة تتأجج وترتفع ألسنتها ونحن نغذيهـا بورق الجرائد(٢) وهناك على أسوأ الأحوال صياح متقطع نشط يعطينا الاحساس ـ ونحن جلوس فى المسرح على المقاعد المريحة الهادئة ـ بهرج سائس الخيول ، وصياح بائعات البرتقال وهم يرددون جملا من المسرحية أو يطلبون اعادتها ويصفرون ويصفقون اعجابا وتقديرا. بينما نرى بوضوح أن المسرحية فى عصر فيكتوريا كانت تكتب داخل الكاتب وتسيطر عليها دقات الساعة وتحكمها الأسس والقواعد فى الكتب التى تشكل صفوف المكتبة وذلك دون صفير أو تصفيق ولذلك فلا تحرك تلك المسرحية مشـاعر المشـاهدين أو تثيرها كما فعلت مسرحية عصر اليزابيث بكل ما فيها من عيوب ومساوىء ان الاسهاب والبلاغة ينطلقان من بين سطور المسرحية وتسرع الى الوجود وتصل الى نفس المتعة الموسيقية والغزارة وعدم التـوقع التى يحققها الـكاتب الذى يجلس متعمدا الى مكتبه لـكى يكتب لنا مسرحيـة وفى الواقع ان الانسـان ليشعر أن نصف عمل المسرحى فى عصر اليزابيث انما قام به المتفرجون

وفى مقابل ذلك علينا ـ على كل حال ـ أن نبين الحقيقة الواقعة وهى ان التأثير فى المتفرجين أمر غير مرغوب فيه ومن أوليات هذا التأثير أن المسرحيـة قد تفرض علينا القصـة أى التسلسل المتتابع للحوادث التى لا يحتمل وقوعها ولا تستساغ عقلا ، وهى القصـة التى أرضت نفسية جمهور من غير المتعلمين من السهل التأثير عليه خاصة وهو موجود فعلا ودائما فى المسرح ، هـذا التسلسـل لا يحدث سـوى تشويش واجهاد للقارىء الذى ينصرف بكليته الى القراءة ومما لا شـك فيه أن شيئا لا بد أن يحدث ؛ ومما لا شك فيه أيضـا ان المسرحية التى لا شيء يمكن أن يحدث فيها بالفعل هى مسرحية مستحيلة ومن حقنا أن نطالب ـ طالماأثبت الاغريق ان ذلك ممكن ـ بأن ما يحدث لا بد أن يكون له نهاية.

---

(١) Tennyson.

(٢) Henry Taylor.

(٣) وتشير الكاتبة بذلك الى هزال الموضوع وضعف الفكرة وتفكك العقدة مع جدالة فى العبارة ورصانة فى القول وقوة فى اللغة فالنار الهزيلة نغذيها بورق الجرائد فترتفع ألسنتها وتتأجج نارها ومع ذلك تظل غير قادرة على انتاج شيء (المترجمة)

وأن يكون فيما يحدث ما يثير مشاعر عظيمة وان توجد مناظر لا تنسى تدفع الممثلين لأن يقولوا ما لا يمكن أن يقال بغير هـذا المؤثر لا يمكن لأى فرد ألا يتذكر الحوادث فى رواية أنتيجون (١) « وذلك لأن ما حدث انما هو متصـل اتصـالا وثيقا بعواطف الممثلين ولذلك نتذكر الحوادث والشخصيات معا وفى نفس الوقت ولكن هل يستطيع أحد أن يذكر لنا ما حدث فى « الشيطان الأبيض (٢) » أو «مأساة العذراء » (٣) الا بتذكر القصة(٤) بعيدة عن العواطف التى أثارتها ؟ أما بالنسبة للروائيين الذين هم فى المرتبة الثانية فى عصر اليزابيت أمثال جرين (٥) وكيد (٦) فان عقد رواياتهما عقد عظيمة ، والعنف الذى تتطلبه تلك الحوادث عنف مروع حتى ان شخصيات الممثلين أنفسهم تنمحى فلا نذكرهم أما العواطف التى تستحق فى عرفنا ــ على الأقل ــ الاختبار الدقيق والتحليل السليم فهى تزول بدورها وتنمحى تماما من صفحات الرواية • والنتيجة لا مفر منها وباستثناء شيكسبير وربما بن جونسون فانه لا توجد شـخصيات فى مسرحيات عصر اليزابيث وانما مجرد عنف لا ندرى عنه الا الشىء القليل لدرجة اننا لانعبأ بماسيحدث لهم• ولنأخذ أى بطل أو بطلة فى هذه الروايات المبكرة مثل بليمبريا (٧) فى «المأساة الاسبانية»(٨) فهى ستؤدى الغرض مثلها كمثل أى بطلة أخرى وهل نقول بأمانة اننـا نهتم أقل اهتمام بالسيدة التعسة التى عانت كل صنوف المآسى البشرية لكى تقتل نفسها فى النهاية ؟ والجواب اننا لا نهتم بها بأكثر مما نهتم بمقشة فيها حياة فاذا ما تعلق الأمر فى الأدب بحياة الناس رجالا ونساء فانه اذا ما طغى العنف ومرت حوادث غير معقولة يصبح العمل معيبا ولـكن المأساة الاسبانية تعتبر عملا فجاً لرواد المسرح وترجع أهميتها الرئيسية الى أنها أعمـال بدائية أظهرت الاطار الفج الذى يمكن أن يتولاه كتاب المسرح عظماء الشأن

---

(١) Antigone.

(٢) White Devil.

(٣) The Maid's Tragedy.

(٤) هاتان الروايتان من روايات القرن التاسع عشر وهى التى وصفتها المؤلفة بأنها روايات كتبت للقراءة وليسـت لتمثلها على المسرح ولذلك فهى بعيدة عن اثارة أى انفعال كما هى بعيدة عن مؤثرات الاخراج المسرحى (المترجمة)

(٥) Greene.

(٦) Kyd.

(٧) Bellimperia.

(٨) The Spanish Tragedy

بالتطوير والتعديل وكما تقول مدرسة ستندال (١) وفلوبير (٢) ان فورد عالم نفساني ومحلل ، هذا الرجل كما قال السيد هافيلوك اليس (٣) « يكتب عن النساء لا ككاتب مسرحي ولا كمحب وانما كشخص تفحص حانياً وأحس بوجدان فطري شغاف قلوبهن

ان مسرحية للأسف انها عاهرة »(٤) — التي يقوم عليها الحكم أساسا تعرض علينا طبيعة أنابيلا(٥) كاملة منسوجة من قمة رأسها الى أخمص قدميها من مجموعة هائلة من التقلب فأولا يبثها أخوها غرامه ، ثم اذا بها تعترف بعشقها اياه ، وبعد ذلك تجد نفسها ومعها طفل منه ثم هي بعد ذلك تجبر نفسها على الزواج من سيرانزو(٦) ، ثم أخيرا تجد نفسها تتوب وفي النهاية تقتل ويكون قاتلها أخوها وعشيقها

ان تتبع فحص هذه المشاعر التي يمكن أن نتوقع أن تولدها مثل هذه الأزمات والمشاكل في امرأة كفيل بأن يملأ مجلدات ولكن المؤلف المسرحي ليس لديه بالطبع مجلدات لكي يملأها بل انه مضطر للاختصار وعلى الرغم من ذلك فانه يلقي الأضواء ، وفي امكانه أن يكشف لنا بما فيه الكفاية لكي يجعلنا نخمن الباقي ولكن ما الذي نعرفه — بغير استعمال مجهر أو تفتيت الأجزاء — عن شخصية أنا بيلا ؟ اننا اذا تحسسنا هذه الشخصية فاننا يمكن أن نخرج بأنها فتاة دائبة الحركة ، امتلأت نفسها ازدراء بزوجها منذ أساء استغلالها ، واستغل قدرتها على أداء الأغاني الايطالية ، ونكتتها الحاضرة ، كما أستغل فيها ميلها لممارسة الحب وآنما لا أثر للأخلاق — كما نفهمها — في شخصيتها اننا لا ندرى كيف وصلت الى هذه النهايات فهي قد وصلت اليها هكذا لم يصفها مخلوق انها دائما في قمة انفعالها ولم تكن مطلقا عند بدايته قارنها بأنا كارينينا للكاتب الروسي تولستوى ان المرأة الروسية مخلوقة من دم ولحم وأعصاب ومزاج لها قلب وعقل وجسد وتفكير بينما الفتاة الانجليزية سطحية خام كالوجه المرسوم على أوراق اللعب ، ليس فيها عمق ، ولا حدود ولا تعقيد • واذ نقول ذلك فاننا ندرك اننا فقدنا شيئا لقد سمحنا لمعاني المسرحية أن تفلت من بين أصابعنا لقد تجاهلنا الانفعال الذي سبق اثارته

---

(١) Stendhal.

(٢) Flaubert.

(٣) Havelock Ellis.

(٤) **Tis Pity She's a Whore.**

(٥) Annabella.

(٦) Seranzo.

لأنه أثير فى أماكن لم نكن نتوقع أن نجد فيها الاثارة انـنا بذلك نقارن المسرحية بالنثر ، والمسرحية على الرغم من كل هذا شعر

ان المسرحية شعر ــ كما نقول ــ والقصة نثر ولنحاول أن نزيل التفاصيل ولنضع الاثنتين جنبا الى جنب أمام ناظرينا لكى نحس ــ على قدر ما نستطيع ــ بالزوايا والأبعاد لكل منهما ونستعيد كلا منهما لأبعد ما فى طاقاتنا ككل • وعندئذ تبرز دفعة واحدة نقط الاختلاف الرئيسية ، القصة التى جمعت فى وقت طويل من الراحة والمسرحية القصيرة المختصرة كل الانفعالات تفتت وتشتت ثم نسجت معا بطيئة وتجمعت تدريجيا فى وحـــدة هى القصـــة أما الانفعـــالات فى المسرحيـــة فهى مركزة وعامة وتبلغ الذروة فيها أى لحظات من التركيز وأى عبارات عن الجمال الغريب تلقى بها المسرحية الينا

أوه سيدى

أنا لم أخدع الا عينيك بايماءة عتيقة

عندما يجىء خبر مباشر يترى وراء غيره

عن الموت والموت والموت ! ومع ذلك فأنا أتقدم راقصا

أو

لقد تعودت أنت تلك الشفاه

زهرة الكاسيا المهجورة أو الحلوى الطبيعية

أو بنفسج الربيع الذى لم يذبل بعد

وبكل ما أوتيت أنا كارينينا من واقع فانها لا تستطيع أن تقول

« لقد تعودت تلك الشفاة »

« الـكاسيا المهجورة »

ان بعضا من المشاعر الانسانية العميقة أبعد من أن تصـــل اليها ان العواطف المتأججة ليست لـكاتب القصة ، ان تزاوج الحواس الصحيح والسليم ليس له ، عليه أن يروض اندفاعه الى كسل ، وأن يثبت عينيه على الأرض وليس فى السماء يوضح بالوصف ولا يكشف بالقاء الضوء ، وبدلا من أن يغنى

ان اكليلا من الزهور يغطى نعشى

الذى صنع من شجرة الحزن والشؤم

والعذارى حاملات أفرع الصفصاف

يقلن أنى مت حقاً

فعليه أن يحصى زهور الكريزانتيم الذابلة فوق القبر والحانوتية الذين تهدج صوتهم وهم يمرون بعرباتهم • كيف يمكن اذاً أن نقارن هذا الفن الخليط البطىء فى القصة بالشعر ؟ ان القصاص قد ضمن تلك المهارات الدقيقة والرشاقة الخفيفة التى عن طريقها يجعلنا نتعرف على الفرد ونفهم الواقع بينما الكاتب المسرحى يذهب أبعد من الفرد ويفصله عن العالم لا ليرينا أنابيلا وهى تحب وانما ليرينا الحب نفسه ، ولا ليرينا أنا كارينينا وهى تلقى بنفسها تحت عجلات القطار بل ليرينا الدماء والموت

الروح سفينة يلعب بها الريح فى يوم عاصف

تتقاذفها وتدفعها لمصير مجهول

ولذا يحق لنا أن نعجب من نفاذ الصبر ــ وان كان مقبولا ــ ونحن ننتهى من مسرحية من مسرحيات عصر اليزابيث ولكن ما هو اذاً العجب الذى يسيطر علينا بعد أن ننتهى من قراءة قصة « الحرب والسلام » ؟ ليس تعجباً مصحوبا بخيبة أمل على كل حال ، اننا لا نترك الكتاب ونحن ننعى السطحية أو ننحى باللائمة على تفاهة فن القصة بل اننا نجد أنفسنا أكثر ادراكا بالغنى الذى لا حد له للاحساس البشرى ففى المسرحية نتصل بالعموميات وفى القصة نتعرف على الخصوصيات فى المسرحية نجمع كل نشاطنا ونركزه فى نبضة • أما فى القصة فاننا نتوسع ونمتد وتتسرب فينا تسربا هينا فى كل النواحى الانطباعات التى يقصدها الكاتب ورسالاته المتجمعة • ان العقل متشبع بالاحساس واللغة عاجزة عن التعبير عن خبرات العقل ، حتى انه ــ بدلا من أن نقوم صورة من صور الأدب أو نحكم عليها بالنقص بالنسبة الى غيرها ــ فاننا نشكو من أن صور الأدب هذه ما زالت غير قادرة على مواجهة المادة الغريزية ، وننتظر ــ وقد نفذ صبرنا ــ خلق ما قد يفلح فى اراحتنا من العبء الثقيل للأفكار التى لم ينجح بعد الأدب فى التعبير عنها

ومع ذلك ، وعلى الرغم من السخافة والاسهاب والبلاغة والخلط فاننا مازلنا نقرأ الأدب الذى لم يأخذ الطابع الكامل لأدب عصر اليزابيث ولا زلنا نجد أنفسنا نغامر ونتوغل فى أرض تاجر المجوهرات ، والجاموس

الوحشى   لقد تلاشت المصانع المألوفة فى ليفربول فى الهواء وقلما نتعرف على أى تشابه بين الفارس الذى استورد الاخشاب ، هذا الذى مات من التهاب رئوى فى مازويل هيل وبين الدوق الأرمينى الذى سقط ـ « كبطل رومانى » ـ على سيفه بينما تنعق البوم على شجرة اللباب وبينما تضع الدوقة مولودا « وسط النساء المولولات »   لكى نجوب تلك الآفاق ونتعرف على نفس الشخصية فى صورها المختلفة   علينا أن نسوى كل حالة وأن نراجع معلوماتنا عن المسرحية فى عصر اليزابيث   مع اجراء التغييرات الضرورية من زواياها الصحيحة   التى صورت من نسيج من الاحساس الذى طوره المحدثون فى روعة ، ويجب علينا أن نعتمد على الأذن والعين ـ وقد أهملها المحدثون اهمالا تاما ـ حتى نسمع الكلمات كما كانت تدوى والضحكات كما كانت تنطلق لا ككلمات مطبوعة بحروف سوداء على كل صفحة لنرى أمام ناظرينا تعبيرات الوجه والأجسام الحية للانسان وباختصار ضع نفسك ـ فى وقت ذلك العصر ـ ولكن لا على درجة بدائية تختلف كثيرا عن زاوية قراءاتك ، عندئذ ستظهر مزايا المسرحية فى عصر اليزابيث وتؤكد وجودها   ان قوة أدبنا فى مجموعه لا ينكرها أحد وكذلك أدبهم اذ كانت الكلمات تصاغ فى عبقرية وكأن الأفكار تغوص فى بحر الكلام ثم تخرج منه والكلمات تتساقط من حولها   وفى أدبهم روح دعابة عريضة تعتمد على الجسم العارى ، والتى مهما حاول الناس ادراكها فليسوا بقادرين مادام الجسم الآن قد اكتمل غطاؤه   ومن وراء كل هذا فان ما نسميه ، باختصار ، بالاحساس بوجود الآلهة لا يفرض وحدة الأدب وانما يحقق له نوعا من الاستقرار   ولسوف يكون ناقدا شجاعا ذلك الذى يحاول أن يضع كل هذا الحشد المتنوع من كتاب المسرح فى عصر اليزابيث تحت أى مذهب من المذاهب   ومع ذلك فاننا نشعر بالخجل اذا سلمنا بأن أدباً برمته وبشخصياته المألوفة انما هو مجرد تصعدات لأرواح عالية ، ووسيلة للكسب ، وافاقة عقل ـ تبعا لظروف مواتية انتهت بالنجاح ـ فحتى فى الأدغال وفى البرارى فان البصلة لا تزال تعمل

يا الهى يا الهى كم أتمنى أن أكون ميتا

انهم يبكون دائما

ان الموت الطبيعى بغير عنف

توأم للنوم اللذيذ الهادىء

ان منظر العالم رائع ولكنه فى نفس الوقت ملىء بالغرور

ان المجد بالنسبة لعظمة البشرية كالأحلام الجميلة
سرعان ما تتلاشى الظلال على خشبة المسرح
وعلى خلودى وشبابى مثلت
صوراً من الغرور

أن يموتوا ،وأن يظلوا فىهدوء ، ذلك هو منتهى آمالهم ، انالأجراس التى تدق خـلال المسرحيـــة انما هى نواقيس الموت وزوال الوهم ونور البصيرة

انما الحياة تجوال للبحث عن المـأوى
وعندما نرحل عن الدنيا نجد ذلك المـأوى

الفناء والملل ، والموت ، والموت دائما يقف بصلابة ليواجـه الصورة الأخرى من المسرحية فى عصر اليزابيث وهى الحياة الحياة تضم الطيور الاستوائية وشجر الأرز والعاج والدرفيل ورحيق زهور شهر يولية ولبن الجاموس الوحشى وتنفس النمور والخيال واللؤلؤ ومخ الطـــاووس وخمر كريت عن هذا هم يقولون ويصفون الحياة فى أبشع صورة من الاهمال والثراء وهم يرددون

الرجل شجرة ليس لها قمة فى هموم الحياة
وليس لها جذور فى الراحة منها ،
وكل قدرته فى الحياة لا تهدف الى شىء
الا أن يكون له قدرة على الحزن ٠

هذا هو الصدى الذى يتردد مرة تلو أخرى من الجـــانب الآخر من المسرحية التى ــ ان لم يكن لها الاسم ــ ففيها التأثر بوجود الآلهة ٠ وهكذا نتوغل فى الغابات والأحراش والبرارى فىمسرحية عصر اليزابيث٠ وهكذا نلتقى بالأباطرة والمهرجين والصياغ والجاموس الوحشى ونضحك ونغرق فى المرح ونتعجب من روعة كل هذا وفكاهته وخياله وتلتهمنا ثورة نبيلة عندما تسدل الستار ، ولقد ملأنا الضجر والغثيان من الحيل القديمة المتعبة والاسهاب الممل ان موت كثير من الناس مكتملى النمو لا يحركنا مثـل ما تحركنا آلام واحد من شخصيات تولستوى نجوب خلال شبكة معقدة لقصة مرهفة غير معقولة وفجأة تمسك بنا بعض العواطف الجياشة ؛ وشىء

من السمو يرتفع ويبعث على النشوة أو تشجينا وتسحرنا أصوات رخيمة تشدو ، بجزء من أغنية ، انه عالم ملىء بالمشقة والسرور ،وبالمتعة والفضول وبالضحكات المسرفة وبالشعر وبالاشراق ولـكن تأتينا فكرة على مهل ما الذى نفتقده اذاً ؟ ما الذى نبغيه ونريده بالحاح بحيث اذا لم نحصل عليه فى الحال سعينا نبغيه فى مكان آخر ؟

انه الوحدة(١) لا توجد خصوصيات هنا وانما الباب مفتوح وان شخصا يلج الباب كل شىء مشترك فيه فهو واضح مسموع مسرحى وفى نفس الوقت ـ كما لو كان قد مل الصحبة ـ يشرد العقل ليفكر فى الوحدة ، ليفكر لا ليمثل ليعلق لا ليشارك ، ليكتشف متاهاته لا السطح اللامع المضىء فى عقـــول الآخرين يعود العقـل الى دون(٢) ومونتينى وسيرتوماس براون يعود الى سدنة مفاتيح الوحدة

(١) Solitude.

(٢) Donne.

مونتيني

كتبت فرجينيا وولف هـذا الموضوع بمناسبة نشر مقالات مونتينى فى انجلترا من ترجمة تشارلس كوتون فى خمسة مجلدات • والناشر لها مؤسسة نافار •

رأى مونتينى ذات مرة فى بار « الدوق » صورة كان قد رسمها رينيه ملك صقلية لنفسه وتساءل مونتينى « لماذا لا يكون ممكنا أن يرسم الشخص نفسه بطريقة مماثلة ـ عن طريق الكتابة كما فعل رينيه عن طريق الرسـم ؟ » ويمكن للمرء أن يجيب على الفـور بأنه ليس معقولا فحسب بل ليس هناك ما هو أبسط من ذلك • وقد يتحاشانا بعض الناس بالرغم من أن ملامحنا تكاد تكون مألوفة جدا فلنبدأ وعندئذ ـ أى عندما نحاول البدء ـ فان القلم يسقط من بين أصابعنا اذ الموضوع عميق وغامض وبالغ الصعوبة

ومن المسلم به فى جميع الآداب أن الذين نجحوا فى رسم أنفسهم بالكتابة قليلون ؛ وقد يكونون مونتينى (١) وبيبز (٢) وروسو (٣) وحدهم • ان صورة نيافة الميدتيشى (٤) عبارة عن زجاج ملون من خلاله يرى المرء فى الخلفية السوداء نجوما تتابع وروحا غريبة مشاغبـة • وتعكس المرآة المصقولة وجه بوزويل (٥) ـ كاتب سيرة الميديتشى الشهيرة وتحس به وهو ينظر نظرات ثاقبة فى أغوار الناس وأنت تقرأ تلك السيرة

أما أن يكتب المرء عن نفسه وهو يتتبع أوهام نفسه وتخيلاتها فانه يعطى الصورة الكاملة بثقلها ولونها ـ وأبعاد الروح فى خلطهـا وفى

(١) Montaigne.
(٢) Pepys.
(٣) Rousseau.
(٤) Midici.
(٥) Boswell.

نقاوتها وفى انحطاطها هذا الفن طوع رجل واحد ، انه طوع مونتينى وكلما مرت العصور فهناك دائما تزاحم أمام تلك الصورة ٠ تحملق فيها العيون لتصل الى أغوارها وهم يرون فيها صورة وجوههم وكلما نظروا اليها استشفوا الكثير وان كانوا غير قادرين عن الافصاح عما يرونه بالتحديد ان الطبعات الحديثة تؤكد الافتتان الدائم وهنا مؤسسة نافار فى انجلترا تنشر فى خمسة مجلدات ترجمة كوتون بينما فى فرنسا تنشر مؤسسة لويس كونارد الأعمال الكاملة لمونتينى ومعها تفسيرات مختلفات فى طبعة قد وهبها الدكتور أرمنجود (١) حياة طويلة من البحث(٢)

أن يقول المرء الصدق عن نفسه أو أن يكشف خباياها للعالم أمر ليس بالهين يقول مونتينى

« اننا نسمع عن اثنين أو ثلاثة فقط من الأقدمين الذين سلكوا هذا الدرب ومنذ ذلك الوقت لم يحذ حذوهم أحد من بعدهم بأن سلك نفس الدرب ، انه طريق وعر ،بل أكثر وعورة مما يبدو ، يقتضى خطوة ضالة ، غير مؤكدة مثل الروح، لكى ينفذ الى الأغوار والمنعطفات المعقدة والمظلمة،لكى يختار ويضع يده على كثير من الخطوات الرقيقة الرشيقة ، انه عمل جديد غير مألوف ، وهذا يبعد بيننا وبين الأعمال العادية التى يحبذها الجميع بشدة فى العالم ٠ »

وتأتى فى المقام الأول صعوبة التعبير اننا جميعا منهمكون فى الأعمال الغريبة السارة التى تسمى بالتفكير ولكن عندما نصل الى حد الافصاح عما نفكر فيه حتى ولو كان فى مواجهة البعض ، نجد أنفسنا غير قادرين على نقل ما نفكر فيه الى هذا الغير ! فشبح الفكرة يجوب ثنايا العقل ثم سرعان ما يمرق من النافذة قبل أن نتبين ملامحه أو يرسب رويدا رويدا ويعود الى ظلمات الاعماق التى ومضت لحظات بضوء عابر

ان الوجه والصوت واللهجة تشوه كلماتنا وتؤكد ضعفها مع الشخصية عند الكلام وبينما القلم أقدر على التعبير نراه فى الوقت نفسه آلة صارمة ، فالقلم قليل الكلام ولكنه يحيط بجميع صنوف العادات

---

(١) Dr. Armaingawd.

(٢) Essays of Montagne, translated by Charles Cotton, 5 vols The Navarre Society.

والطقوس الخاصة بالشخصية وهو مستبد كذلك انه دائما يجعل من الافراد العاديين أنبياء فقد تكون الكلمة فاشلة اذا ألقيت فى خطاب ولكن القلم قادر على أن يحولها الى مقال رزين رائع ولهذا ظل مونتينى حيا بعيدا عن عداد الأموات ، بقى فى حيوية ناطقة ولا يمكن أن يتطرق الينا الشك ـ ولو لفترةوجيزة ـ أن كتابه انما هو شخصيته • انه لايقبل أن يكون معلما ولا يقبل أن يكون واعظا فقد دأب يقول أنه مجرد شخص كغيره من الأشخاص

واتجهت كل جهوده لأن يصف نفسه بالكتابة على صفحات منكتبه وأن ينقل أفكاره الى الناس ، وأن يقول الحقيقة وهذا هو « طريق وعر بل أكثر وعورة مما يبدو »

ومن وراء صعوبة التعبير أى نقل صورة النفس الى الآخرين ،تأتى مشكلة المشاكل وهى أن يكون الانسان نفسه ان هذه الروح أو الحياة التى بين جنبينا لا تتوافق بتاتا مع الحياة التى تحيط بنا فاذا كان لدى المرء الشجاعة لأن يسأل الروح فيم تفكر ، فانها دائما ترى عكس ما اعتاد الناس رؤيته وتفكر منطلقة بعيدة عن القيود والعادات التى يخضع لهـا الناس اضطرارا فقد نادى بعض الناس مثلا منذ زمن بعيد بأنه يجب على الرجال المسنين والمرضى أن يقروا فى بيوتهم ويشيدوا بصرح الفضيلة العائلية • ولكن روح مونتينى ترى عكس ذلك وتقرر أنه على المرء المسن أن يسافر ، وأن الزواج الذى لايقوم على الحب جدير بأن يصبح فى نهاية الحياة مجرد رباط شكلى يحسن فصامه ومرة أخرى نرى النـاس فى مجال السياسة يشيدون دائما بعظمة الامبراطورية ويتشدقون بالالتزام الادبى بنشر الحضارة فى الدول المتخلفة ولكن مونتينى يصيح فى ثورة غضبه أن انظروا الى الأسبان فى المكسيك « كم من مدن اندكت وكم من أوطان أبيدت ، وكيف أن أغنى بقاع الارض وأجملها انقلب عاليها سافلهـا من جراء تجارة اللؤلؤ والفلفل ! انتصارات آلية ! وعندما أتاه نفر من الفلاحين ليخبروه بأنهم صادفوا رجلا يعانى من سكرات الموت من جراحه فنبذوه وتخلوا عنـه لخوفهم من أن يؤخذوا به فتدينهم العـدالة بقتله فتساءل مونتينى

ماذا أنا بمستطيع قوله لهؤلاء الناس انه من المؤكد ان الاحساس بالانسانية لا بد قد سبب لهظ المتاعب فليس هناك ما هو أقسى على النفس ولا أشد وطأة عليها من هـذا الذى تكون أخطاؤه عامة شاملة مثل القانون • »

وهنا نرى الروح جامحة تلهب بسوطها الصور الواضحة من خيال مونتينى وعرفه وطقوسه ولكن يمكنك أن تلاحظ الروح تارة أخرى وهى تفكر وتتأمل الى جوار المدفأة فى غرفة داخلية من البرج هذا البرج الذى هو على الرغم من أنه منفصل عن بقية المبنى فانه يسيطر على ما يحيط به كذلك الروح فى تأملها منفردة وفى عزلة عن العالم ومع ذلك تحيط بها وتدركها حقيقة ان الروح أغرب مخلوق فى العالم، بعيدة عن الشهرة متغيرة كدوارة الريح التى تبين اتجاهه ، « خجولة سفيهة ، عفيفة شهوانية ، ثرثارة ، صامتة ، دءوبة رقيقة ، عبقرية ثقيلة ، حزينة ، مرحة ، كاذبة ، صادقة ، عالمة ، جاهلة ، متحررة ، جشعة ، مسرفة ، وباختصار فهى معقدة جدا لا حدود لها ، قليلة الاستجابة لمن يرغمها على أداء واجبها فى علانية حتى أن المرء قد يقضى عمره محاولا الهبوط بها الى الأرض ان السعادة التى ننالها فى السعى وراءها أقوى وأشد وهى تعوض الانسان عن أى ضرر يمكن أن يلحق (بسبب هذا السعى) آماله الدنيوية فالرجل الذى يعرف نفسه فى الواقع طليق لا يشعر بالملل مطلقا والحياة بالنسبة اليه قصيرة جدا اذ هو غارق فى سعادة عميقة ولكنها عفيفة انه هو الوحيد الذى يعيش بينما الآخرون عبيد المظاهر والشكليات تمر عليهم الحياة كالحلم اذا تصرف كل فرد بما يلائم العرف فيأتى من الأفعال ما يأتيه الآخرون لا عن اقتناع به ، ولكن لمجرد أن الناس يأتونه ، فان سباتا عميقا سيستولى على الأعصاب الرقيقة ويخيم على امكانيات الروح ستصبح الروح مجرد مظهر خارجى يضم تحته فراغا داخليا كئيبا فجا لاهيا .

عندئذ وبكل تأكيد اذا سألنا هذا الأستاذ العظيم فى فن الحياة أن يبوح لنا بسره فانه سينصحنا بأن ننسحب الى حجرتنا الداخلية فى برجنا وهناك نقلب صفحات الكتب ، نتتبع الفكرة تلو الأخرى وهى تتلاحق صاعدة على المدخنة وتترك حكم العالم للآخرين الانسحاب والتأمل هذان هما أهم عناصر الدواء الذى يصفه لنا ذلك السيد العظيم ولكن مونتينى ليس واضحاً على أية صورة انه من المستحيل استخلاص جواب صريح من ذلك الرجل ذى الدهاء وهو قليل الابتسام ينتابه الحزن أحيانا ، وله جفون ثقيلة ، وتعبير حالم معقد والحقيقة انه كان يرى أن الحياة فى الريف حيث يصاحب المرء كتبه وسط الأزهار والخضروات غالبا ما تكون كئيبة للغاية فهو لا يستطيع مطلقا أن يرى أن بازلاءه الخضراء أحسن بكثير من بازلاء الآخرين وأن

باريس هى المكان الذى يحسه أكثر من غيره فى العالم قاطبة « حتى عيوبها والعمل فيها » أما عن القراءة فانه كان من النادر أن يقرأ فى أى كتاب أكثر من ساعة فى المرة ، وكانت ذاكرته ضعيفة لدرجة أنه كان ينسى ما كان يفكر فيه وهو ينتقل من غرفة الى أخرى . وكان يرى أن التعليم عن طريق الكتاب ليس شيئا نفخر به ، أما بالنسبة لما حققه العلم ، فما الذى يهدف العلماء من ورائه ؟ انه كان دائما يختلط بأناس أذكياء وكان والده يكن له احتراما ايجابيا ولكنه قال ذات مرة ان العلماء على الرغم من أن لهم لحظاتهم الرقيقة وشاعريتهم ورؤياهم ، فان أشدهم ذكاء يهتز على حافة الغباء راقب نفسك فى لحظة تر انك فى منتهى الفرح وفى اللحظة التالية فان مجرد كسر كوبة ماء يجعلك فى منتهى العصبية ان أى تصرف له خطره ومن الأفضل أن نبقى مع الآخرين وان كان فى منتصف الطريق ، نبقى معهم فى الأخدود العادى الذى يتمرغون فيه مهما كان مليئا بالأوحال . فعندما تكتب انتق الكلمات والألفاظ العادية وتجنب السجع والطلاقة ـ ولو أن الشعر فى الحقيقة لذيذ وأجمل النثر أكثره احتواء على الشعر

ويبدو عندئذ أننا نهدف الى بساطة ديمقراطية قد نشعر بالمتعة ونحن فى حجرتنا فى البرج العاجى بين الجدران ذات الطلاء وبين دواليب الكتب المرتبة ، بينما هناك فى حديقة الواقع ، يوجد رجل يسوى الأرض بعد أن وارى والده التراب فى الصباح ، وهذا الرجل وأمثاله هم الذين يعيشون فى عالم الواقع ويتكلمون اللغة الواقعية وفى ذلك ، بغير شك ، شىء من الحقيقة . ان الأشياء يعبر عنها بكل دقة بين صغار الناس وربما يكون هناك الكثير من الصفات الهامة منتشرة بين الأميين أكثر مما هى منتشرة بين المتعلمين ولكن نعود فنقول ما أشد دناءة الرعاع ! « مصدر الجهل ، والجور وعدم الاستقرار هل من المعقول أن تتوقف حياة الرجل العاقل على حكم المغفلين ؟ »أن عقولهم ضعيفة ، رخوة لا تقوى على المقاومة . انهم فى حاجة لأن يقال لهم ما الذى يجب عليهم أن يعلموه مما هو نافع لهم انهم لا يقوون على مواجهة الواقع كما هو والحقيقة يمكن أن تدركها الروح الكريمة المنبت ومن تكون اذن الأرواح الكريمة المنبت التى يجب علينا أن نقلدها كنا نتمنى لو أن مونتينى فسر لنا ذلك تفسيرا أكثر دقة ؟

ولكن لا ، « أنا لا أقوم بالتدريس ولكنى أتحدث » وعلى كل حال ، كيف كان يتسنى له تفسير أرواح الناس بينما هو لا يستطيع أن يذكر شيئا « بسيطا جدا ومتماسكا دون خلط أو تداخل فى كلمة واحدة » ، ولا هو بمستطيع أن يذكر شيئا عن نفسه التى أخذت — فى الواقع — تعز عليه وتزداد كل يوم غموضا ؟ وقد تكون هناك صفة واحدة أو مبدأ واحد وهو أنه لا يجوز للانسان أن يفرض القواعد فالأرواح التى يود الانسان أن يتشبه بها كروح «اتين دى لابواتى»(١) مثلا هى أكثر مرونة انه موجود ولكنه لا يحيا ذلك الذى يتعلق أو يلتزم بضرورة أن يكون بمفرده ان القوانين هى مجرد عرف غير قادر على ملاحقة تطور البشر السريع وبواعثهم المضطربة ان العادات وما تآلف الناس عليه انما هى مجرد ملاءمة قصد بها التحايل لشد أزر من جبلوا على الجبن الذين لا يجدون فى أنفسهم الجرأة ليسمحوا لأرواحهم بحرية التصرف غير مبالين بالعرف بينما نحن الذين لنا حياتنا الخاصة ونتمسك بها الى أبعد حد كأعز ما نملك لا نشك فى شىء بقدر ما نشك فى تصرف اننا نبتدر بالاعتراض مباشرة ، وباتخاذ وضع معين وبالالتزام بأحكام بذاتها ثم نفنى اننا نحيا لغيرنا وليس لأنفسنا علينا أن نحترم هؤلاء الذين يضحون بأنفسهم فى خدمة العامة ، ونخلع عليهم الشرف ثم نشفق عليهم لأنهم قبلوا — كما هو مفروض عليهم — التزاما لا يحتمل التحلل منه ، ولكن بالنسبة لأنفسنا فدعنا نضفى عليهم الشهرة والشرف وجميع المراكز التى تجعلنا ملتزمين قبل الغير ودعنا نندمج فيما يحيط بنا من عواطف لا تعد ولا تحصى نندمج فى الخلط الذى يسيطر علينا فى مزيج من البواعث ، فى معجزتنا الدائمة — وذلك لأن الروح تخرج العجائب فى كل لحظة أن الحركة والتغيير هما قوام كياننا أما الجمود فهو الموت التقليد هو الفناء ، فلننقل كل ما يرد على رءوسنا نكرر أنفسنا نناقض أنفسنا ، نتخلى عن الخزعبلات غير المنمقة ونتبع الخيالات الخرافية دون أن نلقى بالا لما يفعله العالم أو يظنه أو يقوله وذلك لأنه لا شىء يهم الا الحياة وبالطبع النظام

ان هذه الانطلاقة اذا — وهى قوام كياننا — يجب أن تنظم ولكنه من الصعب أن نرى أية قوة فدعوها لتساعدنا طالما أنه قد استهزىء بكل ما يكبح جماح الرأى الشخصى أو بالقانون العام

---

(١) Etienne de La Boétie.

أو بالعرف والتقاليد ، ولا يفتأ مونتيني يلعن دائما بؤس الطبيعة البشرية وضعفها وغرورها ربما اذاً يكون من الأفضل أن نتجه الى الدين ليرشدنا « أظن » « ربما » هذه احدى تعبيراته المفضلة « ربما » وكل هذه الكلمات التي تصور الادعاءات المتهورة ومثل هذه الكلمات تعين الانسان على اخفاء آرائه التي يكون من غير الحكمة الافصاح عنها لأن الفرد لا يفصح عن كل شيء بل ان هناك بعض الأشياء يكون من الأفضل — في الوقت الحاضر — مجرد التلميح بها لا غير ان الانسان يكتب لعدد قليل جدا من الناس هم الذين يفهمونه ومما لا شك فيه أنه يبحث عن هداية الله بشتى الوسائل ولكن في نفس الوقت هناك — لهؤلاء الذين لهم حياة خاصة — منذر آخر ورقيب غير ظاهر بداخل أنفسهم يخشى من تأنيبه أكثر من أي شيء آخر ذلك لأنه يعلم الحقيقة ، وليس هناك ما هو أكثر راحة من رنين رضائه هذا هو القاضي الذي يجب أن نخضع له هذا هو الرقيب الذي يعيننا على تحقيق ذلك النظام نعمت الروح الكريمة المنبت لأنها حياة لذيذة ، تلك التي يستتب فيها النظام حتى في حياة الفرد الخاصة » ولكنه مع ذلك سوف يتصرف في ضوئه الخاص وببعض من التوازن الداخلي سوف تتحقق الموازنة القلقة والمتغيرة التي — بينما هي تنظم — فانها لا تعوق بأي صورة من الصور حرية الروح في الاستكشاف والتجربة وبدون مرشد آخر وبدون سابقة تتمثل بها تصبح الحياة الخاصة الطيبة — بغير شك — أعز بكثير من الحياة العامة • انه فن أن يتعلم كل فرد مستقلا عن الآخرين وربما كان هناك رجلان أو ثلاثة مثل هومر والاسكندر الأكبر وايبامينونداس(١) من بين القدماء وايتين دي لابواتيه (٢) من بين المحدثين الذين يمكن أن يكونوا مثلا يحتذى بهم ولكنه فن مادته ذاتها التي يعمل فيها متغيرة معقدة غامضة للغاية انها الطبيعة البشرية وعلينا أن نبقى قريبين من الطبيعة البشرية « لابد من الحياة بين الأحياء » يجب أن نخشى كل شذوذ أو انحراف أو تهذيب يفصلنا عن أقراننا طوبى لهؤلاء الذين يتحادثون على سجيتهم ويستمتعون بحق بحديثهم مع النجارين والبستاتيين ان مهمتنا الرئيسية هي الاتصال بالناس ، مسراتنا الأساسية هي المجتمع والصداقة والقراءة لا لنحصل على المعرفة أو لنكسب لقمة

---

(١) Epaminondas.

(٢) Etienne de La Boétie.

العيش وانما لنوسع حلقة الاتصال بالناس متجاوزين زماننا ومشكلاتنا سنرى مثل هذه العجائب فى الدنيا ، كالطيور الغريبة والأراضى التى لم تكتشف بعد ، ومخلوقات ذات رءوس كلاب عيونها فى صدرها وقوانين وعادات قد تكون أرقى بكثير من قوانينا وعاداتنا ربما تكون نياما فى هذا العالم ، وقد يكون هناك مخلوقات أخرى تبدو ذات حاسة نحن فى حاجة اليها

وعلى الرغم من كل هذه المتناقضات والمؤهلات فهنا اذا أشياء بالذات هى مقالات مونتينى التى هى عبارة عن محاولات للاتصال بالروح . ففى هذه النقطة على الأقل نراه واضحا انها ليست الشهرة التى يسعى اليها ، ولم يكن همه أن ينقل الناس عنه فى السنين التالية انه لا يقيم لنفسه تمثالا فى السوق ، وانما هو يبغى أن يطلعنا على على أسرار نفسه . صلاتنا هى الصحة ، هى الحقيقة ، هى السعادة ومشاركته واجب علينا ، لكى نغور فى أعماق النفس بشجاعة ونخرج الى النور تلكم الأفكار الخفية التى هى أشد البلاء ولا نخفى منها شيئا ، ولا نتظاهر بشىء ، فاذا كنا جهلاء فلنقل ذلك ، واذا كنا نحب أصدقاءنا فلنخبرهم بذلك لأنى أعلم بتجربة أكيدة أنه ليس هناك عزاء ألطف (عندما يرحل عنا الأصدقاء) من العزاء الذى يجلبه لنا يقيننا بأننا لم ننس شيئا نقوله لهم من شأنه أن يدخل عليهم السرور وأن صلتنا بهم كانت على أحسن وجه »

وهناك من الناس من اذا سافروا تدثروا بالسكون والأوهام « وهم يحولون بين أنفسهم وبين هواء غير معروف » وعندما يأكلون فانهم لا يتناولون الا ما تعودوا على تناوله فى أوطانهم وكل منظر أو عادة فهو سىء الا اذا تشابه بمنظر أو عادة قريتهم أنهم يسافرون لكى يعودوا وهذا هو الطريق الخاطىء فى الأسفار . علينا أن نبدأ دون أن تكون لدينا فكرة ثابتة عن أين سنمضى الليلة أو عن متى سنعود ان الرحلة هى كل شىء . ان أهم شىء ، سيكون من التوفيق النادر أن نجد شخصا على شاكلتنا يرافقنا الرحلة نسر اليه بالأفكار التى تتوارد على رءوسنا ذلك لأن السعادة لا طعم لها بغير مشاركة الآخرين أما عن المخاطر ــ وهى أن نصاب بنزلات البرد أو بالصداع ــ فان الرحلة تستحق المخاطرة بمرض بسيط « أن المتعة هى رأس مال المنفعة » الى جانب هذا اذا كنا نفعل ما نشتهى ، فاننا نفعل دائما ما هو خير لنا

قد يعترض الأطبـاء والحكماء ولكن دعنا نترك الأطباء والحكماء الى فلسفتهم الكئيبة أما بالنسـبة الينا ـ نحن العـاديين ـ فلنعد شاكرين الطبيعة لطيبتها باستعمال كل حاسة من الحواس التى وهبتنا اياها ، ونغير من مراكزنا على قدر الامكان ، نتجه تارة الى هذا الجانب وتارة أخرى الى الجـانب الآخر وراء الدفء ، نتـذوق حتى الثمالة ـ وقبل فوات الأوان ـ قبلات الشباب والصوت الرخيم الذى يغنى كل فصل من فصول السنة يشابه الآخر أيام مطيرة وأيام لطيفـة نبيذ أحمر ونبيذ أبيض صـحبة ووحدة حتى النوم ـ ذلك الستار الكريه الذى يحجب عنا مباهج الحياة ـ يمكن أن يكون مليئا بالأحلام وأكثر التصرفات العادية ـ السير أو الكلام أو الوحدة فى حديقـة الشخص ـ يمكن أن تعظم وتسمو بارتباطها بالعقل ان الجمـال موجود فى كل مكان وهو على قيد أنملة من الخير ومن الطيبة . ولذلك وباسم الصحة والعقل دعنا لا نستكن وليـدهمنا الموت ونحن نزرع قوتنا أو ونحن نتنقل على ظهور الخيـل أو ونحن ندلف الى بعض الأكواخ أو ونحن على سفر ، فهذا أفضل بكثير من البقاء فى البيت انتظارا للموت ثم يذرف الخدم الدموع علينـا أو ننتظر حتى يقع أمر تافه فيقعدنا ويهزمنا وأفضل من هذا كله دع الموت يعثر علينـا ونحن فى أعمالنا العادية ونحن بين الفتيات والأصدقاء الطيبين الذين لا يعترضون أو يبكوننا دعه يعثر علينـا « من بين اللعب ، والولائم والضحكات ووسائل التسلية العـادية والشعبية بين الموسـيقى وكؤوس الحب » ويكفينا الكلام عن الموت ، ان الحيـاة هى التى تهم

ان الحياة هى التى تبزغ بوضـوح أكثر وأكثر كلما بلغت هذه المقـالات نهايتها فانمـا هى معلقة بتمامها وكمالها ان الحيـاة هى التى تستغرق ـ كلما دنا الموت ـ نفس الفرد وروحه وكل حقيقـة عن وجوده فالمرء يرتدى جوارب من الحرير صيفـا وشتاء ويخلط الماء فى نبيذه ، ويقص شعره فى المساء يجب أن يكون لديه كوب يشرب منه انه لم يضع مطلقا نظارات على عينيه ذو صـوت مرتفع يحمل معه مفتاحا فى يده لتغيير خط السير ، يعض لسانه ، قلق يحرك قدميه قادر على أن يعرك أذنه ، يحب اللحم ، يمسح أسـنانه بالفوطة (والحمد لله ان الأسنان سليمة !) يجب أن تكون لديه « ناموسية » على سريره ، والغريب نوعا ما أن يبدأ فى استطعام الفجل ثم يعزف عنه ثم يعود اليه مرة أخرى ليس هناك حقيقة تافهـة عن الانسـان نتركها تفلت من بين أصابعنا ، والى جانب الاهتمام بحقائق الحيـاة

نفسها فهناك القدرة الغريبة التى نملكها وهى التى تغير الحقائق بقـوة الخيال أنظر كيف أن الروح تلقى دائما أضواءها وظلالها وتفرغ المادة وتقلب الضعف الى مادة تمـلأ النهـار العريض بالأحلام ، وهى تنفعل بالأشباح كما تنفعل بالواقع ، وفى لحظة الوفاة تلعب بشىء تافه ، انظر الى ازدواجها والى تعقيدها انها تسمع بفقد صديق فتحزن عليه ، ومع ذلك فهى تجد سـعادة مرة ـ حلوة خبيثة فى أحزان الآخرين انها مؤمنـة وفى نفس الوقت هى كافرة لاحظ حساسيتها غير العادية للمؤثرات وخاصة فى سن الشباب . رجل غنى يسرق لأن والده قتر عليه وهو يافع وهذا الجدار يقيمه شخص لا لنفسه ولكن لأن والده كان يحب المبانى وباختصار فان الروح محاطة بشبكة رقيقة من الأعصاب والعواطف التى تؤثر فى كل تصرفاتها ، ومع ذلك حتى فى عام ١٥٨٠ لم يكن لدى أى شخص معرفة واضحة كم نحن جبناء محبين للطرق السـهلة والمعروفة ـ عن كيف تعمـل الروح أو ما هو كنهها سوى أنها دون كل الأشياء أكثرها غموضـا ونفس الانسان هى أكبر وحش وأعظم معجزة فى العالم كلما تعلمت وكلما دهشـت لتعدد صورى ، قل فهمى لذات نفسى » لاحظ ، ولاحظ دائمـا طالما يوجد مداد وقرطاس « ودون توقف وبدون كد » سـيظل مونتينى يكتب

ولكن يظل سؤال أخير نود أن نوجهه الى هذا الاسـتاذ العظيم فى فن الحياة اذا كنا مستطيعين أن نرفع رأسـه عن الانكباب على الكتابة التى استولت عليه فى هذه المجلدات غير العادية عن تقارير قصيرة وغير كاملة ، طويلة وفيها علم ، منطقية ومتناقضة سمعنا نبض الروح وايقاعها يدق يوما بعد يوم وسـنة بعد أخرى خلال القناع الذى ـ بمرور الوقت ـ يرق لدرجة تقترب من الشفافية سـؤال نوجهـه الى هذا السيد الذى خدم وطنه وعاش فى عزلة وكان مالكا وزوجا وأبا ، أدخل السرور على ملوك ، وأحب النسـاء ، وتسلى بمفرده لساعات طويلة بقراءة الكتب القديمة وعن طريق التجارب الدائبة وملاحظة مهارات الحياة نجح أخيرا فى ترتيب معجز لهـذه الأجزاء العتيدة التى تكون النفس البشرية

لقد وضع يده على جمال العالم وحقق السعادة ولقد قال لو أنه قدر له أن يعيش مرة أخرى فانه سوف يحيا نفس حياته مرة ثانية ولكن بينما نلاحظ باهتمام مسيطر منظرا يتملكنا لروح تعيش

بوضوح تحت ناظرينا فان السؤال يشكل نفسه هل السعادة هى غاية كل شىء ؟ من أين هذا الاهتمام الذى يستحوذ علينا فى طبيعة الروح ؟ لماذا توجد تلك الرغبة المسيطرة للاتصال بالغير ؟ هل جمال هذا العالم كاف ؟ أو هل هناك فى مكان آخر شىء من التفسير لهذا الغموض وأى جواب يمكن أن يكون لأى من هذه الأسئلة ؟ لا جواب وهناك فقط سؤال آخر : « ماذا أعرف ؟ »

دوقة نيوكاسل (١)

« كل ما أصبو اليه هو الشهرة »

هكذا كتبت مارجريت كافنديش دوقة نيوكاسل وقد تحققت لها تلك الأمنية أثناء حياتها لقد كانت متبهرجة فى لباسها شاذة فى عاداتها نقية طاهرة فى سلوكها وكان صوتها أجش خشنا ولقد نجحت أثناء حياتها فى أن تجلب على نفسها سخرية العظماء وتصفيق المثقفين ولكن خبا الآن آخر أصداء ذلك الضجيج وتلاشى ولذا فهى تعيش فقط من بين تلك العبارات السامية التى كتبها لامب (٢) » على قبرها كل أشعارها ومسرحياتها وفلسفاتها ومقالاتها وأحاديثها وكل تلك الصفحات والقراطيس التى عليها سطرت حياتها الواقعية فأبقت على حياتها كل ذلك قد تعفن فى كآبة المكتبات العامة أو تركز داخل قنينات صغيرة لا تتسع لأكثر من ست قطرات لغزارة مادتها وحتى طالب العلم الشغوف الملهم بعبارات « لامب » يطير قاطعا مسافات طوالا الى ضريح كتبها ثم يدلف من الباب ولكن سرعان ما يرتد مهرولا ويقفل الباب من ورائه

ولكن فهذه النظرة السريعة قد أظهرت له معالم شخصية لا تنسى. ويقال انها ولدت فى عام ١٦٢٤ وهى أصغر أبناء رجل يدعى توماس لوكاس توفى وهى ما زالت فى المهد وكانت نشأتها على يدى أمها

---

(١) كتبت المؤلفة مقالها هذا بمناسبة نشر «حياة ويليام كافنديش» تأليف س.هـ. فيرث ، وكذا نشر «أشعار وخيالات» لدوقة نيوكاسل ، خليط العالم ومقالات على مختلف الصور منسوبة لاماكن مختلفة ؛ وخطابات امرأة ؛ ومسرحيات ؛ وخطابات فلسفية ، الخ ، الخ وهى بذلك تتعرض لصورة من صور ذلك العصر عام ١٦٢٤

The Life of William Cavendish, Duke of Newcastle, Ebc., edited by C.H. Firth; Poems and Fancies, by the Duchess of Newcastle, The Worled Olio, Orations of direrş Sorts Accomodated to Divers Places; Female Orations; philosophical Letters, etc. etc.,

(٢) Lamb.

وهى سيدة ذات شخصية متميزة وذات عظمة وجلال ، وجمال « لا تصل اليه يد الزمن » كانت تلك الأم غاية فى المهارة فيما يتعلق بالايجارات وادارة الأراضى والالتجاء الى المحاكم وكانت تحسن تشغيل « الخولى » وما شابه ذلك من أعمال » وهكذا نمت ثروتها ولكنها لم تنفقها صداقا للزواج وانما أنفقتها فى مسرات باذخة وبهجة ، « عن ايمان بأنها اذا أنشأتنا على الضروريات الملحة فقد تخلق فينا صفات شرسة وهى لم تضرب أحدا من أولادها الثمانية ولكنها تعلقت بهم وكانوا ذوى هندام رقيق مرح ، ولم يسمح لهم مطلقا بمحادثة الخدم لا لأنهم خدم ولكن لأن الخدم « عامة على خلق سىء ووضيعو الميلاد » « لقد لقنت البنات التعاليم العادية » من أجل الرسميات لا من أجل المنفعة ، « لأنه كان من رأى أمهن أن الشخصية والسعادة والأمانة أهم للمرأة من عزف الموسيقى أو الغناء أو « الثرثرة بلغات متعددة »

لقد كانت مارجريت شغوفة بأن تستغل هذا الانهماك فى التعليم لتشبع أذواقا معينة فى نفسها فهى تفضل القراءة على أشغال الابرة، تعشق اللبس « وتجديد أزياء ملابسها » أكثر من القراءة ، وتفضل الكتابة أكثر من هذا كله فلقد كتبت ست عشرة كراسة بغير عنوان بخط ردىء ، وذلك لأن ثورة أفكارها كانت تسبق أصابعها دائما ، وهذه الكراسات تشهد بمدى استفادتها من تحرر والدتها آن السعادة المنزلية كذلك كانت لها نتائج أخرى اذ كانت عائلة وفية ولقد كتبت مارجريت بعد أن تزوج أخواتها بمدة طويلة قالت هؤلاء الاخوة والأخوات الوسيمون ، جعلتهم أجسامهم المتناسقة وبشرتهم الصافية وشعرهم الكستنى وأسنانهم السليمة « والصوت الرخيم » وطريقة حديثهم الواضحة جعلتهم يعيشون كالطيور المتآلفة . ان وجود الغرباء يسكتهم ولكن عندما يصبحون بمفردهم ، سواء كانوا يتجولون فى سبرنج جاردن أوفى هايد بارك ، أو يستمعون الى الموسيقى أو يتناولون عشاءهم فى القوارب على صفحة الماء تنطلق ألسنتهم « ويمرحون فيما بينهم مرحا لا حد له ، يصرحون بآرائهم ويندون أو يوافقون ، أو يعلقون كما يحلو لهم »

كان لهذه الحياة العائلية السعيدة أثرها فى شخصية مارجريت. فكانت وهى طفلة ـ تسير ساعات طوالا تتأمل وتفكر وتتعقل « كل شىء تدركه حواسها » ـ لا تجد أية متعة فى أى نشاط من أى نوع

لا تسعدها العرائس ولا تستطيع أن تتعلم اللغات الأجنبية ولا تلبس كما يلبس الآخرون . تجد أعظم سعادتها فى أن تصمم ملابسها ولا يقلدها فيها أحد ، وذلك ــ كما أشارت ــ « لأنى أجد لذة فى التفرد بالشىء ، حتى فيما أزود به نفسى من عادات »

مثل هذا التدريب المقيد الطليق كان يجب أن يربى عانسا متعلمة فرحة بعزلتها كاتبة لمجلد من الخطابات أو التراجم الكلاسيكية التى لم نزل نقتبس منها دليلا على الطريقة التى أنشئت عليها جداتنا . ولكن هناك عرقا متمردا فى مارجريت ، هو حب للرقة والبذخ والشهرة، يغير نظام ترتيب الطبيعة دائما فعندما سمعت بأن الملكة ــ منذ بدء الحرب الأهلية ــ كانت تستعين بوصيفات الشرف ، سمحت لها أمها بالذهاب الى البلاط على غير موافقة بقية أفراد العائلة ، الذين يعلمون أنها لم تبتعد عن البيت ولم تغب عن نظر باقى العائلة ــ والذين اعتقدوا اعتقادا راسخا أنها سوف تسىء التصرف فى البلاط الملكى « وانى أعترف فعلا انى فعلت ذلك » هكذا اعترفت مارجريت ، « اذ كنت خجولة جدا عندما بعدت عن نظر أمى واخوتى وأخواتى حتى انى لم أكن لأجرؤ على أن أرفع عينى ولا أن أتكلم ولا أن أكون اجتماعية على أية صورة من الصور ومن أجل هذا اعتبرونى غبية بالطبيعة » لقد ضحك منها رجال البلاط ، وعاملتهم بالمثل ان الناس مغرمون بالنقد ، فالرجال غيورون من ذكائها والنساء يتشككن فى ذكاء جنسهن ، وأى امرأة أخرى كانت تفكر فى طبيعة المادة وهى تتجول فى الحديقة ، وهل للقوقعة أسنان ؟ لقد ضايقها الاستهزاء بالفعل حتى رجبت أمها بأن تترك البلاط وتعود الى البيت ولما رفض هذا الطلب ــ وقد أثبتت الأيام أن ذلك كان من الحكمة ــ استمرت فى البلاط لمدة سنتين (١٦٤٣ ــ ١٦٤٥) وفى النهاية صاحبت الملكة الى باريس وكان من بين المنفيين الذين حضروا لرفع آيات الولاء للملكة الماركيز نيوكاسل . وللدهشة التى عمت الجميع فان الأمير النبيل الذى قاد قوات الملك بشجاعة لا تبارى وبمهارة نادرة وقع فى حب وصيفة الشرف الخجول الصامتة الغريبة الملبس ولم يكن « الحب غراما ولكن كان حبا أمينا شريفا » كما قالت مارجريت ولم تكن صفقة مربحة ، فلقد عرف عنها الحذر والشذوذ . فما الذى ألقى اذا مثل هذا الرجل العظيم النبيل تحت قدميها ؟ لقد كان المحيطون بها مفعمين بالسخرية والاحتقار والوشاية فكتبت مارجريت للمركيز تقول « انى أخشى ما تنبأ به الآخرون بسوء طالعنا ، على الرغم من

أننا لا نراه كذلك بأنفسنا ، أو انه لن يكون هناك عذاب وألم عندما نحل عقدة حبنا » ومرة أخرى « ان سانت جيرمان مرتع خصب للوشاية ويظنون أنى أبلغك بالكثير من الأنباء » ثم حذرته أرجـو أن تراعى أن لى أعداء » لقد كان التوافق بينهما صحيحا فالمركيز — بحبه للشعر والموسيقى وكتابة المسرحيات ، واهتمامه بالفلسفة وايمانه بأنه « لا يوجد انسان يدرك أو يمكنه أن يدرك سبب أى شيء » — كان طبيعيا أن تتجه عاطفته ومزاجه الجياش نحو امرأة تقرض الشعر بنفسها ، وهى مع ذلك فيلسوفة من نفس طراز تفكيره ومع ذلك فقد أمطرته لا بفيض من اعجاب زميل فنان ، ولكن بامتنان المخلوقة المرهفة التى ضمها الى كتفه وأغاثها بنخوة عارمة فكتبت « انه قد قبل تلك المخاوف المخزية التى ندد بها فى الكثيرون ، وعلى الرغم من فزعى من الزواج وتحاشى صحبة الرجال بقدر ما وسعت طاقتى ومع ذلك فانى لم أجد القوة لكي أرفضه » رافقته خلال سنين المنفى الطوال ، ودخلت مشفقة — وان لم يكن عن ادراك — فى سلوك تلك الخيول ومكتسباتها التى دربها على درجة من الكمال حتى أن الأسبانين أشاروا بعلامة الصليب وصاحوا « معجزة » وهم يشاهدون قفزات التدريب وخاناته ورقص الخيول لقد آمنت أن الخيول تضرب الأرض بحوافرها لتعبر عن فرحها عندما كان زوجها يدخل الاسطبل، ثم سعت للعفو عنه فى انجلترا ابان الحماية ، وعندما جعل عهد الاصلاح عودتهما الى انجلترا ممكنة ، عاشا فى قلب الريف فى عزلة تامة ورضا كامل ، تكتب مسرحيات بغير عناء وقصائد ، وفلسفات ، ويمجد كل منهما الآخر فى سعادة وهيام ، ويتسامران فى بدائع العالم الطبيعية التى ساقتها اليهما الصدف وكانا محطا لسخرية معاصريهما ، فاستهزأ منهما هوريس وولبول(١) ولكن مما لا شك فيه أنهما كانا فى أتم سعادة

وعلى ذلك يمكن أن تستمر مارجريت فى كتاباتها لا يقطع عليها خلوتها أحد وفى امكانها تصميم أزياء لنفسها ولخدمها وفى امكانها كذلك أن تسترسل فى كتاباتها باندفاع متزايد وبأصابع تثقل قدرتها يوما بعد يوم على رسم حروف مقروءة وفى استطاعتها أن تحقق المعجزة حتى فى جعل مسرحياتها تمثل فى لندن وأن يتبع رجال متعلمون فلسفاتها بكل تواضع وهناك فى المتحف البريطانى يقبع مجلد تلو

---

(١) Horace Walpole.

مجلد مكتظ بحيوية مسهبة غير سهلة ثقيلة ان النظام والاستمرار والتطور المنطقى للمناقشة كل أولئك لا تدرى من أمرها شيئا فلا مخاوف تعوقها أو تقف فى سبيلها انها لا تتحمل المسئولية كالأطفال وفى نفس الوقت تتمتع بعجرفة الدوقة ان الخيالات غير المشذبة ترد على خاطرها فتهرول على ظهورها ويخيل الينا أننا نسمعها وهى تصبح — عندما تفور الأفكار وتغلى — منادية على جون ، الذى يجلس والقلم فى يده فى الحجرة المجاورة ليهرع اليها « جون جون ، انى وجدتها ! » وهكذا تسترسل فى كتابة أى شىء أيا كان ، معقولا كان أم غير معقول ، بعضا من الأفكار عن تعليم النساء . « ان النساء يعشن كالخفافيش أو البوم ، يكدحن كالحيوانات ، ويمتن كالديدان ، ان أحسن النساء نشأة هن اللاتى كن ذوات عقول ورقة » ، بعض تأملات خطرت على بالها ، ربما وهى تسير وحدها ذات مساء — « لماذا تصاب الخنازير بالحصبة » ، « لماذا تهز الكلاب ذيولها عند الفرح » ، أو مم صنعت النجوم ، أو ماهية الشرنقة ، التى أحضرتها اليها خادمتها وهل تجد الدفء فى ركن شرنقتها وهكذا من موضوع الى موضوع ، تحلق ولا تتوقف على الاطلاق لتصحيح أى فكرة أو أى موضوع ، « ذلك لأن السعادة كل السعادة فى الخلق لا فى الاصلاح » تتحدث مع نفسها بصوت مرتفع عن كل هذه الأمور التى تملأ فكرها والتى تحقق لها السلوى الدائمة . عن الحروب ، عن المدارس الداخلية عن قطع الأشجار ، عن قواعد اللغة والآداب العامة ، عن الغرائب وعن البريطانيين ، وهل الأفيون فى مقادير صغيرة فيه نفع للمجانين ، لماذا يصبح الموسيقيون مجانين ثم تنظر الى أعلى فتتأمل بالحاح فى طبيعة القمر وهل النجوم هلام براق ، ثم تنظر الى أسفل وتعجب هل الأسماك تدرك أن البحر ملح أجاج مزاعم بأن رءوسنا ملأى بالجنيات أعزة عند الله كما نحن » تتأمل هل هناك عوالم أخرى غير عالمنا وتفكر بأن السفينة القادمة سوف تحمل الينا أنباء عن عالم جديد . وباختصار « نحن فى ظلام دامس » وفى نفس الوقت ، اى هيام يكون الفكر

ولما خرجت الكتب الضخمة من عزلتها الأرستقراطية فى وليبك(١) أبدى الرقباء العاديون الاعتراضات المألوفة ، فكان عليها اما أن تجيب عليها واما أن تزدردها أو تتناقش فيها معهم ، طبقا لما يستقر عليه مزاجها فى مقدمة لكل عمل قالوا — فيما قالوا — ان كتبها ليست من

---

(١) Welbeck.

انتاجها وذلك لأنها تستعمل تعبيرات المثقفين و « كتبت عن أمور متعددة لم تحط بها علما » انها لتهرع الى زوجها تسأله المعونة ، وهو يجيبها خاصة وأن الدوقة « لم تناقش أى طالب علم معترف به فى دراسته الا أخاها وأنا » ودراسة الدوق ـ فضلا عن ذلك ـ كانت من طبيعة غريبة ـ « لقد عشت فى العالم الكبير حقبة طويلة ، وفكرت فيما ورد على فكرى عن طريق حواسى أكثر مما ألقى الى به من محاضرات دراسية ، ذلك لأنى لا أحب أن أسحب من أنفى بمعرفة المسئولين أو المؤلفين العجائز ، ان « أبجد هوز » الأبجدية لن تخدم أغراضى » وعندئذ تمسك بالقلم وتستمر فى لجاجة وعدم ترو ساذج ، لتؤكد للعالم أنجهلها أكثر رقة مما يمكن تصوره . أنها رأت فقط دىكارتس(١) وهوبس (٢) ولم تسألهما عن شىء ، انها حقا دعت مستر هوبس الى الغداء ولكنه لم يحضر ، وهى عادة لا تنصت الى ما يقال لها من كلام ، انها لا تعرف أية كلمة فرنسية على الرغم من أنها عاشت فى الخارج خمس سنوات ، انها قرأت فقط عن الفلاسفة القدامى فى تقرير لمستر ستانلى عنهم ، أما بالنسبة « لدىكارتس » فلم تقرأ سوى نصف أعماله عن العاطفة ، وبالنسبة « لهوبس » فلقد قرأت الكتاب الصغير المسمى « الكرات » (٣) ، ليس غير وكله عن أمور تتلاءم مع ذكائها الفطرى ، الوفير لدرجة أن أى مساعدة علمية خارجية فيها ايلام لها أنها أمينة جدا لدرجة أنها لا تقبل معونة من الغير وبناء على صراحتها المبنية على الجهل المطبق وتبعا لأرض ادراكها التى لم تفلح لتصبح صالحة للزراعة ، اقترحت اقامة نظام فلسفى يبز فلسفة الآخرين والنتائج لم تكن فى مجموعها سعيدة وتحت ضغط مثل هذا التكوين الفذ ـ وهو هبتها الطبيعية ـ وخيالها الرقيق المتجدد الذى قادها فى أول مجلد لها لتكتب برشاقة عن الملكة ماب وأرض الجان ، سحق كيانها من الوجود

وقصر الملكة حيث تقيم
لبناته مزجت من الأصداف
وقوس معلق رفيع من القزح
يبهر الأنظار لأول من يلج

---

(١) Des Cartes.
(٢) Hobbes.
(٣) De Cive.

غرفاته أقيمت من الكهرمان المصفى
يتضوع أريجه اذا قربت منه نار
ومضجعها من نوى الكريز محفور
وعلى جناحى فراشة فهو معلق
ومن جلد حبات عيون الحمام مفروش
ومن براعم البنفسج ملئت وسائده

هكذا كانت تكتب عندما كانت صغيرة ولو كانت جنياتها على قيد الحياة لتحولت الى فرس البحر وقد لبيت رغباتها بسخاء

امنحنى الانطلاقة فى الأسلوب والنبل
حتى ليبدو جامحا وان كان طائشا

ثم أصبحت غير قادرة على الغزارة فى الانتاج والالتواء والغرور ومن بين هذا الانتاج القطعة التالية وهى ـ وان كانت من قصار القطع ـ فانها ليست أكثرها ترويعا

والرأس البشرية كالمدينة فى التشبيه
الفم الملء فيها كيوم أقيم فيه السوق
واذا خلا فالسوق بعد انفضاضه
وحركة المدينة كمجرى المياه عليه صنبوران
فكأنها الأنف وفيها الطاقتان

ان تشبيهاتها فيها دائما نشاط وتباين ، فالبحر يصبح مرجا والبحارة رعاة ، وصارى السفينة كعمود الحصاد(١) • الذباب طيور الصيف والأشجار هم أعضاء مجلس الشيوخ ، والبيوت سفن ، وحتى الجنيات التى تحبها أكثر من أى شىء على الأرض فيما عدا الدوق تحولت الى ذرات باردة وذرات حادة وهن يأخذن دورهن فى مناورات يسعدها أن تسير بها العالم• وفى الواقع « سيدتى التى لا مثيل لها كانت تتمتع بذكاء غريب • وأسوأ من ذلك فانها تحولت ـ وبغير أى قدرة من قدرات الفن المسرحى ـ تحولت الى كتابة المسرحيات لقد كانت عملية مبسطة فالأفكار التى تنوء بها

---

(١) Maypole

والتى تحولت وانقلبت فى داخليتها شخصيات سمتهـا مثل السـير الغنى الذهبى(١) ومول الوضيعة التربية(٢) وسـير الكلب الصغير(٣) والآخرين ، وجعلت تلك الشخصيات تحاور بعضها البعض محاورات مملة عن أجزاء الروح وعما اذا كانت الفضيلة أحسن من الغنى ومحاورات حول سيدة ذكية متعلمة تصحح مغالطاتهم فى اسهاب بأصوات تبدو وكأننا سمعناها من قبل

وأحيانا - وعلى كل حال - كانت الدوقة تمشى خارج الأسـوار فى شخصيتها الطبيعية وتتزين بألف من الأحجار الكريمة فى زينة متبهرجة لكى تزور منازل جيرانها من الأعيان ٠ووضع قلمها تقارير فى حينها عن تلك الزيارات وسجلت كيف أن السيدة س٠ ر٠ « قد ضربت زوجها فى مجتمع عام » ٠ سيدى ف٠ أ٠ « انى آسفة أن أسمع أنه حط من قيمة نفسه أقل من مولده وثرائه بزواجه من خادمة مطبخـه » « الآنسة ب٠ ى٠ أصبحت روحا مقدسة أختا روحية ، أهملت تصفيف شعرها أقلعت عن زخرفة ملابسها (بالكلف) ، والأحذية ذات الدنتيل هى خطوات للكبرياء وسألتنى أى وضع أعتقد أنه أفضل للصـلاة » وربما كان جوابها غير مقبول اننى لن أذهب الى هناك مرة ثانية » هـكذا قالت وهى تثرثر بالحديث ٠ انها ليست - كما يمكن أن نقول - ضيفا مرغوبا فيه ولا كانت مضيفة كريمة كانت لها طريقة « فى التفاخر بنفسها » أزعجت الزوار ولذا هجروها ، ولم تكن آسفة وهى تراهم يذهبون ٠ وفى الحقيقة «ويلبك» كان أفضل مكان لها وأحسن رفيق لها هو مصاحبة نفسها مـع الدوق المحبوب يتجول فى الداخل وفى الخارج يحمل مسرحياته وتأملاته ، اذ كان دائما على استعداد ليجيب على سؤال أو يفند وشاية ربما تلك الوحدة هى التى قادتها - وخاصة أنها كانت طاهرة فى سلوكها - لأن تسـتعمل لغة بمرور الوقت - أقلقت سيراجيرتون بريدجز »(٤) كثـيرا شكا من أنها استعملت « تعبيرات وصورا بخشونة وفظاظة غير عادية خاصة أنها صادرة من امرأة ذات مركز رفيع نشأت فى البلاط » ونسى أن هـذه الأنثى بالذات أقلعت عن التردد على البلاط منذ زمن بعيـد ، وأن أغلب اتصالها كان بالجنيات ، وأصدقاؤها كانوا من الأموات ، فطبيعى أن تكون لغتها فظة خشنة وعلى الرغم من أن فلسفتها كانت تافهة ، ومسرحياتها

---

(١) Sir Golden Riches.

(٢) Moll Mean bred.

(٣) Sir Puppy Dogman.

(٤) Sir Egerton Brydges.

كانت غير محتملة ، وأغلب شعرها كان كئيبا ، وأوسع مجموعة صدرت من الدوقة تخمرت فى نار حقيقية ـ فالمرء لا يملك الا أن يتتبع اغراء شخصيتها الضالة المحبوبة كما تعرج وتلمع فى الصفحة بعد الصفحة هناك شيء نبيل فيه نكران للذات وروحانية ، الى جانب عقل مفكك وأحلام العصافير بساطتها واضحة ، ذكاؤها نشط جدا ، اشفاقها على الجنيات والحيوانات صادق رقيق، لها وسوسة الجنية ، ومسئولية مخلوق غير انساني ، هي وان كانت لا قلب لها الا أنها جذابة وعلى الرغم من « أنهم » أى هؤلاء النقاد غير المحتملين الذين استهزءوا بها وسخروا منها منذ كانت فتاة خجولا فانها لم تجرؤ على أن تنظر فى وجه معذبيها فى البلاط واستمروا يسخرون منها وقليل من نقادها بعد كل ذلك هم الذين لديهم من الذكاء ما يجعلهم يهتمون بطبيعة الكون ، أو يهتمون بآلام الحيوانات أقل اهتمام ، أو يتوقون كما تاقت هي لتتحدث مع « المغفلين فى مسرحيات شيكسبير » والآن وعلى أى حال لم يكن الضحك دائما فى صفهم ولكنهم ضحكوا فعلا فعندما انتشرت الاشاعة أن الدوقة المجنونة ستحضر من « ويلبك » لترفع ولاءها للبلاط تجمهر الناس فى الطرقات لينظروا اليها وفضول مستر بيبس(١) دفعه مرتين الى الحديقة ليراها وهي تمر • وكان ضغط الزحام حول عربتها شديدا جدا ولذا لم يتمكن الا من نظرة سريعة وهي فى عربتها المفضضة ومن حولها السياس فى ملابسهم من القطيفة وهي تضع قبعة من القطيفة على رأسها وشعرها منسدل على أذنيها ورأى فى لحظات من بين الستائر البيضاء « وجه امرأة جميلة جدا » وتقدمت بين المتزاحمين المشدوهين من العامة يتدافعون لينعموا بنظرة من تلك المرأة الحالمة ، التى تقف فى صورتها فى « ويلبك » بعينين واسعتين يملؤهما الحزن ، وشيء صعب ارضاؤه وخيالى فى مقامها تريح أطراف أناملها الدقاق الطوال على منضدة فى اصرار هادىء على شهرة أبدية

---

(١) Mr. Pepys.

جولة حول ايفيلين (١)

اذا أردت أن تكون على يقين من أنه سيحتفل بعيــــد ميلادك بعد ثلاثمائة عام من الآن ، فان الطريقة المثلى لتحقيق ذلك هى بغير شــك أن تكتب يومياتك ، فما عليــك الا أن تكون متأكدا من توافر الشجاعة لأن تغلق عبقريتك فى كتاب خاص ومن المهازل أن الشهرة التى ترنو اليها لن تتحقق لك الا بعد الوفاة وذلك لأن كاتب اليوميات الأصيل اما أنه يكتب لنفسه وحدها واما أنه يكتب الى خلف بلغ من البعد درجة تجعله يطلع على كل سر دون حرج • وأن يكون هذا الخلف منصفا مقدرا الدوافع• وعلى ذلك فليس هناك حاجة اذا الى التصنع ولا الى الالتزام عند الكتابة لمثل هذا الجمهور الاخـــلاص هو كل ما تتطلبــــه المذكرات الى جانب التفاصيل وغزارة المعلومات ، ان المهارة فى الكتابة هى المناســـبة فى هذا المقام بينما التأنق غير مطلوب بل قد تصبح العبقرية عائقا ؛ واذا كنت تعرف واجبك وتؤديه فى رجولة فان الخلف سيجعلك تندمج مع الرجال العظام وكأنك كنت تقدم تقريرا عن الأمور الهامة أو سيضعك مع السيدات الاوائل على الأرض اللائى كان له معهن أمور

ان اليوميات التى من أجلها نحتفل بالعيد المئوى الثالث لميلاد جون ايفيلين هى فى ذاتها قضية تشهد بذلك انها تكون أحيانا على صورة مذكرات وأحيانا أخرى مقيدة كأنها تقويم ولكنه لم يستعمل مطلقـــا صفحاتها ليزيح الستار عن أسرار قلبه وكل ما كتبه من الممكن قراءته بصوت مرتفع وبضمير مرتاح عند الأمسيات لأطفاله واذا كنا نعجب لماذا

(١) فى هذا المقال تعطينا فرجينيا وولف صورة للرجل الريفى الاصيل فى عصر اليزابيث ، فى حياته الاجتماعية والفكرية ثم تعقد مقارنة بين معايير السعادة فى ذلك العصر وبين معاييرها فى عصرنا وقد اتخذت مذكرات ايفيلين اليومية وسيلة الى ذلك (المترجمة)

نتكلف مشقة القراءة لعمل غير ملهم لرجل طيب يجب أن نعترف أولا بأن اليوميات هى دائما يوميات ، هى الكتب التي نقرؤها فى دور النقاهة أو على ظهر حصان ، أو ونحن فى قبضة الموت ؛ وثانيا ان هذه القراءة التى قيل عنهـا أشياء كثيرة رقيقة هى فى أغلب الأحيـان مجرد أحلام واسترخاء ، ونحن مستلقون على مقعد ومعنا الكتاب، ونحن نرقب الفراشات على زهور الداليا فهى عمل لا طائل تحته حتى أن ناقدا واحدا لم يتحمل مشقة التحقق مما تحتويه ولن يجد المشتغل بالأخلاقيات سـوى كلمة طيبة تقال عن هذا العمل ذلك انه سيجعل منه عملا بريئا ؛ وسـوف يضيف أن السعادة ولو انها تنبع من مصادر تافهة فقد تكون سببا فى منع الناس من تغيير أديانهم أو قتل ملوكهم وبذلك تكون أقوى وأمضى من الفلسفة أو من منبر الوعظ

من الممكن جدا - وفى الواقـع وقبـل أن نقرأ الكثير من مذكرات ايفيلين - أن نحدد أين تفترق نظرتنا للسعادة عن نظرة الناس فى عصر اليزابيث وبكل تأكيد فان الجهـل هو أساس كل شىء جهلهم هم وسعة اطلاعنا بالنسبة اليهم ما من أحد يقرأ حكاية ايفيلين عن أسفاره الأجنبية دون ان يحسده فى المقام الأول على بساطة عقله وفى المقام الثـانى على نشاطه ولنأخذ مثلا بسيطا عن الاختلاف بيننا وبينهم ، ان الفراشة تظل بلا حراك على زهرة الداليا رغم أن البستانى يدفع أمامه العربة الصغيرة التى تقص الحشيش ولكن دعه يضرب جناحى الفراشة بظل الجرافة فانها تنطلق طائرة فى نفس اللحظة وكأنها كانت على أهبة الاسـتعداد • وعلى ذلك نظن أن الفراشة ترى ولا تسمع وهنا بغـير شـك نتساوى مع ايفيلين - ولكن عنـدما يقتحم المنزل ليحضر سكينا وبهذا السكين يشرح رأس الفراشة كما فعل ايفيلين ، فانه لايوجد رجل عاقل فى القرن العشرين يمكن أن يستهويه مثل هذا الموضوع ولو للحظة من الزمن ويمكن أن يكون ادراك كل منا كفرد متساويا فى قلته مع ادراك ايفيلين ، ولكن ككل فاننا نعرف الكثير جدا لدرجة أن يتضاءل الحافز على المغامرات لاكتشاف خاص لا يفيد المجموع نحن الآن نلجأ الى دائرة المعارف لنحصل منها على ما نريد من معلومات لا كما كان يلجأ الانسان فى عصر ايفيلين الى المقص ليقص به المعلومات التى تنشر فى الجرائد والمجلات يجمعها ليرجع اليها عند الحاجة ؛ وأصبحنا بذلك نحصل فى دقيقتين لا على كل ما كان يجمعه ايفيلين فى حياته بأكملها فحسب بل على معلومات بلغت من الغزارة حدا لا نفكر معه مطلقا فى أن نحتفظ بأية قصاصة من القصاصات عن أى موضوع لقد كان جاهلا ومع ذلك كان على ثقـة بأنه يمكنه أن يزيد بيديه لا من

معلوماته الخاصة فحسب وانما من معلومات الجنس البشرى ، فقد اندمج فى كل الفنون والعلوم ، وجاب القارة (أوروبا) لمدة عشر سنوات، يحملق ـ فى شغف لايمل ـ فى النساء ذوات الشعور المرسلة ومعهن الكلاب المدللة، وجمع نتائج وحدد معالم التأملات التى توازى الآن الاستماع الى ثرثرة العجائز وهن حول مضخة المياه فى القرية وهن يقلن ان القمر أكبر حجمـــا من المعتاد فى هذا الخريف ولذا فلن ينمو نبات عش الغراب ، وزوجة النجار سوف تلد توأمين ولهذا يلاحظ ايفيلين ـ زميل الجمعية الملكية ورجل من خيرة المثقفين النبهاء ـ يلاحظ بعناية المذنبات وكل ما يثير المتطير ويعتقد أن ظهور الحوت فى نهر التيمز فأل شؤم ففى عام ١٦٥٨ شوهد حوت وفى هذا العام مات كروموبل » • ويبدو أن الطبيعة كانت قد أصرت على ان تنبه هؤلاء المتطيرين خلال القرن السابع عشر وتزيدهم ايمانا بخرافاتهم فأظهرت العنف والانحراف اللذين أقلعت عنهما الآن فثـــارت العواصف وارتفعت الفيضانات واشتدت التيارات وتجمد التيمز وسطعت النيازك والمذنبات فى السماء واذا ولدت القطة فى فراش ايفيلين فان كل واحدة من القطيطات الصغيرات تكون ذات ثمـــانى أرجل وست آذان وجسمين وذيلين هكذا كانت معتقداتهم

واذا ما رجعنا الى موضوع السعادة فانه يبدو أحيانا أن هناك اختلافا لامفر منه بين أسلافنا وبيننا،وهذا الاختلاف هو أننا نستمدسعادتنا من مصادر تختلف عن مصادرهم اننا نقوم نفس الأشياء بمعايير مختلفة• وقد يرجع بعض ذلك الى جهلهم من ناحية والى علمنا من ناحية أخرى ولكن هل علينا أن نفترض أن الجهل يغير من الاحساس والعواطف ؟ وهل علينا أن نؤمن بأنه كان من الممكن أن يصبح عذابا غير محتمل أن نعيش فى مودة وألفة مع النـــاس فى عصر اليزابيث ؟ وهل كنا نجـد انه من الضرورى أن نبرح الغرفة بســـبب عادات شيكسبير ؟ وأن نرفض دعوة الملكة اليزابيث للغداء ؟ ربما كان كذلك لأن ايفيلين وهو الرجل المتزن ذو الرقة غير العادية ، كان يهرع الى غرفة التعذيب ليشاهد هذا التعذيب تماما كما نتزاحم نحن لنرى الأسود فى حدائق الحيوان واللحم يلقى اليها

« فهم يقيدون معصميه أولا بحبل متين او بســلك ثم يربطون نهايته الأخرى فى حلقة مثبتة فى الحائط على ارتفاع نحو أربع أقدام من الأرض ثم يقيدون قدميه بسلك آخر ويثبتونه فى الارض على مسافة خمس أقدام أبعد من نهـاية

طول الرجل » وهكذا يصبح الرجل معلقا فى وضع مائل ويضعون حصانا خشبيا تحت الحبل الذى يربط قدميه وهذا ليشد الرجل لمسافة أطول وهكذا تتمزق أوصال الرجل وبعد ذلك يفك وثاقه ويصبح فى حالة من البؤس ويجرونه وقد تمدد طوله ولا يغطى جسده العارى سوى قطعتين من التيل

وهكذا يشهد ايفيلين هذا المنظر حتى النهاية ثم يعلق على ذلك بقوله « ان المنظر كان غير مريح لدرجة أننى لم أستطع أن أبقى لمشاهدة غيره » كما نقول ان الأسود كانت تزأر بشدة ومنظر اللحم النىء غير سار لدرجة أن نهرع بعيدا لنشاهد طائر البطريق وبغض النظر عن عدم راحته فان هناك مفارقات كثيرة بين نظرته هو نحو الألم ونظرتنا نحن تجعلنا نعجب ونتساءل هل نرى أى واقعة بنفس نظرتهم وهل كنا نتزوج أية امرأة لنفس الدوافع ، أو أن نحكم على أى سلوك بنفس المعايير - كأن نجلس فى جمود عندما تتمزق عضلات وتتكسر عظام دون أن نجفل وذلك عندما يزداد ارتفاع الحصان الخشبى ويحضر الجلاد قرنا (كان يستعمل قرن الحيوان كوعاء فى ذلك الوقت) ويصب به فى جوف الرجل دلوين من الماء ليعذب ذلك المظلوم لمجرد أنه اشتبه فيه فى جريمة نشل أنكرها الرجل كل هذا يبدو وكأنه وضع ايفيلين فى قفص من هذه الأقفاص حيث تعزل رعاع هوايت شابيل عقليا انه واضح أننا فهمنا تلك العقلية بطريقة خاطئة واذا كنا نقدر أن نتمسك بأن احساسنا بالتعذيب وحبنا للعدل والانصاف كانا برهانا على أن غرائزنا البشرية قد تطورت تطورا راقيا ، فعندئذ يمكننا القول بأن العالم يتقدم ونحن معه. ولكن دعنا الآن نسير مع اليوميات .

فى عام ١٦٥٢ ، عندما بدا أن الأمور قد استقرت بشكل غير مرض ، كل شىء فى يدى الثوار تماما » ، عاد ايفيلين الى انجلترا مع زوجته ولوحاته القديمة وبللور فينسيا وبقية تحفه ، ليحيا حياة الرجل الريفى المؤمن بالملكية فى دبتفورد (١) يذهب الى الكنيسة ويزور المدينة ويراجع حساباته ويفلح حديقته « لقد زرعت الحديقة فى سايز كورت عندما حل الشهر الجديد والريح شرقية » . لقد كان وقته مشغولا كوقتنا. ولكن مع فارق واحد يصعب تصويره من مجرد فقرة واحدة نقتبسها

---

(١) Deptford.

ذلك لأن البرهان متناثر فى عبارات قليلة المغزى ان المغزى العام لها أنه يستعمل عينيه ان العالم المرئى كان قريبا دائما منه بينما تراجع العالم المرئى بعيدا عنا لكى نسمع كل هذا الحديث عن المبانى والحدائق والتماثيل والنحت كما لو كان مرأى الأشياء يقابل المرء خارج المنزل كما يقابله فى عقر داره ، ولم يضق ذرعا بلوحات قليلة معلقة على الحائط وهى لوحات تبدو غريبة

مما لا شك فيه أن لنا آلافا من الأعذار فيما بيننا من خلاف ولكن هنا كنا نحاول أن نحدد له اعذارا وحيثما توجد لوحة يمكن رؤيتها لجوليورومانو (١) أو بوليدور (٢) أو جيدو (٣) أو روفاييل (٤) أو تينتوريتو (٥) أو منزل شيد بأناقة أو منظر حديقة منسقة تنسيقا راقيا، كان ايفيلين يوقف عربته ليتمتع بها ثم يفتح يومياته ليسجل رأيه فيما رأى

فى ٢٧ أغسطس كان ايفيلين مع الدكتور رن (٦) وآخرين فى ساحة القديس بول « البلا المتفشى فى هذه الكنيسة العريقة الموقرة » ؛ اعتقد ـ مثل الدكتور رن ـ فى رأى آخر يختلف عن الباقين ؛ وفكر فى أن يبنيها « وبها قبة شامخة ، فى صورة مبنى كنسى لم تعرفه انجلترا بعد ولكنها ذات وقار وجلال » رضى عنها الدكتور رن وبعد ستة أيام غير حريق لندن من خططهما ان ايفيلين مرة أخرى نظر بالمصادفة ـ وهو يسير بمفرده ـ من خلال شباك « مبنى متواضع لكنيسة حيث رأى فى حرم الكنسية » رجلا شابا ينحت تمثالا للمسيح المصلوب فتملكته الحماسة التى ملأته بالثقة فحمل « جرنيلينج جيبونز (٧) » وأدوات نحته ليعمل فى البلاط

انه شىء حسن ـ فعلا ـ أن يكون المرء مدققا فيما تعانيه الديدان وحساس لمستحقات الخادمات ولكن كم يكون سارا كذلك اذا كان المرء يمكنه ـ وهو مغمض العينين ـ أن يتذكر الشوارع ذات المنازل الجميلة

---

(١) Julie Romano.

(٢) Polydore.

(٣) Guido.

(٤) Raphael

(٥) Tintoretto.

(٦) Dr. Wren.

(٧) Grinbng Gibbons

شارعا بعد شارع ان الزهرة حمراء والتفاح ذهبى بلون الورد تحت أشعة شمس الأصيل ، وللصورة فتنتها ، وخاصة اذا كانت تعرض أخلاق جد أو تعظم أسلاف العائلة من خلال مثل هذا التجهم وانما كل هـذه أجزاء متناثرة بقايا صغيرة من جمال فى عالم نما فى قذارة لاتوصف وأما عن اتهامنا اياه بالقسوة فان ايفيلين يمكن أن يرد على ذلك بالاشارة الى بايزووتر (١) وحواف أحراش كلابام (٢) واذا كان عليه أن يؤكد عدم وجود شيء على خلق أو ايمان أو انه لا يوجد فلاح فى انجلترا ينام والى جوار فراشه كفن ليذكره بالموت فاننا لا يمكن أن نرد عليه ردا مقنعا. حقيقة ، اننا نحب الريف ان ايفيلين لم ينظر اطلاقا الى السماء .

ولكن لنعد الى اليوميات بعد عهد الاصـــلاح يبرز ايفيلين وفى حيازته الكاملة مختلف المشروعات التى تبدو ملفتة للنظر فى عصرنا المليء بالمتخصصين لقد كان يشتغل فى أعمال عامة ، وكان أمينا للسر للجمعية الملكية ، وكتب مسرحيات وأشعارا ، لقد كان المرجع فى الحجة فى الأشجار والحدائق فى انجلترا وقدم تصميما لاعادة بناء لندن ؛ بل لقد ذهب الى المناداة بتعفير شجر الليمون وتقليمه فى حدائق سانت جيمس نتيجـــة — كما يقرر — لتجاربه وأفكاره ؛ لقد فوض فى أن يكتب تاريخ حرب هولندة — وباختصار لقد بز كاتب قصيدة « الأميرة » وهوتنيسون الذى تنبأ فى مناسبات عديدة بما يلى

« ملك تربيـــة الثيران والخراف السمينة والحائز على جائزتها ومن أدخل زراعة البطيخ والأناناس ورئيس ما ينيف على الثـــلاثين جمعية للبر واصف طيور جوانو وحبة القمح ورئيس جلسات محاكم الحى الذى لا يبزه أحد »

لقد كان هو كل ذلك كما شارك سير والتر (٣) فى صفات أخرى لم يذكرها تنيسون (٤) فلقد كان — وليس لنا أن نشك فى ذلك — مهملا بعض الشيء ، منتقدا قليلا على قليل من النخوة ، يثق فى قدر نفسه نوعا ما كما كان باردا نوعا ما مع الناس ولكن ما هى الصفة التى يتحكم وجودها أو اختفاؤها فى مشاعرنا ؟ قد يرجع بعض ذلك الى أن تلك الصفة غير المؤكدة لو سميناها نفاقا بالنسبة لمثل هذا الاسم الرنان لكان

---

(١) Bayswoter

(٢) Clapham.

(٣) Sir Walter.

(٤) Tennyson.

حكمنا قاسيا ورغما عن أنه ذرف الدموع على عيوب عصره فانه لم يقدر أن يبقى بعيدا عن مصادرها « الغزل والدنس المترف في البلاط ومنظر مسز نيللي » وهى تطل على جدار حديقتها مسترسلة فى حديث ودى جدا مع الملك تشارلس وهو واقف على الممشى الأخضر من أسفل وتسبب له بذلك ضيق حاد ومع ذلك لم يفكر فى أن يقطع الحديث فى تودد ويعود الى « فيللتى المتواضعة الهادئة » التى كانت بطبيعة الحال قرة عينه واحدى أماكن السياحة فى انجلترا وعلى الرغم من حب ايفيلين لابنته مارى فلم يمنعه حزنه على وفاتها من عد العربات الخالية التى تجرها الخيول الست لكل فرد ممن حضروا الجنازة وصديقاته من النساء مزجن الجمال بالفضيلة حتى أنه تعذر علينا أن نثق فى ذكائهن فى الصفقة وأخيرا مسكينة السيدة جودولفين التى مجدها باخلاص فى كتاب مؤثر عن سيرتها لقد كانت تحب الجنازات » واختارت كالعادة « أرفع قطعة من اللحم وأكثرها جفاجا » وكأنها ذات طبيعة ملائكية ولكنها لاتعرض صداقتها لايفيلين فى صورة مغرية انما هو بيبس (١) الذى لخص لنا قضيتنا ضد ايفيلين بيبس الذى قال عنه بعد تسلية صباح ممتع « أنه فى الرقة شخصية ممتازة ولابد أن نسمح له بقليل من الغرور ؛ وقد يكون مغرورا حقا فهو رجل أسمى من الآخرين » ان الكلمات أصبن الصميم لقد كان شخصية ممتازة جدا ولكنه مغرور بعض الشيء

ان بيبس هو الذى يدفعنا الى تفكير آخر محتم ، لا لزوم له وربما كان غير رحيم لم يكن ايفيلين عبقريا بل ان كتاباته معتمة أكثر منها شفافة ؛ لا نجد فيها عمقا وليس فيها صولات العقل ولا انفعالات القلب الخفية انه لا يستطيع أن يجعلنا نكره قتل الملوك ولا غرام السيدة جودولفين بدون أسباب وانما هو يكتب يوميات ليس غير وهو يكتبها بعناية فائقة حتى عندما ينتابنا النعاس بطريقة أو بأخرى يبدأ السيد (الذى فقدناه) فى العمل ــ من خلال ثلاثة قرون مضت ــ عن طريق الشعور الحسى بالاتصال حتى انه ودون التركيز على شيء بعينه نتوقف عن الأحلام ونمسك عن الضحك ونتوقف لمجرد النظر ومع ذلك فاننا نأخذ ملاحظات طوال الوقت فمثلا حديقته كم كان اشمئزازه منها لطيفا وكيف كان نقده لاذعا لحدائق الآخرين وعندئذ نتأكد أن دجاج ضيعة سايس (٢) يبيض أحسن بيض فى انجلترا ولم كانت قيادة

---

(١) Pepys.

(٢) Sayes.

القيصر لعربته باندفاع نحو السور كارثة ؟ ويمكننا أن نحدس كيف كانت السيدة ايفيلين تنظف محتويات بيتها وتلمعها ؛ وكيف كان ايفيلين نفسه متبرما وكم كان يعتمد على اهتمامه بالشكليات ؛ لقد كان على استعداد دائما لاسداء النصح ، وكان على استعداد كذلك ليقرأ أعماله بصوت مرتفع كان ودودا مريرا فى حزنه ، ولكن بلا دموع ذلك ان الرجل بوجهه الطويل الحساس لم يكن من النوع الذى يذرف الدموع - ففى موت ابنه الصغير ريتشارد الذى كان آية فى الجمال ، سجل كيف « بعد صلاة المساء دفن ابنى الى جوار بقية اخوته من أبنائى الأعزاء » انه لم يكن فنانا ؛ ولا تبقى عباراته فى العقل ؛ ولا تعيش أية فقرة من كتاباته فى الذاكرة ،ولكن كطريقة فنية لها جاذبيتها فتسجيل المجريات اليومية بشىء من التفصيل ، والاشارة الى النـاس اشارة عابرة لأنهم لن يرد لهم ذكر فيما بعد ، ثم السير نحو الازمات التى لا تقع ، وتقـديم سير توماس براون لنا ولكن دون أن يتكلم ، كل هذا له سحره وعلى صفحات يومياته نرى رجالا طيبين ورجالا سيىء السيرة معروفين ونكرات، يدخلون علينا الحجرة ويخرجون منهـا مرة أخرى اننا لا نكاد نلحظ ضخامة العدد ثم يغلق الباب من دونهم ويختفون ولكن من آن لآخر فان رؤية طرف المعطف وهو يختفى يوحى بأشياء أكثر مما يمكن أن تقرره شخصية صاحبه لو أنها تكلمت وربما كان ذلك لأننا نفاجئهم على غرة لم يرد على خاطرهم أنهم سيذكرون بعد ثلاثمائة عام أو أنهم سيرون وهم يقفزون من فوق الباب أو وهم يلاحظون (مثلما لاحظ الموكيز أرجيل العجوز) - أن الحمام البرى فى البرج انما هو بوم وتتحـول عيوننا بين صفحة وأخرى وعواطفنا ، نلتقى هنا وهناك بالكابتن راى(١) الحاد الطبع مثلا ، الغاضب دائما الذى كان يملك كلبا قتل عنزة ، والذى قتل صاحب العنزة ثم قتل حصانه عنـدما سقط فى الهوة ثم نلتقى بالسيد صلاح الدين ، وبابنة صلاح الدين ، ويتلكع الكابتن « راى » فى جنوة ليبث ابنة السيد صلاح الدين حبه ؛ أما ايفيلين نفسه فقد تقدمت به السنون ، نراه وهو يسير فى حديقته فى ووتن ، وقد خفت حدة أحزانه وتعلق به حفيده ونسمعه وهو يلقى علينا باقتباسات من اللاتينيـة تخرج من بين شفتيه وقد تورقت شجيراته والفراشات تتبـاهى وتهيم بزهرات الداليا

---

(١) Captain Wray.

ديفو (١)

ان الخوف الذى يراود مسجل التاريخ هو اكتشافه أنه انما كان يقيس أبعاد شبح وأنه كان مكرها على التنبؤ بقرب موته ، هـــذا الخوف لا وجود له فحسب عندما ندرس قصة روبنصون كروزو وانما كان مجرد التفكير فيه أمرا يستحق السخرية • وقد يكون حقيقيا أن عمر روبنصون كروزو كان سيكون مائتى عام فى الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩١٩ ولكن ما يثير التأملات المألوفة هو هل ما زال الناس حتى الآن يقبلون على قراءتها أو أنهم سيداومون على ذلك ، ان أثر القرنين يجعلنا نعجب أن روبنصون كروزو ـ القصة الخالدة ـ قد ظهرت فى الوجود فى مثل ذلك الوقت القصير ان الكتاب يشبه انتاجا دون اسم مؤلف انه انتاج جميل وليس من يراع كاتب بمفرده واذا كنا سنحتفل بذكراه المئوية فكأننا نفكر فى الاحتفال بذكرى ستون هنج(٢) ذاتها وقد نعزو ذلك الى الحقيقة الواقعة وهى أن هذا الكتاب قرىء لنا ونحن أطفال وبذلك أصبحنا فى حالة عقلية تجاه ديفو وقصته تماثل نظرة الاغريق الى هومر• لم يخطر على بالنا مطلقا ان هناك شخصا اسمه ديفو ولم يخبرنا أحد بأن روبنصون كروزو انما هو من انتاج رجل رسمه لنا بقلمه ، ان مثل هذا الخاطر كان كفيلا بأن يحدث اضطرابا غير مقبول فى نفوسنا ولم يكن ليعنى شيئا على الاطلاق ان انطباعات الطفـــولة من النوع الذى يبقى طويلا ويحفر فى الذاكرة بعمق ولا زال يبدو كأن اسم دانييل ديفــو ليس له الحق لأن يظهر الى جوار روبنصون كروزو على الصفحة الأولى واذا كنا نحتفل بمرور قرنين من الزمن على صدور هذا الكتاب فاننا بذلك نشير اشارة خفيفة لا لزوم لها الى حقيقة ضخمة واقعة كما لو كنا نقرر ان ستون هنج لا زالت باقية

(١) Daniel Defoe

(٢) Stonehenge.

ان شهرة الكتاب التى طبقت الآفاق لم تنصف مؤلفه فهى قد أعطته نوعا من المجد المجهول الذى ألقى ظلالا على حقيقة وهى أنه ألف كتبا أخرى ـ والحق يقال ـ أنها لم تقرأ لنا ونحن أطفال وعلى ذلك لم نكن نستغرب عندما ناشد محرر « العالم المسيحى » (١) فى عام ١٨٧٠ « أبناء وبنات انجلترا » ليقيموا تذكارا على قبر ديفو ـ الذى شوهته نزلة صاعقة وأن يطالب بأن يكون محفوراً عليه هذه الكلمات لذكرى مؤلف روبنصون كروزو مغفلين مول فلاندرز (٢) واضعين فى الاعتبار الموضوعات التى تعرض لها فى هذا الكتاب وفى روكسانا (٣) وكابتن سنجلتـــون (٤) والكولونيل جاك (٥) وبقية الكتب وان كان هـذا النداء بهذا الشكل قد زاد من حنقنا لهذا الاغفال وقد نتفق مع مستر رايت (٦) ـ محرر سيرة ديفو ـ أن هذه ليست أعمالا للتسلية حول المنضدة » ولكنا لا نقبل أن نجعل من هذه القطعة الهــامة من الاعمال محكما لا معقب من ورائه على الذوق فانه يجب علينا أن نأسف على الواقع وهو سطحية الأعمال الخشنة أو على أن الشهرة العالمية لروبنصون كروزو قد أدت بهذه الأعمال لأن تكون أقل انتشارا فى الشهرة مما هى جديرة به ٠ وعلى أى تذكار ـ يستحق أن يعتبر تذكارا ـ يجب أن يحفر اسما مول فلاندرز وروكسانا على الأقل عميقا كاسم ديفو٠فهما يقفان بين القصص الانجليزية القلائل التى يمكن أن نصفها بدون مجادلة أنها عظيمة وأن مناســبة القرنين اللذين مضيا على شقيقهما الأكثر شهرة (روبنصون كروزو) قد تؤدى بنا الى أن نفكر أين تكمن عظمتاهما اللتان تشبهان كثيرا عظمــة ديفو

كان ديفو رجلا كبير السن عندما أصبح قصــاصا ، ســابقا على ريتشاردسون (٧) وفيلدنج (٨) لعدة سنوات ، وكان واحدا من القصاصين الذين يشكلون القصة عن جدارة ويسيرونها فى طريقها الصحيح ولكن ليس بالضرورى أن نجهد أنفسنا لتقصى حقيقة أسبقيته باستثناء أنه

---

(١) The Christian World.
(٢) Moll Flanders.
(٣) Roxana.
(٤) Captain Singleton.
(٥) Colonel Jack.
(٦) Mr. Wright.
(٧) Richardson.
(٨) Fielding.

بدأ فى كتابة القصة وهو متأثر بآراء معينة عن الفن ترجع بعض أسبابها الى كونه شخصيا واحدا ممن مارسوها فهو يرى ان على القصة أن تبرر وجودها بأن تقص علينا قصة حقيقية وتدعو الى روح صحيحة يقول فى بعض ما كتب، « أما تقديم قصة من الخيال فهذا جريمة جد فاضحة وهو نوع من الكذب الذى يفتح ثغرة فى القلب تنفذ من خلالها الأكاذيب بعد استمرائها » وعلى ذلك نرى ديفو ـ سواء فى المقدمة او فى متن القصة يعانى وهو يصر على أنه لم يلجأ الى خياله أو الى الاختراع بل نراه يعتمد على الوقائع مؤكدا أن هدفه من وراء ذلك الرغبة السامية فى هداية العاصى وتحذير البرىء ومن حسن الحظ أن هذه المبادىء كانت تناسب تماما مزاجه الطبيعى وملكاته ان الوقائع قد خبرت نفسها فى داخله خلال الستين سنة التى قضاها فى حظ متعثر قبل أن يحول تلك الخبرة الى التأليف فقد كتب يقول « لقد لخصت منذ وقت مضى أحداث حياتى فى هذين البيتين من الشعر »

اختصنى الحظ القلب دون غيرى من البشر

فمن فقر الى غنى ثم الى فقر ثلاث عشرة مرة

لقد أمضى ثمانى عشر شهرا فى سجن نيوجيت(١) والتقى باللصوص والقراصنة وقطاع الطرق والمزيفين قبل أن يكتب مول فلاندرز ولكن ان نلقى اليك الوقائع بقوة دفع الحياة أو بالمصادفة فهذا شىء ، وأن تزدردها بنهم ونستبقى انطباعاته عنها بحيث لا تنمحى فهذا شىء آخر انه ليس مجرد علم ديفو بوطأة الفقر أو أنه تحدث الى ضحاياه ، وانما الحياة المجردة تعترضها الظروف فتكره على التحايل لكى تبقى هى التى استهوته لكى يتخيل أنها المادة الصحيحة لفنه ففى الصفحات الأولى فى كل قصة من قصصه العظام نراه يخضع البطل أو البطلة لحالة من البؤس القاسى لدرجة أن استمراره فى الحياة معناه صراع مستمر وبقاء أبطاله وصمودهم انما هو نتيجة لحسن الحظ واجهاد النفس

ولدت مول فلاندرز من أم مجرمة فى سجن نيوجيت ، وخطف كابتن سنجلتون وهو طفل وبيع للغجر ؛ وعلى الرغم من أن الكولونيل جاك « ولد كريم المحتد فانه تتلمذ على يدى نشال » كما بدأت روكسانا حياتها تحت حماية أفضل ولكنها وقد تزوجت فى الخامسة عشرة فاننا

---

(١) Newgate.

نرى زوجها وقد أفلس ثم هجرها ومعها أطفالها الخمسة فى « حالة من البؤس والشقاء تعجز الكلمات عن التعبير عنها »

وعلى ذلك كان لكل هؤلاء الرجال والنساء عالم يواجهه ومعركة يناضل فيها من أجل نفسه ان الموقف الذى خلق اذا يتلاءم كل الملاءمة مع ميول ديفو فمنذ ولادة مول فلاندرز - أو قد يمهلها ستة أشهر على الأكثر - يسيطر عليها - وهى أكثر شخصياته وضوحا - « أسوأ الشياطين وهو الفقر، لقد أكرهت على أن تكسب عيشها بمجرد أن أصبحت قادرة على الحياكة ، ثم نزحت من مكان الى مكان ، دون أن تطالب المؤلف خالقها بأن يهيىء لها جوا مؤنسا كان عاجزا عن أن يمدها به ،ولكنها تتقرب منه ليضع فيها كل ما يعلمه عن غرباء الناس وعاداتهم فمنذ البداية وعبء اثبات حقها فى الوجود ملقى على عاتقها • فعليها أن تعتمد كلية على فطنتها وحكمها على الأشياء وأن تعالج كل ضرورة تصادفها بما لديها من براعة نفسية انصهرت فى رأسها • ان حيوية القصة انما تعود فيما تعود اليه الى حقيقة وهى أن مخالفة القوانين المألوفة فى سن مبكرة أعطاها حرية الخروج على القانون ان الواقع المستحيل والوحيد هو استقرار مول فلاندرز وبقاؤها فى أمان كما أنها منذ البداية تفرض عبقرية المؤلف الخارقة نفسها وتتجنب الخطر الواقع من قصة المغامرات فانه يجعلنا ندرك أن مول فلاندرز امرأة تعتمد على نفسها وليست مجرد مادة للأحداث والمغامرات • ولكى يبرهن على ذلك بدأت - كما بدأت روكسانا - بأن تقع متدلهة فى الهوى وان كان حبا غير سعيد وأنها لابد أن تهيىء نفسها لتتزوج شخصا غيره ثم تتلمس عن كثب تسوية أمورها ومطامحها وهذا ليس بالأمر الهين على عاطفتها وان هان عليها أن تلام على حقارة أصلها، ومثل كل نساء ديفو فهى انسانة عميقة الفهم ولما كانت لا تتورع عن اطلاق الكذب ما دام يحقق مصالحها فان صدقها - عندما تقرر الحقيقة - لا يكون محلا لانكار وليس لديها متسع من الوقت لتضيعه فى العواطف الشخصية المهذبة ، فلم يمهلها ديفو الا لكى تذرف دمعة واحدة،والا للحظة واحدة من اليأس ثم « يستمر فى القصة » لها روح تجعلها تهوى تصدر العاصفة وهى تجد لذة وهى تمارس قدراتها وعندما تكشفت لها الحقيقة المروعة وهى أن الرجل الذى تزوجته فى فرجينيا انما هو أخوها اشمأزت بعنف وصممت على الابتعاد عنه ولكن بمجرد أن نزلت فى

بريستول (١) « فكرت فى أن أسرى عن نفسى بالذهاب الى باث (٢) وذلك مادام لا يزال أمامى متسع من الوقت قبل أن يصيبنى الهرم فان نفسى المرحة استمرت فى مرحها حتى بلغت المنتهى » ولم تكن بلا قلب، ولا يمكن لأحد أن يتهمها بالطيش وانما الحياة نفسها تسعدها وهى بطلة تحيا حياتها وتأخذنا فى دوامتها وفضلا عن ذلك فان مطامحها فيها شىء من الخيال الذى يضعها فى مرتبة العواطف النبيلة انها ذكية وعمليـة عندما يقتضى منها الموقف ذلك تتملكها رغبة فى الغرام وتستحوذ عليهـا الصفة التى تجعل من الرجل ـ حسب ادراكها ـ سيدا لقد كتبت عندما ضللت قاطع طريق عن مقدار ثرائها ـ كتبت تقول « لقد كان فعلا رجلا شهما وهذا ما جعل الأمر أشد ايلاما لى وأنه لما يثلج الصدر أن يغرر بى رجل كريم المحتد أفضل من أن يغرر بى رجل وضيع » وتمسكها بهذا المزاج جعلها تفخر بآخر شريك لها لأنه رفض العمل ـ عندما وصلا الى المزرعة ـ وفضل الخروج للصيد لدرجة أنها كانت تجد متعـــة وهى تشترى له الشعر المستعار والسيوف ذات المقابض من الفضة « لتجعله يبدو ـ كما بدا فعلا ـ أنه حقا رجل رفيع » وحبها الشديد للجو الحار أيضا كان يناسب هذا المزاج كما يناسب عاطفتها التى دفعتها لأن تقبل التراب الذى سار عليه ابنها ، وكذلك تحملها الكريم لكل صنوف الأخطار طالما أن هذه الأخطار ليست « انحطاطا كاملا للروح ، أو مجرد سيطرة أو قسوة أو تجعلها عديمة الرحمة عندما تكون لها اليد العليا ودنيئة سافلة عندما تكون فى الحضيض » وبالنسبة لبقية العالم فليس لديها نحوه الا كل خير

طالما أن هذه قائمة الصفات والفضائل التى تتحلى بها تلك العاصية المرحة التى لا تنتهى بأية وسيلة فاننا نفهم تماما كيف أن بائعة التفـاح ـ التابعة لبورو (٣) والتى كانت تبيع تفاحها على كوبرى لندن ـ لقيتها « مارى المباركة » وقومت كتابها بأثمن من جميع التفاح الذى تملكه ؛ وكان بورو نفسه يأخذ كتاب مول فلاندرز ويقبع داخل « المخزن » ويظل يقرأ حتى تؤلمه عيناه • ونحن نستند الى مثـل هذه المعالم للشخصية للتدليل على أن خالق مول فلاندرز لم يكن ـ كما سبق أن أتهم ـ مجرد صحفى أو مسجل حرفى للوقائع دون فهم للطبيعة وللنفس حقـا ان شخصياته

---

(١) Bristol.

(٢) Bath.

(٣) Borrow's apple-woman.

تأخذ شكلها ومادتها على طريقتها الخاصة كما لو كانت قد وجدت رغما عن المؤلف وأنها جميعا لا تعجبه فهو لا يتوقف أو يركز على نقطة مميزة من فطنة أو شجن بينما يؤكد بجسارة كما لو كانت تلك الشخصيات قد جاءت دون علم منه لمسة من خيال كتلك اللمسة عندما يجلس الأمير الى جوار مهد ابنه وروكسانا تلاحظ كيف أنه يحب أن يرنو اليه عندما يكون نائما » هذه اللمسة تعنى الشيء الكثير لنا أكثر مما تعنى بالنسبة اليه وطبقا للرسالة الحديثة الغريبة عن الحاجة الى الافصاح عما يجول بالخاطر من أشياء هامة لشخص آخر لئلا نتحدث بها أثناء نومنا ــ كما فعل اللص فى سجن نيوجيت عندما اعتذر عن انحرافه ــ يبدو أنه أخذ أفراد شخصياته بعمق فى عقله حتى عاش معهم دون أن يدرى كيف تم ذلك بالضبط وككل الفنانين الساهمين ترك ديفو كنوزا فى أعماله أكثر مما استطاع جيله ان يستخرج منها الى السطح

ان التفسير الذى يلقى الضوء على شخصياته يمكن أن يحيره هو فلقد وجدنا بأنفسنا معانى حرص ديفو على أن يخفيها حتى عن ذات عينيه. ومن هنا جاء اعجابنا بمول فلاندرز أكثر مما نعود عليها باللائمة اننا لم نصدق أن ديفو كان قد وطد العزم بالنسبة لتحديد مقدار ذنبها أو كان لا يدرك أنه عندما كان يقدر حياة المنبوذين أثار عدة تساؤلات عميقة وأشار ــ وان كان لم يقرر ــ الى اجابات مخالفة تماما لمعتقداته ولما يؤمن به فمن الدليل المستمد من مقاله عن تعليم المرأة نعلم أنه كان يفكر تفكيرا عميقا وسابقا لعصره بكثير عن مدى قدرات النساء التى قدرها تقديرا عاليا وعن عدم الانصاف الذى وقع عليهن والذى تناوله بعنف

> كنت دائما أفكر أن هذه من أكثر العادات بربرية فى العالم وباعتبار أننا دولة متحضرة متمدينة فكيف نفكر فى حرمان المرأة من التعليم وكيف نعير الجنس كل يوم بالغباء وبالوقاحة ؟ وانى لواثق أنهن اذا أتيحت لهن فرصة التعليم مثلنا فانهن سيكن أقل غباء ووقاحة منا »

ان المتولين حقوق النساء قد لا يهتمون أن يضعوا مول فلاندرز وروكسانا من بين النساء القديسات ؛ ومع ذلك فانه من الواضح أن ديفو لم يتعمد أن يجعلهما يتحدثان عن مذاهب حديثة جدا فى هذا الموضوع فحسب بل وضعهما فى ظروف تكون فيها المصاعب التى صادفتهما غريبة معروضة بطريقة تثير عطفنا وقالت مول فلاندرز ان النساء ينقصهن الشجاعة والقدرة على الصمود للحوادث » ؛ وفى الحال قدمت عرضا

عمليا عن الفوائد التى تنتج عن ذلك وتناقش روكسانا ـ وهى امرأة من نفس المهنة ـ بمهارة ضد عبودية الزواج فقال لها التاجر «انها بدأت شيئا جديدا فى العالم » انها طريقة فى الحديث تخالف العرف السائد» ولكن ديفو هو آخر كاتب يمكن أن نتهمه بالوعظ المكشوف فقد استرعت روكسانا اهتمامنا لأنها لا تدرى ـ والحمد لله ـ أنهـــا متخذة كنموذج لجنسها وبذلك فهى فى حل لأن تكون مناقشاتها على مستوى عال وهو فى الواقع ما لم يكن يقصده ديفو بادىء الأمر على الاطلاق » ان معرفة نقط الضعف فيها والتساؤل الأمين عن دوافعها الذى يتولد عن هذه المعرفة ، كان له الفضل فى كونها متجددة مليئة بالانسانية بينما نرى أن شخصيات الــكثير من القصـــص التى كانت تسمى بالقصص (١) ذات المشكلة انما هم شهداء ورواد ينكمشون ويتـــوارون فلا تبقى بعد ذلك الا الدعامات والأوتاد لمعتقداتهم النسبية

ان اعتماد ديفو على اعجابنا لا يرتكز على واقع ظهر بأنه شارك فى بعض آراء ميرديث (٢) أو لأنه كتب فصـــــولا كان يمكن أن تحول الى مسرحيات بمعرفة ابسن (وهذا الافتراض الغريب حدث) ومهما تكن آراؤه عن مركز المرأة ، فان هذه الآراء جاءت نتيجة عارضة لفضيلة أساسية وهى أنه يتعامل مع الجانب الهام والدائم للأشياء وليس مع الجانب العابر أو التافه انه دائما جاد كئيب فى امكانه تقليد الواقع الملموس بدقة الرحالة العالم حتى أننا لنعجب هل فى استطاعة قلمه تتبع ما لم تقـدر حجة الحقيقة على أن تلين من جفافه وهل فى استطاعة عقله آدراك ذلك ؟ انه يترك الطبيعة كلها وجانبا كبيرا من طبيعة البشر ويمكن لنا أن نقر بكل ذلك فى الوقت الذى يجب أن نعترف فيه بعيوب خطيرة فى كثير من الكتاب الذين نسميهم بالعظماء ولكن هذا لا يفسد القيمة الغريبـة لما بقى وبتضييق مجاله وتحديد مطامعه منذ البداية حقق ديفو صدق السريرة التى هى أقل ندرة وأكثر استمرارا من حقيقة الواقع التى نجح

---

(١) انتشر فى ذلك العصر كتاب قصصيون يعرضون فى قصصهم الى مشـكلة ويقدمون حلا لها ولذلك لم يكن الكاتب يكلف نفسه مشقة خلق شخصيات آدميـة تنبض بالحياة ، شخصيات من دم ولحم بل كان يخلق شخصيات جامدة يسخرها فى حل المشكلة كما يراها هو ولذلك لم تخلد تلك الشخصيات مع الخالدين بل كانت تنكمش وتزول ولا تبقى الا المشكلة والحل الذى فرضه الكاتب « المترجمة »

(٢) Meredith.

فى جعلها هدفه   لقد زكت مول فلاندرز وأصدقاؤها أنفسهم لدى ديفولا لأنهم ـ كما يمكن أن نقول ـ شخصيات « بهيجة » ، ولا كما أكد هو أنهم أمثلة للشر الحى لكى يتعظ بها الناس بل لأن طبيعتهم الصادقة التى نشأت معهم فى حياة قاسية هى التى أثارت اهتمامه • ولم يكن لهم العذر ولا مأوى رءوم ليلقى الظلال على بواعثهم بل كان الفقر جلادهم ولم يعلن ديفو سقوطهم بأكثر من حكم شفوى بينما شجاعتهم ومعين صمودهم وتماسكهم أدخل السرور على نفسه فوجد مجتمعهم مليئا بالكلام المفيد والقصص السارة ، والايمان عند كل منهم ، ومغزى صنعته البيئة لكل منهم ان حظهم فى الحياة كان له الطابع المتقلب الذى صادفه واستطابه وأقام معه على عجب منه فى حياته نفسها • لقد كان لهؤلاء القوم رجال ونساء ـ قبل كل شيء ـ حركة الكلام المفتوح عن العواطف والرغبات التى حركت القدم منذ البداية ومع ذلك فلا زالوا يحتفظون بحيويتهم غير منقوصة ان العظمة توجد حيث توجد النظرة الصريحة الى كل شيء حتى الموضوع الوضيع ـ موضوع المال ـ الذى يلعب دورا هاما فى تاريخهم يصبح غير وضيع بل انه يصبح محزنا عندما يقف لا ليسهل الأمور وما يتبع ذلك من نتائج ، بل ليقف فى مواجهة الشرف والأمانة بل وفى مواجهة الحياة ذاتها فقد تعترض أن ديفو ممل أو عادى ولكن لا يمكن أن تعتبره مهتما بالأمور التافهة

انه ينتمى فى الواقع الى مدرسة الكتاب العظام الذين لا يتكلفون والذين شيدت أعمالهم على المعرفة لما هو دائم وليس فيها ما يعتبر مخادعا لطبيعة البشر ان منظر لندن من كوبرى هنجرفورد (١) مغبر جاد ومكتظ ملىء بحركة المرور وحركة الأعمال يحكمها النظام ؛ ولولا مجموعة السفن والأبراج وقباب المدينة لكان منظرا مألوفا عاديا • هذا المنظر يعيده الى رشده والفتيات فى ملابسهن الرثة وهن يمسكن بالوشاح فى فى أيديهن وهن واقفات عند منعطف الطرقات والنساء اللائى حط عليهن الدهر يعبثن بأعواد الثقاب فى صبر وانتظار أو وهن يعبثن بأربطة أحذيتهن متخذات من الأقواس مأوى لهن أولاء يظهرن كأنهن شخصيات من كتب ديفو انه من مدرسة كريب(٢) وجيسنج(٣) وليس عضوا ولا طالبا فى هذه المدرسة الجادة وانما مؤسس لها وناظر على تلاميذها

---

(١) Hungerford.

(٢) Crabbe.

(٣) Gissing.

اديسون (١)

في يوليو ١٨٤٣ أعلن لورد ماكولى (٢) رأيه أن جوزيف أديسون قد زود أدبنا بتكوينات « سوف تبقى ما بقيت الانجليزية » • ولكن عندما أعلن اللورد ماكولى رأيه هذا لم يكن مجرد رأى وحتى اليوم وبعد مضي ستة وسبعين عاما لا زالت الكلمات تبدو وكأنها تخرج من فم الممثل الممتاز للشعب ويبدو كأنه ملك السلطة ، والاعلان الطنـــان ، والشـــعور بالمسئولية التى تدخل فى روعنا وكأن رئيس الوزراء يصدر بيانا عن امبراطورية عظيمة أكثر مما هو بيان من صـــحفى يكتب عن رجل أدب متوفى كان يكتب لاحدى المجلات ان الفصل الذى كتبه عن أديسون هو فى الواقع مقال من مقالات قوية معروفة • مقال زاهر وفى نفس الوقت رصين تبدو عباراته وكأنها نقشت على ضريح فى ميدان زين باسراف بزهور الزينة التى تظلل أديسون مادامت أحجار «ويستمينستر آبى» (٣) باقية الواحدة فوق الأخرى ومع ذلك ، وعلى الرغم من أننا قد نكون قد قرأنا وأعجبنا بهذا المقال بالذات مرات لا تعد ولا تحصى (كما نقول عندما نقرأ أى شىء ثلاث مرات أو أكثر) ، فلم يحدث لنا ، للعجب ، أن صدقنا أن هذا صحيح • وذلك يمكن حدوثه للقراء المعجبين بمقالات ماكولى • فبينما تسرهم رشاقة المقالات وقوتها وتنوعها ويبدو لهم ان كل حكم فيها قاطع وسليم وفى محله فانه قلما يحدث لنا أن نربط بين تلك التصريحات الجزافية والأحكام المسلم بها وبين أى شىء دقيق مثل المخلوق البشرى

هكذا الحال مع أديسون • فقد كتب ماكولى يقول « اذا أردنا أن نجد شيئا أكثر حيوية مما فى تصورات أديسون العظيمة فعلينا أن نعود اما الى

---

(١) نشر هذا المقال فى عام ١٩١٩

(٢) Lord Macaulay.

(٣) Westminster Abbey.

شيكسبير أو سيرفانتس (١) » « وليس لدينا أدنى شك لو أن أديسون كان قد كتب قصة على مجال أوسع لتفوق على كل ما لدينا من كتاب » مقالاته مرة أخرى « تؤهله لأن يكون فى مصاف الشعراء العظام » ولكى نكمل البنــاء فلدينا فولتير(٢) أمير المهرجين ومعــه سويفت(٣) فعليهما أن يدنيا من هامتيهما لكى يأخذ أديسون المرتبة التى تعــلوهما ككاتب هزلى

وذاا فحصت أعمال أديسون منفصلة عن بعضها البعض لبدت مثل الحلى المنمقة غريبة الشكل وان كانت فى موضعها وهــذه هى قوة التصميم المقنع ذلك انها جزء من الزخرفة نفسها تكمل الضريح وسواء دفن فيه أديسون أو غيره فانه ضريح جميل أما وقد مضى قرنان منذ أن وورى جثمان أديسون ليلا تحت ثرى كنيسة آبى فاننا ــ ودون فضل من جانبنا (نحن الذين لم نؤت من الفن والقدرة على اختيــار وتنميق تلك المقبرة الخيالية وهى التى قد تكون خالية) قد أعطيناها نوعا من التكريم الظاهرى على مدى الستة والسبعين عاما ان تكوينات أديسون سوف تبقى حية ما بقيت الانجليزية، وما دامت كل لحظة تمر تأتى ببرهان أن لغتنا ممتلئة بالصحة والحيوية أكثر مما تبدو رزينة هادئة أو نقيــة طاهرة فعلينا اذا أن نقدر حيوية أديسون وليست الصحة ولا الحيوية صفة نستعملها لكى نعبر بهــا عن حالة مجلات تاتلر (٤) وسبكتيتر (٥) الآن واذا أجرينا اختبارا أوليا فانه من المحتمل أن نكتشف كم من الناس على مدار السنة استعاروا أعمال أديسون من المكتبة العامة وهناك مثال بالذات يمدنا بالمعلومات المثبطة وهو أنه خلال التسع سنوات اســتعار شخصان كل سنة الجزء الأول من الاسبكتيتر والجزء الثانى يطلب بأقل من الجزء الأول والتحقيق فى ذلك ليس سارا ومن بعض التعليقــات المدونة على الهامش ومن العــلامات التى وضعت بالقلم ندرك أن هؤلاء المخلصين انما يسعون وراء المقطوعات التى نالت الشــهرة وكما هى عادتهم يؤشرون على مانعتبره بشجاعة أقل العبارات التى تستحق الاعجاب، واذا كان اديسون ما زال مرغوبا فى قراءة أعماله فهو ليس مرغوبا فيه

---

(١) Cervantes.

(٢) Voltaire

(٣) Swift.

(٤) Tatler.

(٥) Spectator.

فى المكتبات العامة   انه يعيش فى المكتبات الخاصة فى عزلة عن العالم تظللها اشجار الليلاك وأصبحت كتاباته صفراء من القدم وكأنه لا يزال يتنفس بانتظام ووهن   فاذا ما أراد رجل أو امرأة ان يتسلى اليوم بقراءة صفحة من أديسون قبل أن تغرب شمس يوم من أيام يونيو فان أديسون ينعم بمثل هذه العزلة

ومع كل فاننا على يقين أن هناك أناسا فى أنحاء مختلفة من انجلترا ينشغلون بقراءة أديسون على فترات قد تكون متباعدة بصرف النظر عن السنة أو الفصل   وذلك لأن اديسون يستحق القراءة بالفعل. ان الاغراء على قراءة ما كتبه بوب (١) عن أديسون أو ماكولى عن أديسون او تاكارى (٢) عن أديسون أو جونسون (٣) عن أديسون فضلا عن قراءة أعمال أديسون نفسه ، هذا الاغراء يجب مقاومته   وذلك لأنك سوف تجد اذا ما فحصت التاتلر والاسبكتيتتر وألقيت نظرة على مسرحية كاتو (٤) (مسرحية كتبها أديسون) ثم تصفحنا بقية الأجزاء الستة ذات الحجم المتوسط   فسوف نجد أن أديسون ليس كما وصفه بوب أو أى شخص آخر وانما هو فرد مستقل بذاته لا زال قادرا على أن يصب لنفسه قالبا واضح المعالم من ناحية الوعى والعربدة وشرود الفكر كما جاء فى كتاب(٥) ١٩١٩   حقيقة ان مصير الصفات الأخرى الأقل وضوحا غير مستقر دائما وذلك لأن مثل هذه الصفات تكون بكل سهولة مطموسة أو مشوهة   وكثيرا ما يبدو أنه لا داعى للتغلغل فى عملية تقويم أعمال كاتب وتحديد المعانى الانسانية فيها عندما نتعرض لكاتب من الدرجة الثانية الذى ـ بعد كل هذا ـ قد لا يكون لديه الا القليل مما يقدمه الينا لقد نضب معين أعماله وانمحت معالمها ، وقد لا تأتى فى قمة أحسن ما فى العصر وانما هى مجرد شقفة من قدر قديم   وليست الصعوبة التى تصادف الكاتب الأقل شأنا ـ على أية حال ـ من ناحية المجهود فحسب وانما تكمن الصعوبة فى أن مستوياتنا قد تغيرت   فالأمور التى كانت تستحوذ اعجابهم لا تعجبنا ؛ وما دام سحر كتاباتهم يعتمد على الذوق

---

(١) Pope.

(٢) Thackeray.

(٣) Johnson.

(٤) Cato.

(٥) نشر هذا الكتاب عام ١٩١٩ وهو الذى من أجله كتبت فرجيينا ولف هذا المقال تعليقا عليه

أكثر مما يعتمد على قوة الاقناع ــ فان تغييرا فى آداب السلوك كاف جدا لأن يباعد بيننا هذا هو أحد الأسوار المزعجة التى تقف حائلا بيننا وبين أديسون انه يعطى أهمية عظمى لصفات معينة فله رأى دقيق فيما اعتدنا أن نسميه « اللطافة » فى الرجل أو فى المرأة انه مغرم الى أبعد حد بالدعوة الى أنه على الرجال ألا يكونوا ملحدين وعلى النساء ألا يرتدين قمصانا واسعة هذا لا يبعث فينا شعورا مباشرا بعدم الاستساغة بقدر ما هو احساس بالاختلاف ومن واجبنا أن نحمل أنفسنا على الخيال لكى ندرك الى أى نوع من القراء نوجه مثل هذه التعاليم • فقد نشرت التاتلر فى عام ١٧٠٩ وصدرت الاسبكتيتر بعد ذلك بسنة أو بسنتين فماذا كانت عليه حالة انجلترا فى ذلك الوقت بالذات ؟ لماذا كان أديسون حريصا على ضرورة وجود اعتقاد دينى محترم بهيج ؟ لماذا دأب يتعرض (وان كان برفق بصفة عامة) لنقط الضعف فى النساء وكيف السبيل الى اصلاحهن ؟ لماذا كان عميق التأثر بشرور الحزب ؟ سوف يفسر أى مؤرخ كل ذلك ، وانما كان من نكد الحظ أن نلجأ دائما الى خدمات أى مؤرخ فالكاتب يمكن أن يقدم لنا حقيقة مباشرة ؛ والتفسيرات انما هى مزيد من الماء أضيف الى الخمر • والواقع أنه يمكننا أن نشعر أن ذلك النصح موجه الى النساء اللاتى يستعملن الأطواق تحت ملابسهن والى السادة من الرجال الذين يرتدون الشعر المستعار ثم ينفض السامر ويتوجه كل لحال سبيله وقد حفظ الدرس ، كما انصرف الواعظ معهم اننا قد نبتسم وقد نتعجب من الملابس وقد نعجب بها •

وليست هذه هى الطريقة للقراءة أن نفكر أن الأموات يستحقون كل هذا اللوم ونعجب بتلك الأخلاق ونحكم على طلاقة اللسان التى نجدها باردة وهى رفيعة والفلسفة بالنسبة لنا قد تبدو سطحية وهى عميقة ، ولنحكم على سعادة جامع « الانتيكات » من واقع ما يشير اليه ما جمع ، أن معنى ذلك أن علينا أن نعامل الأدب كما لو كان قدرا قديما مكسورا لا ينكر عمره أحد وانما جماله محل شك ، كأننا نقف فى خزانة خلف أبواب زجاجية • ان المتعة التى لا زالت تجعل من كاتو مسرحية مرغوباً فى قراءتها هى من هذه الطبيعة ، عندما جهر سيفاكس •

هكذا حيث تمتد أرضنا البكر الجديدة وأرضنا البور
وعلى حين غرة ثارت الزوابع الهوج ،
تقذف بعجلة فى الهواء وفى دوامة الاعاصير تدور ،
تثير الرمال وتكسح السهول والوديان ،

والمسافر بلا حول ولا قوة تتملكه دهشة مروعة

يرى الصحراء بلا ماء وقد امتدت تحيط به ،

وتخمد أنفاسه فى اعصار مترب ثم يموت ،

ولا نملك الا أن نتصور الهــزة فى المسرح المكتظ ، والريش على رءوس السيدات يومىء ويميل الرجال للأمام وهم يدقون على عصيهم وكل منهم يعلن الى جاره عن عظمة التمثيل والسمو ثم يصيح «برافو» ولكن كيف ننفعل نحن من هذا ؟ وكيف نتفق مع بيشوب هارد(١) ومذكراته و « ملاحظاته الدقيقة » و « دقته العجيبة سواء فى العاطفة أو فى التعبير» وثقته الهادئة لدرجة أنه عندما « تزول نوبة الشغف الحاضربشكسبير» فسيأتى الوقت الذى تصبح فيه كاتو « هى المسرحية التى يعجب بهــا النقاد الصادقون المنصفون أيما اعجاب » كل ذلك انتاج مسل جدا وفيه خيال لطيف سواء بالنسبة لعقول أسلافنا الهزيلة الزهيدة وكذا بالنسبة لعقولنا نحن ذات الثروة الجسور ولكن هذا ليس بالاندماج المتكافىء فدع جانبا ذلك النوع من الاندماج الذى يجعل منا معاصرين للمؤلف ويدفعنا الى الايمان بأن هدفه انما هو هدفنا نحن أحيــانا قد يلتقط الفرد فى مسرحية كاتو بضع ســطور ليست مهجورة أو بطل استعمالها ، وانما بالنسبة لأغلب المـأساة التى يعتقد دكتور جونسون(٢) أنها « بغير مناقشة أنبل انتاج لعبقرية أديسون » فقد أضحت مناسـبة فقط لجامع الأدب

وربما تناول أغلب القراء المقالات كذلك بشىء من الحذر نتيجـة للاختلاف بين عقليتهم وعقليــــة العصر الذى يقرءون له ان السؤال الذى يجب أن يطرح هو ما اذا كان أديسون ـ كما هو متصل بمستويات معينة من الرقة والفضيلة والذوق ـ لم يصبح واحدا من هؤلاء الناس ذوى الأخلاق النموذجية واللطافة الساحرة الذين لا يسمحون بالخوض فى حديث أكثر اثارة من الحديث عن الجو اننا نشك قليلا فى أن الاسبكتيتر والتاتلر ليسا بشىء سوى حديث مكتوب فى انجليزية سليمة حول عــدد الأيام الصحوة فى هذا العام بالمقارنة الى عدد الأيام المطـيرة فى العــام السابق ان الصعوبة انما هى فى الوقوف معه على نقط متكافئة تبــدو

---

(١) Bishop Hurd.

(٢) Dr. Johnson.

فى القصة القصيرة التى قدمها فى أحد الأعداد الأولى من التاتلر عن « سيد شاب متوسط الفهم ذو حيوية متدفقة له نصيب ضئيل من المعرفة بالقدر الذى يجعل منه ملحدا أو مفكرا حرا وانما ليس فيلسوفا أو رجلا ذا منطق » وهذا السيد الصغير يقوم بزيارة لوالده فى الريف وتروى القصة « ليوسع من ضيق تفكير القرية وقد حقق فى ذلك نجاحا لدرجة أنه تبسط مع الساقى فى حديثه وهو جالس الى المائدة وتحدث مع أخته الكبرى وهو سكران يترنح حتى انه ذات يوم وهو يتحدث عن كلبه الحارس قال « انه ليتساءل هل سيبقى كلبه « ترى » (١) خالد الذكر كأى فرد من أفراد العائلة ، وفى حمى النقاش أخبر والده أنه من ناحيته فانه يتوقع أن يمـــوت ميتة كلب » ومن جراء هذا القول ثار الأب فى انفعال صائحا عندئذ يا سيدى سوف تعيش عيشة كلب » وتنـــاول عصاه بيده وضربه بها ليبعده عن طريقه وكان لهذا الحادث وقع طيب عليه حتى انه منذ ذلك اليوم بدأ يقرأ الكتب القيمة ، وهو يعمـــل الآن محاميا لدى محكمة ميدل تمبل. ومن هذه القصة نجد كثيرا من صفات أديسون كرهه للمناظر المظلمة المضطربة واحترامه « للمبادىء التى هى دعامات السعادة والفخار بكل الجمعيات العامة ، كمـــا هى كذلك بالنسبة للأفراد وقلقه على الساقى وايمانه بقراءة الكتب القيمـــة وانتهاؤه بأن يصبح محاميا فى الميدل تمبل هى النهاية السليمة لشاب ممتلىء حيوية وقد تزوج هذا الاديسون من كونتيسة » وقـــدم أحكامه الصغيرة الخاصة بالأعيان وعنـــدما أرسل فى طلب لورد وريك(٢) أبدى ملاحظته المشهورة عن كيف يمكن أن يموت مسيحيا بعد أن أخنى عليه الدهر حتى ان عواطفنا تحولت نحو المغفلين وربما نحو أمير صغـير ذى لوثة أكثر مما نشفق على هذا السيد المتحجر الذى ذهب فى نوبة تشنج من السرور النفسى وهو على فراشه

دعنا نزيل مثل هذه القشور ما دامت نتيجة لصدأ اعتور فطنة بوب أو لرواسب من مناحات منتصف عصر فيكتوريا ثم ننظر ماذا تبقى لنا فى وقتنا فاننا نرى انه قد تبقى لنا ـ فى المقـام الأول ـ الفضيلة التى تستحق الاجلال وهى التى لازالت قائمة رغم مضى قرنين من الزمان كانت خلالهما مقبولة القراءة . ويمكن لأديسون أن يطالب بذلك بحق ، ثم اندمج أديسون فى تيار النثر المنمق اللطيف وبهذا أضحى أسلوبـه

---

(١) Tray.

(٢) Lord Warwick.

كالدوامات الصغيرة لمساقط المياه التى تتشكل على السطح الأملس الجميل فتضفى عليه التنوع وبدأنا نتعرف على الميول والخيالات والغرائب من جانب كاتب المقال التى تضىء أسلوب رجل الأخلاق المتأنق المعصوم من الخطأ والتى تقنعنـــا بأنه ـ على الرغم من أنه كان كثير الكلام عن الأخلاقيات فانه كان ذكيا ولم يكن سطحيا على الرغم من كل هذا انه متيقظ الى أقصى درجة ولقد استرعى انتباهه الفراء الذى يســتعمل لتدفئة اليدين ورباط الساق الذهبى والقفازات ذات الدانتيل انه يلاحظ ذلك بحدة وبنظرة خاطفة ولكن بغير عنف بل بنظرة مليئة بالبهجة أكثر منها مليئة باللوم كان العصر كله مليئا بالحماقات من غير شك فهنا مقاه مكتظة برجال السياســة الذين يتحدثون عن الملوك والأباطــرة تاركين شئون أنفسهم تتدهور وفى دار الأوبرا يصفق النظارة للأوبرا الايطالية كل ليلة وهم لم يفهموا كلمة واحدة منها والنقاد يتناولون بالنقد الروابط الأدبية وهناك رجال يدفعون ألفــا من الجنيهات ثمنا لحفنة من بذور التيوليب أما عن النساء أو « الجنس اللطيف كما كان يحب أن يسميهن أديســـون فان حماقاتهن تفوق الحصر ولقد بذل أديســـون كل ما فى طاقته لكى يعددها بدقة محببة كشـــفت عن ثقل ظل سويفت(١) ولـكنه ـ أى أديسون ـ استطاع أن يعدد تلك الحماقات بأناقة ومتعة طبيعية كما تكشف عنها الفقرة التالية

انى أعتبر المرأة حيوانا جميلا خياليا يمكن أن يحلى بالفراء والريش وبالآلىء والماس وبالتبر والحرير ويقدم الفهد جلده تحت أقدامهم لتصنع لنفسها منه غطاء للرأس ويسهم الطاووس والببغاء والبجعة فى رباط ساقها أما البحــار فيفتش فيها عن الأصداف وفى الصخور عن الأحجار الكريمة وكل جزء من الطبيعة يسهم فى تزيين مخلوق هو فى الواقع أروع عمل للطبيعة كل ذلك سوف أتقبله أما بالنســبة للقميص الذى أتحدث عنه فانى لســت بمستطيع تحمله أو السماح به

فى كل هذه الأمور كان أديسون على جانب من الذكـاء والذوق والتحضر أما عن الرابطة الأدبية الصغيرة فهى غالبا غير واضـحة ومع ذلك فهى لازمة اذ أنها توقف ـ فى كل العصور ـ حياتهـا لخدمة الفن

---

(١) Swift.

والأدب والموسيقى تلاحظ وتميز وتجد سعادة فى النقد وكان أديسون واحدا منهم متميزا٠ وللعجب كأنه معاصر لنا ويمكن للمرء أن يتصور أنه كان من المفيد جدا لو أننا أعطيناه مخطوطا لنتعرف على رأيه فيه وكم يكون هذا الرأى مفيدا بقدر ما هو شرف عظيم ورغم أنف بوب يمكن أن نتصور أن نقد أديسون كان يمكن أن يكون جيد الترتيب ، فهو واسع الادراك كريم مع كل جديد فهو لا يناصب التجديد العداء لمجرد أنه جديد ومع ذلك فهو فى أحسن صوره لا يتردى عن المستوى٠ ان شجاعته التى هى دليل قوته تظهر فى دفاعه عن القصة الشاعرية الكر (١) والفر لقد كا لديه فكرة واضحة عما قصده بعبارته «فيها شفافية ، وروحه روح كاتب رقيق اذا ما تبعناها فى القصة الشاعرية البربرية أو نعيد اكتشافها فى «ذلك العمل المقدس» فى الفردوس المفقود وفضلا عن ذلك فلم يكن مدركا للجمال الساكت المستقر للأموات فحسب بل كان مدركا كذلك للحاضر وناقدا مرا لذوق « ذلك الحاضر الهمجى » ، ومتيقظا لحماية حقوق اللغة وشرفها ومؤيدا للبساطة والهدوء وهنا نجد أديسون فى كتابات ويل وباتون(٢) أنه كان يجلس حتى ساعة متأخرة من الليل يحتسى من الخمر أكثر مما فى صالحه ثم يتغلب على سكوته رويدا رويدا ويبدأ فى الكلام ٠ وعندئذ «يأسر انتباه كل فرد ويجذبه اليه»

حوار اديسون » كما قال بوب » فيه كل شىء أكثر سحرا مما وجدت فى أسلوب أى رجل آخر » ويمكن للمرء أن يؤمن بذلك لأن مقالاته فى أسمى تحفظها فيها تجويد البساطة مع حوار رصين رائع انها تمسك الابتسامة قبل أن تتسع وتصير قهقهة عالية وتتحول الأفكار بعيدة عن الاستهتار ويمكن تلخيصها بسهولة والآراء تقفز براقة جديدة ، متنوعة تصدر تلقائية بغير كلفة أو جهد ويبدو أنه يفصح بلسانه عما يجول برأسه ولا يجد حرجا مطلقا فى اعلان رأيه ولقد وصف نفسه فى صورة العود أروع مما فى استطاعة أى شخص آخر أن يصفه

> ان العود شخصية تتعارض مباشرة مع الطبلة فهو يخرج ألحانا رقيقة جدا بمفرده أو حينما يكون بين مجموعة صغيرة من الموسيقيين ان أنغامه غاية فى الحلاوة منخفضة جدا ومن السهل أن تتوه وسط العديد من الآلات ، وقد يتلاشى مع الفرقة الصغيرة ما لم توليه انتباها خاصا٠ يندر

---

(١) Chevy Chase.

(٢) Will and Button.

أن يسمع العود فى جمـــاعة أكثر من خمسة بينـما الطبلة تظهر نفسها فى مجموعة قوامها خمسمائة • وعلى ذلك فعازفى العود رجال ذوو عبقرية رقيقة ، فيهم تأمل غير عادى ، وفيهم لطف فائق ويقدرون أشخاصا ذوى ذوق رفيع هم الحـــكام حقا لمثل هذا اللحن الملىء بالسرور الذى ينساب فى ليونة »

لقد كان أديسون عازف عود ومما لا شك فيـــه أن مديح لورد ماكولى لم يوفه حقه فهو فى وصفه له وهو فى أوج مقالاته ــ بالشاعر العظيم أو أن يتنبأ بأنه يمكن أن يكون « أعظم قصاص عندنا » لو أنه كتب القصة الطويلة لم يكن مبالغا انه يرتبك لو وضع مع الطبول والأبواق ، فليس هذا تجاوزا فى المديح وانما هو اغفال لما يستحقه ذلك الرجل •ولقد وصفه الدكتور جونسون فأوجز وأوفى ، وصف أسلوبه وصـفات عبقرية أديسون الشاعرية بقوله

ان شعره أولا يجب أن يكون محل تقدير ، ويجب أن نقرر أنه ليس فيه جزالة اللفظ التى تضفى على العواطف رونقا وليس فيه تدفق العاطفة التى تزكى الحرارة وان كان فيه قليـــل من الحمية والحدة التى تعبر عن العـاطفة ، فيه ندرة من العظمة المروعة ، وأحيانا نجد جمال التوافق انه يفكر بانصاف ولكنه يفكر بضعف »

وأوراق سير روجر دى كوفرلى (١) أغلبها يشبه القصة فى مظهرها ولكن أهميتها تتكون من الحقيقة الواقعة وهى أنها لا تمثل شيئا ولا تؤدى الى شىء أو تجعلنا نتوقع شيئا انها موجودة ، سليمة ، كاملة متكاملة فى ذاتها فاذا قرأناها على اعتبار أنها محاولة أولى متهيبة تحتوى على بذور عظمة مستقبلة فاننا نفقد ما يميزها انها دراسات أتخذت من الخارج بمعرفة ملاحظ هادىء أما اذا قرئت كمجموعة واحدة فانها تكون صورة للسيد ومن يحيط به وكلهم فى مراكزهم الاجتماعيـــة المتميزة • فواحد بعصاته والثانى بكلاب صيده وانما كل منهم يمكن أن ينفصل عن الباقين دون افساد للتصميم الكلى أو دون افساد لذاته • أما فى القصة حيث يكون الفصل امتدادا لسابقة أو تمهيدا لـما يليه ، فان هذا التجزىء يكون غير محتمل فى هذا العمل بل يشوه السرعة والتشابك والرسم •هذه الصفات المميزة هى التى ربما تفتقر اليها طريقة أديسون ومع ذلك فلهـذه

(١) Sir Roger de Coverley.

الطريقة مزاياهـا الجليلة كل من هذه المقـالات متكامل تكاملا تاما والشخصيات محددة فى ترتيب متين وخطوط واضحة ولما كان مجـال المقال ضيقا ضيقا لا مفر منه ــ وذلك لأن المقال ثلاث صفحات أو أربع فقط ــ فليس هناك مجال كاف للعمق الكبير وللمهارة المركبة ولدينـا الاسبكيتر مثلا طيبا للأسلوب الفطن أو القاطع الذى كان يرسم به أديسون صوره ليملأ بها الاطار الصغير

« سومبريوس (١) واحد من أبنـاء الأسى انه يظن نفسه نكرة ومفروض عليه أن يكون حزينا يائسا فهـو يعتبر الضحكة المفاجئة تصدعا فى اليمين المقدس تفزعه الايماءة البريئة كأنها الكفر اذا أخبرته أن شخصا يتقـدم من لقب شرف رفع يديه وعينيه الى السماء فى زهد واذا وصفت له احتفالا عاما هز رأسه استنكارا واذا عرضت عليه معدات المرح استعاذ بالله كل مباهج الحياة فى نظره حتى التافه منها أبهة وغرور الفرح عنده فجـور والذكاء كفر لقد كانت فضيحة بالنسبة اليه أنه كان مرحا فى صغره ولعوبا فى طفولته وهو يجلس فى طقوس التعميد أو فى احتفال زواج كما يجلس فى جنازة ، ويتنفس الصعداء عندما تنتهى قصة مرحه ويقوم للعبادة عندما يستعد الآخـرون للمرح ــ وعلى العموم فان سامبريوس رجل متدين وكان يمكن أن يعتبر تصرفه هذا مناسبا لو أنه كان معاصرا لعهد اضطهاد المسيحية »

ان القصة ليست تطويرا من هذا الطراز لسبب قوى هو أن التطوير مستحيل بين هذه السطور • أما فى مثل هذه المقالات فان صورةالشخصية متكاملة ، وعندما نجد عددا من هذه الروائع متناثرة فى الاسبكتيتر والتاتلر وفيها هذه الخيالات والنكات بهذا الاسلوب فان بعضا من الشك فى ضيق مثل هذا المجال يصبح حقيقة لا مفر منها ان شكل المقـال يسمح فقط لاتقانه الذاتى بالتحديد واذا ما أضحى الشىء متقنا فان الأبعاد بالذات لهذا الاتقان تصبح غير هامة وقلما يستطيع المرء أن يقرر بالاجمـاع تفضيل المقال على القصـة اذ يمسى وكأنه يفضل قطرة المطر على نهـر التيمز مع أن كلا منهما هام فى ذاته وعندما قلنا كل ما يمكن أن يقال ضد المقالات ــ من أن كثيرا منها كئيب، والآخر سطحى والكتابة فيها

---

(١) Sombrius.

شاحبة والورع اصطلاح متفق عليه والآداب رثة ـ فلا زال الواقع باقيا هناك وهو أن مقالات أديسون انما هى مقالات كاملة متقنة ان فى ذروة أى فن تأتى دائما لحظة يكون فيها كل شيء يبدو وكأنه مسخر ليعين الفنان فيصبح فى انتاجه سعادة طبيعية من جانبه الذى يظهر للجيل القادم كأنه نصف واع لهذه السعادة الطبيعية وهكذا كان أديسون يكتب يوما بعد يوم والمقال تلو المقال عالما بالفطرة وبالدقة كيف يكتب المقال وسواء أكان ذلك عن شيء رفيع أم فى أمر وضيع سواء أكانت الملحمة أكثر عمقا أم أن القصيدة الشعرية أكثر عاطفة فمما لا شك فيه أن الفضل يرجــع الى أديســون فى أن النثر ظل نثرا ولم ينقلب شعرا ـ فالنثر هو الوسيط الذى يجعل تعبير الناس متوسطى الذكاء عن آرائهم ونقلها الى العالم ، أمرا ممكنا ان أديسون هو السلف المحترم لخلف لايحصون عددا فلنلتقط أول جريدة أسبوعية ولنقرأ فيها المقال عن مباهج الصيف » أو عن « تقدم السن » فلسوف يظهر تأثير أديسون وفى الوقت نفسه سوف يشير أيضا الى أننا ـ لولا اقتران اسم مستر ماكس (١) بيربوم ـ كاتبنا الوحيد فى المقال ـ به ـ لكنا قد خسرنا فن كتابة المقال فعلى الرغم من وجهات نظرنا وفضائلنا وعواطفنا وأعماقها فان المقال ـ وهو كالقطرة الفضية التى تحوى داخلها السماء كلها وكثيرا من الرؤى البراقة عن الحياة البشرية فى وضوح ـ أصبح لا يحتوى الا على معلومات قد جمعت على عجل وحتى فى هذا فان كاتب المقال يبذل جهدا كبيرا ربما وهو لا يدرى لكى يكتب مثلــما كان يكتب أديسون

لقد أسعد أديسون نفسه فى طريقته المعتدلة أكثر من أى شخص آخر ـ بتأملات عن مصير كتاباته لقد كانت لديه فكرة عادلة عن طبيعتها وقيمتها فقد كتب « لقد أوضحت حديثا كل مراكز السخرية » ومع ذلك وبسبب أن كثيرا من نقده وجه نحو المباهج سريعة الزوال كالأزياء السخيفة والعادات المضحكة وأنماط الحديث المتكلف » فسوف يأتى الوقت ـ ربما بعد مائة عــام على الأقل ـ عندما تصبح فيه مقالاته ـ كما تصور ـ « مثل قطع كثيرة من طبق قديم حينما يكون للوزن قيمته بينما يكون الشكل قد زال » مرت مئتا عام وأصبح الطبق هشا والطابع كاد ينمحي ومع ذلك فالمعدن من الفضة الخالصة

---

(١) Mr. Max Beerbohm.

حياة المغمورين

قد تحقق خمس شلنات اشتراكا مدى الحياة فى هذه المكتبة الذابلة المهجورة التى أصبحت لا تتفق مع العصر ، هذه المكتبة التى بمساعدة هينة من قيمة الاشتراك تزود أساسا ، من أرفف أرامل رجال الدين وأعيان الريف اللائى يرثن من الكتب مالا قبل لهن على تنظيفها . فى منتصف الحجرة البارحة الهاوية التى تطل نوافذها على البحر وتسمح بوصول صياح الرجال وهم ينادون على سمك السالمون الصغير للبيع فى الشارع العتيق ـ تعرض أوانى الزهور فى صف وفيها عينات من الزهور المحلية الذابلة وتحت كل منها كتب اسمها كما جلس المسنون الكسالى الذين ملأهم الضجر ينتقلون من جريدة الى جريدة وقد ثبتوا أعينهم على أعداد قديمة من جريدة لندن (١) المصورة وويزليان كرونيكل (٢) لم يرفع أحد صوته بالكلام فى هذه الغرفة منذ افتتاحها عام ١٨٥٤ ان المغمورين راقدون على الأرفف وقد استند كل منهم على الآخر فى استرخاء كما لو كانوا من شدة نعاسهم لا يقدرون على الوقوف . قد أهملت ظهورهم وتلاشت أسماؤهم ولماذا نقطع عليهم هدوء رقادهم ؟ لماذا يعيد الناس فتح تلك القبور المسالمة ؟ هذه هى الأسئلة التى يبدو أن أمين المكتبة يسألها وهو ينظر من خلال نظارته متبرما بواجبه الذى أصبح مضيئا ليعيد بين شواهد القبور هذه التى أصبحت بلا أسماء ، ليعيد أرقام ١٧٦٣ ، ١٠٨٠ ، ٦٠٦ الى أماكنها

لما كان المرء يجب أن يتصور نفسه محررا يتقدم حاملا المشعل أمام السنين الضائعة لينقذ من بين الأشباح الجانحة مسز بيلكنجتون (٣)

---

(١) The Illustrated London News.

(٢) Wesleyan Chronicle.

(٣) Mrs. Pilkington.

ونيافة هنرى اليمان(١) ومسز آن جيلبرت(٢) الذين طال انتظارهم وهم يستنجدون لأنهم منسيون فى هذا الظلام المتزايد وقد يسمعون شخصا قادما فاذا هم يجرجرون أذيالهم ويسوون من شأنهم ثم هم بعد ذلك يتعززون تتوارد الأسرار فتملأ أفواههم ويتوقعون الى الافضاء بمكنون أسرارهم حتى يشعروا بالراحة القدسية أزيل التراب وظهرت مسز جيلبرت ما أجمل الاتصال بالحياة ! انه مفيد على الفور ومهما كان عمل مسز جيلبرت فانها لم تكن لتفكر فينا فقد بعدت الشقة بها كلو شستر حوالى عام ١٨٠٠ كانت مستقرا ومقاما لآل تيلر(٣) الأبناء كما كانت كنسنجتون(٤) جنة » أمهم وكان معهم آل سترات(٥) وهيل(٦) وستابلتون(٧) وكان هناك الشعر والفلسفة والنحت أما بالنسبة لشباب تيلر فقد أنشئوا على العمل الشاق ، حتى اذا ما انتهى العمل فى يوم طويل فى صور والدهم فانهم يأتلفون حول المائدة للعشاء مع آل سترات وهم محقون فيما يشعرون به من سعادة فقد حصلوا على جوائز لما قاموا به من كتب الجيب التى ينشرها دارتون وهارفى(٨) وقد كان أحد أفراد عائلة سترات يعرف جيمس مونتجومرى ويدور الحديث بين تلك الجماعات الحزينة حول الزخارف المراكشية وحول القطط كوحدة زخرفية اذ كان « بن سترات » الشيخ شخصية غريبة فهو لا يتكلم ولا يسمح لبناته بأكل اللحوم ولهذا فليس بمستغرب أنهن كن يمتن بالسل وكان الحديث حول طبع مجلد يشترك فى كتابته أشخاص متعددون وسوف يعطى عنوان « الشعراء المؤتلفون » (٩) ويشترك معهم فيه جيمس ان لم يكن روبرت بنفسه وكان آل ستابلتون شعراء كذلك فقد كان مويرا وبيثيا(١٠) يتجولان حول أسوار المدينة القديمة فى بالكيرن هيل(١١) يقرآن الشعر تحت ضوء القمر وربما كانت حمى الشعر منتشرة أكثر من اللازم فى كولشستر عام ١٨٠٠ واذا ما نظرنا الى الوراء فى خضم حياة

---

(١) Rev. Henry Elman.

(٢) Mrs. Ann Gilbert.

(٣) Taylors.

(٤) Kensington.

(٥) Strutts.

(٦) Hills.

(٧) Stapletons.

(٨) Darton and Harvey.

(٩) The Associate Minstrels.

(١٠) Moira and Bithia.

(١١) Balkerne Hill.

الرخاء العميم نجد آن وهى تندب كثيرا من الأعمال الفاشلة وكثيرا من الوعود التى لم تتحقق ونرى كذلك أفراد عائلة ستابلتون يموتون صغارا وهم مشردون بائسون فيعقوب « بوجهه الأسمر الذى ينطق بالازدراء » قد أقسم أن يمضى الليل باحثا على سوار آن الذى فقدته فى الطريق فاختفى « وآخر ما سمعت عنه أنه يعيش بين أطلال روما وقد أصبح هو نفسه حطاما» أما عن آل هيل فان مصيرهم أسوؤها جميعا فهم يعتبرون الحضور للتعميد العام عملا طائشا ولكن ماذا عن زواج ابنتهم من « كابتن م » ! لقد حذر كل فرد فانى هيم الجميلة من الزواج بالكابتن م ومع ذلك فقد رحلت معه فى مركبه الصغير وانقطعت أنباؤها فلم يسمع عنها شيء خلال سنوات طويلة وذات ليلة ــ وكان آل يتلور قد رحلوا الى أونجار ــ وبينما السيد تيلور الشيخ وزوجته جالسان أمام الموقد سرح بهما الفكر ــ وكانت الساعة التاسعة والقمر بدرا كاملا وكانا قد تعهدا بأن ينظرا الى القمر ويفكرا فى أولادهما الغائبين اذ سمعا طرقا بالباب ، فذهبت الأم تيلور لتفتح للطارق ولكن من تكون تلك المرأة الحزينة ذات المظهر الرث الواقفة بالباب ؟ « ألا تذكرين آل سترات وستابلتون وكيف حذرتنى من الزواج من كابتن م ؟ هكذا همست فانى هيل اذ كانت هى الواقفة بالباب ــ مسكينة فانى هيل لقد تهالكت وذوى عودها مسكينة فانى هيل لقد كانت تمتلىء شبابا وحيوية انها تعيش الآن فى منزل منعزل ليس ببعيد عن منزل آل تيلور ، وهى مضطرة لأن تكد وتشقى من أجل الانفاق على عشيقة زوجها اذ بدد الكابتن م جميع ثروتها وحطم كل حياتها

تزوجت آن من « مسترج » طبعا طبعا ان الكلمات ترن بالحاح من خلال تلك المجلدات الغامضة • وذلك لأن فى العالم الفسيح حيث يهيىء لنا كتاب المذكرات احساسا متجهما بشىء غير متوقع ، احساسا بأن الحياة مثل موجة تتجمع تحت مركب صغير وتحمله معها للأمام وهكذا كان يفكر القوم فى كولشستر عام ١٨٠٠ وهم يقرضون الشعر ويقرءون أشعار مونتجومرى وهكذا بدءوا يتفرق آل هيل وستابلتون ويقرءون ثم يختفون كما يعلم كل واحد أنهم سوف يختفون ؛ ولكن ، هنا بعد سنين طوال لا زالت آن تكتب بغير اهتمام وفى النهاية أقام الشاعر مونتجومرى بنفسه فى منزلها وهى ترجوه أن يكرس ابنها للشعر وذلك بمجرد حمله بين ذراعيه ثم يرفض هو ذلك (لأنه عزب) ويمسك بيدها فى جولة وعندما يسمعان الرعد تعتقد آن أنه قصف المدافع بينما يقرر مونتجومرى

بصوت لن تنساه أبدا «بلى انها قصف مدافع السماء !» هذه هي احدى مباهج المجهولين على كثرتهم وشهرتهم ، فبدلا من أن يحتفظ كل منهم بشخصيته منعزلة عن الآخرين كما يفعل الناس المرموقون ، فانهم – على ما يبدو – يندمجون الواحد في الآخر ، حتى لوحاتهم والصفحات التي تحمل أسماءهم والمقدمات ، كل هذا يتلاشى وتذوب صفحاتهم العديدة في تلاحق السنوات لدرجة أننا ونحن مستلقون على ظهورنا ننظر من خلال الغلالة الرقيقة للحياة المتعددة الجوانب نجد أننا ننتقل بلا صعوبات من جيل الى جيل ومن حياة الى حياة • ان الرؤى هي التي تفصل بين بعضها البعض اننا نرى مجموعات منهم • وها نحن نسير مع السيد المان الشاب وهو يتحدث مع السيدة بيفين في برايتون • انها بلا ذراعين ولا ساقين ويحملها رجل عند خروجها وعند أوبتها • وهي تعلم أخته رسم اللوحات الصغيرة• ثم اذا به في العربة في الطريق الى أكسفورد ومعه نيومان ونيومان لا ينطق بشيء والمان – بالرغم من ذلك – يعتقد أنه تعرف على كل العظماء من رجال عصره • ويسرح بفكره في الماضي ثم يئوب فيفكر في المستقبل انه أخذ يقطع حقول ساسكس الخالدة سيرا حتى بلغ من العمر أرذله وهناك يجلس في ابراشيته وهو يفكر في نيومان ، كما يفكر في السيدة بيفين ويتخذ من صناعة حقائب الدوبار سلوته الكبرى ثم ماذا ؟ لنمشي منقبين • لا شيء كثيرا يحدث ولكن الضوء الخافت ينبه العينين ولنرقب الآنسة فرند وهي تحجل الى جانب والدها في شارع ستراند • ويقابلان رجلا يشع الذكاء من عينيه فيقول السيد فرند « السيد بليك • » ثم نرى كذلك السيدة داير وهي تصب لهما الشاي في حانة كليفورد والسيد تشارلس لامب كان قد غادر الحجرة الآن ونحن نسمع السيدة داير وهي تقول انها تزوجت من السيد جورج لأن المرأة التي كانت تغسل له حاجاته كانت تخدعه للغاية كم كان يدفع جورج لقاء غسل قمصانه ؟ انها تتساءل ؟ وبرقة وبجمال – كالسحاب في أمسية عاطرة – تختفي السماء في الظلام مرة أخرى ظلام ليس فارغا انه ظلام ممتلىء بالنجوم الدقيقة لحياة تفوق الحصر وفجأة ينفلق الظلام فنرى سفينة صغيرة بائسة تقلع من ساحل ايرلنده في منتصف القرن التاسع عشر وها هو جو عام ١٨٤٠ الذي لا نخطئه حيث كانت تقف امرأة شابة بمفردها على ظهر السفينة وهي ترتدي من القماش المانع للماء وغطاء الرأس ما يجعل المرأة وكأنها وحش وشعرها مرسل خلف ظهرها تبدو وكأنها شبح يتمايل على ظهر السفينة وقطرات المطر تتساقط من غطاء رأسها لقد كانت تقف بمفردها تحملق في البحر وهي في هذا الجو الذي يعاملها

بغير عنف • لا ، لا ، لا ، انها لن تترك السطح بل سوف تبقى هنـاك حتى يخيم الظلام دامسا • « ان حبها الكبير للبحر يجذب هذه الزوجة وهى أم مثالية من آن لآخر وبقوة لا تقاوم بعيدا عن منزلهـا لا أحد يعرف أين تذهب الا زوجها ولم يعلم أبناؤها بذلك الا متأخرا فهى فى هذه الظروف وعندما تختفى بلا مقدمات لبضعة أيام ، تقوم فى رحلة قصيرة فى البحر » وهى تكفر عن اثم اقترفته وذلك بالعمل لعدة شهور بين فقراء ميدلاند ثم ينتابها الحنين فتسر به الى زوجها على انفراد وتقلع مرة أخرى هذه المرأة هى أم سير جورج نيونز

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن البشر كانوا سعداء موهوبين وهم معصوبو العينين بالنسبة للقدر والمصير وهم على درجة كبيرة من الجـلد والاهتمام فى نشاطهم ، لولا تلك الصور المتكررة التى تحدجنا بنظراتهـا فجأة ، وكلها — فى أحسن الظروف — تصر اصرارا باهتا على ألا يغمرها النسيان ، انهم رجال لم يصيبوا شهرة ، رجال لهم رغبة مستعرة للانصاف والترضية رجال أمثال هيـدون(١) ومارك باتيسـون(٢) ونيـافة بلانكو هوايت (٣) • وفى جميع أنحاء العالم قد لا يوجد الا شخص واحد هو الذى ينظر مليا ثم يحاول أن يفسر نظرة التحديد والتلويحـات الغاضبة باليد ، وذلك قبل أن ينصرف انتباه المرء للأبد — فى زحمـة شئون البشرية — عن بقايا الوجوه وأصداء الأصـوات وذيول ملابس السهرة المتأرجحة وأربطة غطاء الرأس وهى جميعا تختفى فى ممرات أيكة الحياة المتشعبة • ما هى مثلا تلك العجلة الهائلة — التى تربط مصائر الناس فى بركشير (٤) فى القرن التاسع عشر ؟ انهـا تدور بسرعة متزايدة ؛ وفجأة يقفز شاب بعيدا عنها ، وفى اللحظة التالية تهوى عند حافة حفرة من حجر الطباشير ثم تندفع حطاما • هذا هو ما يفعله ادجورث ونعنى به ريتشارد لوفيل(٥) ادجورث(٦) نذير الشؤم

---

(١) Haydon.

(٢) Mark Pattison.

(٣) Rev. Blanco White.

(٤) Berkshire.

(٥) Richard Lovell.

(٦) Edgeworth.

وصل الينا هذا كله فى مجلدين من الذكريات   الرجل الذى ضايق بايرون (١) وصديق داى (٢) ووالد ماريا (٣)   الرجل الذى اخترع تقريبا التلغراف واخترع بالفعل أدوات لقطع اللفت ولتسلق الجدران وكان يتعاقد لبناء الكبارى الصغيرة ورفع العجلات من على العوائق فى الطريق ، رجل كله كفاءة وانتاج متقدم ولكنه بقى ـ ونحن نفحص مذكراته ـ ثقيل الظل   فلقد وهبته الطبيعة طاقة لا يقف دونها أى رادع أو وازع   ان الدم يتدفق فى عروقه بسرعة أكثر من المعدل بعشرين مرة على الأقل   وجهه أحمر مستدير ممتلىء بالحياة   وعقله فى سباق ولسانه لم يتوقف عن الكلام   تزوج أربع مرات وأنجب تسعة عشر طفلا من بينهم كاتبة القصة ماريا   وفضلا عن ذلك فقد عرف كل شخص وأتى كل شىء ان طاقته تفتح الأبواب السرية جدا على مصراعيها وتنفذ الى داخل المساكن الخاصة للغاية   فكانت جدة زوجته مثلا ، تختفى فى ظروف غامضة كل يوم   فاقتحم ادجورث عليها خلوتها فوجدها وخصلات شعرها الأبيض طائرة وعيناها تفيضان بالدمع فى صلاة خاشعة أمام المسيح   لقد كانت كاثوليكية تابعة لكنيسة روما ولكن عن أى ذنب كانت تتوب ؟ اكتشف ادجورث بطريقة ما أن زوجها قتل فى مبارزة وأنها تزوجت بعد ذلك من الشخص الذى أرداه قتيلا   ان ارتماءها فى أحضان الدين هو السلوى التى تتساوى مع بشاعة فعلتها »

وأخذ ديك ادجورث يفكر فى هذه الذلة عندما زلت قدمه مرة أخرى. ثم كانت هناك المرأة الشابة الفاتنة تقيم فى قلعة وسط غابات دوفينى نصف مشلولة لا تقدر على الكلام الا همسا ، وكانت راقدة عندما اندفع ادجورث داخلا فوجدها تقرأ   ولاحظ ستائر الجوبلان تنسدل على جدران القلعة ؛ وآلافا من الخفافيش « وحيوانات أخرى تنبعث منهــا الروائح الكريهة كراهة غير معقولة » ، تعيش فى مجموعات داخل الأقبية السفلى. ولا يدرك أحد من السكان كلمة واحدة قالتها تلك الفاتنة   وانما كانت تتحدث الى الرجل الانجليزى ساعات وساعات عن الكتب وعن السياسة وعن الدين   وهو يستمع   ومما لاشك فيه أنه كان يتكلم معها   وهو الآن جالس لا ينطق ولكن ما الذى يمكن أن يفعله شخص معها ؟ واحسرتاه لابد من تركها راقدة غارقة بين أنياب الحيوانات المعلقــة على الجدران

---

(١) Byron.

(٢) Day.

(٣) Maria.

والأقواس المهملة والشيوخ الذين يقومون على خدمتها وهى تقرأ ولما كان ادجورث مكلفا بتحويل نهر الرون عن مجراه فلابد أن يعود الى عمله. وقد سيطرت على رأسه فكرة واحدة « لقد وطدت العزم على الاستمرار المنتظم فى تحسين مداركى »

انه لا يبوح بشىء فى المواقف الخيالية التى كان يجد نفسه فيها وكانت كل تجربة يمر بها تؤدى الى تقوية شخصيته لا غير فهو يفكر وهو يرقب ثم هو فى النهاية يصلح من نفسه كل يوم . ولقد كان يلقن السيد ادجورث أبناءه بقوله فى استطاعتك أن تصلح نفسك كل يوم من أيام حياتك « اعتاد أن يقول بأنه بالقدرة على اصــلاح النفس يمكنهم – فى الوقت المناسب – أن يصبحوا شــــيئا مذكورا ودون ذلك فانهم يمسون نكرات بمرور الزمن » وبفضل ما يتمتع به من ثبات الجأش والمثابرة وتزايد اصراره على الثقة بنفسه يوما بعد يوم تكاملت فيه الأنانية وهو يكشف عن الشخصيات الهيابة التى تتوارى أو التى كان يمكن أن تختفى فى الظلام بينما هو دائب فى عمله أو وهو يضرب الأرض فى مشيته فالعجوز التى قطع عليها خلوة كفارتها ما هى الا واحدة من كثير من الشخصيات التى ظهرت على هامش حياته ، تلك السيدة الصامتة الغريبة تكشف لنا بطريقة لم تخطىء حتى الآن امتعاضها من هذا الرجل ذى الشهرة الواسعة والذى يقتحم عليهن خلواتهن فى دراساتهن ويقطع عليهن صلواتهن اننا نراه من خلال أعين تلك الشخصيات ، نحن نراه بينما لا يخطر على بالهن أنه يرى كم كان طاغية مع زوجتـــــه الأولى كم عانت فوق ما تحتمل ! ولكنها لم تشك أو تئن . انه ديك ادجورث الذى روى قصتها وهو لا يدرى أنه يفعل ذلك يقول فى ملاحظاته « لقد كانت هناك ميزة فريدة فى شخصية زوجتى وهى أنها لم تبد عدم ارتياحها لصداقتى الوطيدة مع سير فرانسس دى لافال كما لم تبد كرهها الشديد للسيد داى وليس هناك فى انجلترا من هو أكثر خطورة أو تضليلا من أحدهما ولا من هو أكثر فضيلة وأحسن رفيقا من الثانى انها فعــلا ظاهرة فريدة جدا » .

لقد كانت السيدة ادجورث بادىء الأمر فتاة معدمة ابنة رجل ريفى خسر كل شىء وكان يجلس أمام المدفأة وكلما احترق الفحم رفعــه من الموقد الى وعاء الرماد وهو يهمهم من وقت لآخر كما لو كان مشروعا جديدا قد طرأ على ذهنه ليستعيد به ثراءه وهى لم تلق حظا من التعليم وعلمها مدرس خط متجول كيف تكتب بضع كلمات . بينما لم يكن ديك

ادجورث قد تخرج بعد وبينما هو فى طريق عودته من أوكسفورد وقعت فى غرامه وتزوجته حتى تهرب من الفقر والبؤس والقذارة ويصبح لها زوج وأولاد مثل سائر النساء • ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ عربات ضخمة تهبط على سفح الجبل وفيها ابن البناء ومركبات بحرية تقلع وعربات ذات أربع عجلات متهالكة وآلات فاشلة لقطع اللفت وابنها الصغير يهيم فى الريف ـ كابن أى رجل فقير ـ عارى القدمين ، غير متعلم والسيد داى يحضر ويتناول الافطار ثم يبقى للعشاء وهو فى حديث مستمر لا ينقطع عن المبادىء العلمية وقوانين الطبيعة

وهنـــا نقابل واحدا من تلك الشراك لهذه الجولات الليليــة بين الشخصيات الهامة ولكنها فى عالم النسيان انه من الصعب أن نتمسك ـ كما يجب علينا مع الأفاضل من الناس ذوى الثقة ـ بالوقائع• ولا يجوز أن نضع مناظر لهذه الحياة والتى لو عاد بنا الزمن الى الوراء لـكانت مناظر تحتاج الى دقة أكثر فمع شخصية مثل توماس داى ـ بصفـــة خاصة ـ الذى جاوز فى حياته حدود المعقول نجد أنفســـنا ننضح بالاشمئزاز ، كقطعة من الاسفنج امتصت أكثر مما يمكنها أن تحتفظ به بداخلها ، فبدأ يتساقط القطر بوضوح• ان لبعض من هذه المناظر سحرها الذى يعود الى فيض من الخيال أكثر مما يستند الى الواقع المعقول فمثلا نشاهد كل المأساة التى تمر بها السيدة ادجورث خلال حياتها اليومية : وحيرتها ووحدتها ويأسها وكيف كانت تعجب مما اذا كان هنـــاك أى شخص فى حاجة الى أدوات لتسلق الجدران ، وأكدت لزوجها ولصديقـه أنه من الأفضل تقطيع اللفت بسكين وكيف وقد زجرها زوجها وأقنعها بأنها أخطأت خطأ فاحشا حينما اجترأت على أن تسمح لمثل هذه الأفكار أن تدور فى رأسها لدرجة أنها أصبحت تخشى الحضور اليومى للرجل الشاب الطويل القامة بوجهه المتباهى الحزين الممتلىء بآثار الجدرى وبشعره الأشعث الأسود الغزير ذلك الرجل المتأنق ذى الشخصية المتحذلقـــة والذى يتكلم بسرعة وبطلاقة ودون انقطاع لساعات متتالية عن الفلسفة والطبيعة وعن الاستاذ روسو لقد كان بيتها فكان عليها أن تعد له وجبات طعامه • وانه وان كان يأكل كما لو كان نصف نائم فان شهيتــه تفوق الوصف ووجدت الزوجة أن الشكوى لزوجها عديمة الجدوى فقد قال ادجورث « انها تنعى أشياء تافهة » واستطرد يقول « ان المرأة الدائبة الشكوى التى تعيش معها لا تحقق الهناء فى المنزل » وبعد ذلك وبكل صفاقة وبلادة حس يسألها ما الذى يضايقها • هل تركها وحدها ؟ ففى

السنوات الخمس أو الست وهى عمر حياتهما الزوجية لم ينم بعيــدا عن المنزل أكثر من خمس مرات أو ست ويؤمن السيد داى على كلامه أن السيد داى يؤمن على كل شيء يقوله السيد ادجورث فهو يمده بتجاربه. وهو الذى أقنعه أن يترك ابنه بلا تعليم وهو لا يعبأ قيد شعرة بما يقوله أفراد عائلة هنلى وباختصار لقد كان فى الدرك الأسفل من السخافات والتمادى مما جعل حياة السيدة ادجورث عبئا ثقيلا عليها

ومع ذلك دعنا نختار منظرا آخر - مشهدا أخيرا مما يمكن أن ترى فيه الزوجة ادجورث فقد كانت عائدة من ليونز وكان برفقتها السيد داى - شخص فريد وهو واقف على سطح المركب الصغير الذى أقلهمـا الى دوفر ، فارع الطول معتدل القامة وهو يضع اصبعه فى صدر سترته والهواء يداعب شعره وملابسه سخيفة وان كانت من آخر طراز لقد كان متوحشا خياليا ومع ذلك كان ذا ســطوة وعظمة قلما يمكن تصورهما ؛ وهذا المخلوق الغريب الذى يكره النساء كان مســئولا عن امرأة على وشك أن تصبح أما كما تبنى فتاتين يتيمتين ووطد نفسه على أن يتزوج الآنسة اليزابيث سنيد فأخذ يقضى ست ساعات يوميا محاولا تعلم الرقص ومن آن لآخر يشير باصبعه باصرار قاس - ثم يفيق من الحلم الذى يرى فيه الغيوم الداكنة والمياه المتلاطمة وظل انجلترا فى الأفق وقد ألقت به بعيدا - ويعطى أمرا بطريقة مهذبة ومصطنعة لرجل حنكته التجارب وبنبرة متكلفة والبحارة تحملق ولكنها تطيع فقد كان فى أمره شيء من الاخلاص شيء متعال مخالف لما تأخذه عليه ، ثم شيء مريح فيه انسانية أيضا حتى ان الزوجة ادجورث من جانبها وطدت العزم على ألا تسخر منه مرة أخرى ولكن الرجال غريبو الطبع ؛ والحياة قاسية وبتنهيدة حائرة وربما بتنهيدة ارتياح نزلت السيدة ادجورث الى البر فى دوفر ووضعت بنتا ثم ماتت

وفى نفس الوقت يتقدم داى الى ليتشفيلد وقد رفضته اليزابيث سنيد بطبيعة الحال - فقد أفلتت منها صرخة مدوية - كما روى الناس - وصرحت بأنها أحبت داى الرجل النصاب ولكنها كرهت فيــه الرجل المهذب ، ثم اندفعت خارج الغرفة ثم حدث شيء مروع ، وهكذا يستطرد الناس ، فالسيد داى وهو فى ثورة غضبه تذكر اليتيمة سابرينا سيدنى التى رباها لكى تكون زوجة له ؛ فزارها فى سانون كولدفيلد وهاج غاضبا عند رؤيتها ؛ وأطلق مسدسا على « ملابسها » وصب شمعا مصهوراً على ذراعيها وجذب أذنيها وكان الناس كلما وصفوا هذا المنظر لايفتأ

السيد ادجورث أن يكرر « أنا لم أكن لأفعل ذلك مطلقا » وكان كلما فكر فى توماس داى حتى آخر يوم من حياته يظل ساكنا لقد كانت حياته عظيمة جدا عاطفية للغاية متناقضة غاية فى التناقض ولذلك كانت حياته عبارة عن مأساة وكلما فكر ادجورث فى صديقه بل أعز صديق له ـ فانه كان يبقى ساكنا

ان هذه تكاد تكون المناسبة الوحيدة التى تسجل فترات سكوت ادجورث فالتفكير والندم والتأمل صفات غريبة على طبيعته ولقد صورت زوجته وأصدقاؤه وأولاده بطريقة حيـــة جدا عن طريق دائرة واسعة من الثرثرة التى لا حد لها فلم يكن لدينا أية خلفية سوى هذه الثرثرة لكى نجمع بها البقايا الدقيقة التى تكون صورة زوجته الأولى كما لم يكن لدينا الظلال ولا الأغوار التى تكون الشخصية المتقلبة فهى تارة مفعمة بالأحاسيس الانسانية وتارة أخرى تنطق بالشراسة وهى تقدمية تنطوى على الفيلسوف المتناقض توماس داى ولم تكن قـدرات ادجورث قاصرة على الناس فحسب بل امتدت الى المنـــاظر الطبيعيـــة والجماعات والمجتمعات وتبدو هذه القدرات ـ كما يصفها هو ـ كأنها تنبع من أعماق نفسه لدرجة أنه فى استطاعتنا أن نشـعر بشخصيته حتى لو كانت تلك الامكانيات الذاتية تعرض علينا دون الاشارة الى صاحبها ـ كما نشعر بأنه هو الذى يقدمها لنا انها تبدو واضـــحة المعالم لأنه يرسمها بالتباين العجيب الذى تكشف عنه تعليقاته وتشير الى وجوده هذه الصورة تعيش فى جمال غريب خيالى مهيب غامض متباين مع ادجورث نفسه الذى لم يكن يتصف بواحد من هذه الصفات كل ذلك يتضح وهو يقدم لنا بالذات صورة حديقة فى شيشر وهى حديقة بيت راعى الكنيسة وهو وان كان بيتا قديما فانه مريح

ان المرء يدخل الى هذه الحديقة عندما يدفع بابا أبيض فيجد نفسه فى فناء مغطى بالزرع الأخضر وهو فناء صغير يعنى به رغم صغره وتنمو الورود على الحواف وتتدلى قطوف العنب على الجدران . ولكن ـويا للدهشةـ ماهى تلك الأشياء التى تقع وسط الخضرة ؟ ففى غيوم ليـــلة من ليـــالى الخريف تلمع كرة أرضية كبيرة بيضاء . ومن حولها وعلى مسافات متباينة

منها توجد كرات أخرى فى احجام مختلفة · انها الكواكب وتوابعها ·ولكن من الذى وضع كل ذلك فى هذا المكان ولماذا ؟ فالبيت يخيم عليه السكون؛ والنوافذ مغلقة ، ولا أحد ينظر منها · وفجأة ظهر من خلف الستائر ولمدة وجيزة وجه رجل مسن ينظر خلسة ، وجه جميل رغم انه أشعث وكأنه وجه مجنون

ان الآدميين يحملون الطبيعة أوهامهم بطريقة غير مفهومة · ولابد أن السوس أخذ ينخر فى هذه الحديقة الصغيرة والطيور تطير فيها فى هدوء ولابد أنه قد خيم سلام مقيم على كل شىء وفجأة عكر هذا السلام ريتشارد لوفيل ادجورث الثرثار الفضولى ذو الوجه الأحمر نظر الى الكرات وأقنع نفسه انها نموذج دقيق من تصميم انسان » وطرق الباب ثم عاد فطرقه ثانية ولا من مجيب وأخيرا وعندما بدأ صبره ينفد ، أزيح المزلاج ببطء وانفتح البـــاب رويدا رويدا ؛ وكان يقف من ورائه قسيس أشعث قد أهمل العناية بنفسه ومع ذلك فهو رجل وقور قدم ادجورث نفسه ثم دلفا الى حجرة جلوس ملأى بالكتب والأوراق المبعثرة والأثاث القيم الذى بدأ ينخر فيه السوس وفى النهاية وقد فقد ادجورث السيطرة على فضوله سأل عن ماهية الكرات التى فى الحديقة ؛ وفى الحال ظهر على القسيس القلق والانفعال العميقان ثم قال القسيس ان ابنه هو الذى صنعها ، لقد ولد هذا الابن عبقريا ، ولد ماهرا ، وقد تحلى بالفضيلة وبمكتسبات تفوق سنه ولكنه مات ثم ماتت أمه فحاول ادجورث أن يغير مجرى الحديث ولكن دون جدوى لقـــد اندفع الرجل المسكين فى انفعال فى حديث غير مترابط عن ابنه وعبقريتـــه وعن وفاته وكتب ادجورث يقول « لقد صدمنى أن أحزانه قد أثرت فى قواه العقلية » وقد أحس بعدم الارتياح يتزايد عندما انفتح الباب ودخلت منه فتاة فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وهى تحمل صينية الشاى بين يديها وكان دخولها سببا فى تغيير مجرى الحديث انها جميلة حقا ؛ وكانت ترتدى الملابس البيضاء ؛ ربما كان أنفها بارزا قليلا لا ! ان تقاسيم وجههـــا كانت متناسبة للغاية وصرح القسيس – بعد أن غادرت الفتاة الغرفة « انهـــا طالبة فنانة » ولكن لماذا غادرت الحجرة ؟ ان كانت ابنتـــه فلماذا لم تتصدر مائدة الشاى ؟ هل هى خليلته ؟ من تكون ؟ ولماذا يبقى هذا المنزل على هذه الحال من الاهمال والصدأ ؟ ولماذا يبقى الباب الخارجى مغلقا ؟ ولماذا يبدو القسيس وكأنه سجين ؟ وما هى قصته الخفية ؟ بدأت هذه الأسئلة تتزاحم فى رأس ادجورث وهو جالس يرتشف الشاى ولكنه

لم يملك الا أن يهز رأسه ويتأمل للمرة الأخيرة « انى أخشى أن شيئا ليس صحيحا » قال ذلك وهو يغلق الباب الأبيض من خلفه ويترك فى هذا البيت المهمل وبين الكواكب وتوابعها ذلك القسيس المأفون والفتاة الجميلة دون أن يجد جوابا لأسئلته

لايتيتيا بيلكنجتون (١)

دعنا نضايق أمين المكتبة مرة أخرى ولنسأله أن يصل الى الأعماق وينفض الغبار ويسلمنا الكتاب الصغير ذا اللون البنى من هناك ، مذكرات السيدة بيلكنجتون وهى ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد طبع بمعرفة بيتر هوى (٢) فى دبلن عام ١٨٢٦ ان الغموض الكثيف يخفى عزلتها. والتراب يتراكم على قبرها لقد أصبحت واحدة من لوحات هذا القبر المفككة بمعنى أنه لم يقرأ تلك المذكرات أى شخص منذ أوائل القرن الماضى فقد ترك قارىء - ويحتمل أن يكون ذلك القارىء امرأة عافت نفسها اما لبذاءتها واما لأنها أخذت مصعوقة بيد الموت - فتركت فى وسط المجلد قائمة بالسلع والبضاعة التى تود شراءها من السوق لكى تشير الى المكان الذى انتهت فيه من قراءتها واذا كانت اية امرأة أرادت أن تصبح بطلة فهى لايتيتيا بيلكنجتون فمن تكون اذا ؟

هل يمكنك أن تتخيل تناقضا غريبا جدا بين مول فلاندرز وليدى ريتشى(٣) بين امرأة المدينة التى دارت وعركت الحياة وحنكتها الأيام وبين سيدة رقيقة أنبتت نباتا حسنا ؟ وكانت لايتيتيا بيلكنجتون (١٧١٢ - ١٧٥٩) شيئا من هذا القبيل - تكتنفها الشبهات والحيل وامتلأت حياتها بالمغامرات ومع ذلك فهى تشبه ابنة ثاكرى(٤) والآنسة ميتفورد(٥) ومدام دى سافينى(٦) وجين أوستن(٧) وماريا ادجورث

(١) Laititia pilkington.
(٢) Peter Hoey.
(٣) Lady Richie.
(٤) Thackeray.
(٥) Miss Mitford.
(٦) Mame De Sevigine.
(٧) Jane Austen.

لأنها مفعمة بتقاليد جنسها القديمة حتى انها كتبت كما تتحدث السيدات لتحقق المتعة ومن خلال مذكراتها لا يمكن أن ننسى أنها انما كانت تكتب لرغبتها فى الترفيه ولتندب مصيرها التعس وبينما هى تجفف دموعها وتتحكم فى آلامها ترجونا أن نغفر لها خروجها البشع على الآداب العامة الذى لا يشفع لها فيه الا ما عانته طوال حياتها من السيد ب٠ن٠ الخبيث يسومها سوء العذاب ولابد أنها قالت وما عانته من مكائد الليدى س٠ت٠ وذلك لأنه من يكون فى استطاعته أن يعرف أحسن مما تعرفه ابنة حفيدة ايرل كيلمالوك (١) انه على المرأة أن تخفى آلامها وعلى ذلك تعتبر لايتيتيا فى زمرة نساء انجلترا الأديبات اللائى يحافظن على التقاليد من واجبها التسرية مع اخفاء غريزتها وعلى الرغم من أن غرفتها كانت بالقرب من وزارة الخزانة فانها كانت غرفة بالية والمنضدة مغطاة بورق الاعلانات بدلا من المفرش القماش والزبدة كانت تضعها فى حذاء ، وعلى الرغم من أن السيد ورزديل (٢) كان يستعمل قدر الشاى لاحضار قليل من البيرة فى هذا الصباح فهى لا زالت تتصدر المائدة ولا زالت قادرة على المؤانسة وربما كانت لغتها خشنة ولكن من الذى علمها الانجليزية ؟ انه دكتور سويفت العظيم

وفى خلال جميع تجولاتها — وما أكثرها — وفى أثناء سقطاتها — وما أبشعها — فانها كانت تحن الى تلك الأيام الخوالى فى ايرلندة عندما كان سويفت « يقرصها » ليدفعها الى حديث لائق وعندما كان يضربها لأنها كانت تتحسس وتفتش الادراج لقد لطخ وجنتيها بسواد الفحم المحترق ليثير أعصابها وكان يأمرها بخلع حذائها وجواربها لتقف الى الحائط ثم يقيس طولها وكانت ترفض بادىء الأمر ثم استسلمت بعد ذلك وقد تساءل العميد « لماذا هذا الرفض ؟ أظن أن جوربها مقطوع أو أن أصابع قدميها قذرة وفى كلتا الحالتين فانى سعيد بأن أضحك » وقد أعلن العميد ان طولها ثلاثة أقدام وبوصتان رغما عن أن لايتيتيا كانت تشكو من أن ضغط يد سويفت على رأسها قد جعلها تنكمش الى النصف ولكنها كانت غبية فى شكواها فربما كان مرجع الألفة بينهما الى هذه الواقعة بالذات — وهى أنها كانت ثلاثة أقدام وبوصتين ليس

---

(١) Earl Killmallock.

(٢) Mr. Worsdale.

غير(١) لقد عاش سويفث حياته بين العمالقة وهو الآن يجد السحر فى الأقزام ولقد أخذ المخلوقة الصغيرة الى مكتبه وقال لها « انى أحضرتك الى هنا لأريك كل ما عندى من مال منذ كنت أعمل بالوزارة ، ولكن حذار أن تسرقى منه شيئا » فأجابت « لن أفعل ذلك مطلقا يا سيدى » وعندئذ فتح خزانة وأراها مجموعة من الأدراج الخاوية وهو يقول «رحماك ياربى لقد ذهب المال » لقد كان هناك سحر فى تعجبها وسحر فى تواضعها كان يمكنه أن يضربها وأن يضايقها ، وأن يجعلها تصيح بينما هو أصم ، ويدفع زوجها الى شرب ثمالة النبيذ ، وأن يدفع أجرة العربة التى تقلهما وأن يضع الجنيهات داخل كعكة الزنجبيل ومن العجب أنه كان يرق ـ كما لو كان هناك شىء بشع يسعده عندما يفكر فى أن مثل هذه القزمة تحاول أن تكون لها حياتها ولها تفكيرها الخاص وذلك لأنها وهى مع سويفت ، كانت على سجيتها ؛ وهذا أثر من آثار عبقريته انها كانت تخلع جواربها اذا ما طلب منها ذلك وعلى ذلك ، وعلى الرغم من أن سخريته قد أرعبتها وتبينت أن تناول العشاء فى منزل العميد ليس فيه أية سعادة وهى تراه وهو يرقب ـ فى المرآة الكبيرة المعلقة أمامه ـ الساقى وهو يسرق البيرة الى جوار خزانة أدوات المائدة ، فى الوقت الذى كانت ترى أنه شرف كبير أن تسير معه فى حديقته ؛ وأن تسمعه يتحدث عن بوب (٢) ويقتبس من هـــوديبراس (٣) ثم يهرع الى البيت تحت المطر ليوفر أجر العربة ثم تجلس فى قاعة الاستقبال تتجاذب مع السيدة برنت مدبرة المنزل أطراف الحديث حول شذوذ العميد واحساناته وكيف أن البنسات الستة التى وفرها من أجر العربة وهو يهرع الى بيته تحت المطر أعطاها للرجل العجوز الأعرج الذى يبيع كعكة الزنجبيل عنـــد منعطف الطريق بينما يندفع العميد نحو الدرج الأمامى ونحو الخلف بعنف حتى انها كانت تخشى أن يسقط ويؤذى نفسه

ولكن ذكريات الرجال العظام ليست منزهة عن الخطأ فى تفاصيلها أن هذه الذكريات تلقى أضواء على مجرى الحياة كما يلقى الفنار أشعتـــه فتنير الظلام ان تلك الذكريات تبرق وتتلألأ وتصدم وتكشف الستر ثم تتلاشى لقد كان فى تذكرها لسويفت بعض النفع بالنسبة للايتيتيا عندما تراكمت عليها المشاكل وناءت تحتها • لقد تركها السيد بيلكنجتون

---

(١) ألف سويفت قصته رحلات جاليفر الى بـــلاد تخيل أهلها عمالقة ـ فبدأ جاليفر وكأنه قزم صغير (المترجمة)

(٢) Pope.

(٣) Hudibras.

هى ووالدها جريا وراء أرملة تدعى و رر ن ثم مات أبوها وأهانها عسكر الشريف وهجرت فى منزل خاو ومعها طفلان لتكلفهما ان صندوق الشاى مغلق وباب الحديقة مقفول والفواتير لم تدفع وهى ما زالت صغيرة السن جذابة مرحة وعاطفة متأججة فى قرض الشعر بسرعة، ونهم لا يمكن تصديقه فى قراءة الكتب وكأن هذا النهم فى القراءة هو السبب فى القضاء عليها اذ كانت تقرأ كتابا وكان هذا الكتاب فاتنا والوقت متأخرا ولم يقبل صاحب الكتاب اعارتها اياه وانما قرر أنه سوف ينتظرها حتى تنتهى من قراءته • وهكذا جلسا فى حجرة نومها ولم يكن هذا التصرف ليبقى سرا فى طى الكتمان • وفجأة اقتحم الغرفة عليهما اثنا عشر من رجال الشرطة عن طريق شباك المطبخ ، وظهر السيد بيلكنجتون وقد ربط حول رقبته منديلا من الحرير • ودارت معركة بالسيوف أما عن تفسيرها للموقف بأنه لمجرد قراءة كتاب جميل فهل كان فى استطاعة أحد أن يتوقع تصديق هذا التفسير وهل كان فى امكان السيد بيلكنجتون ورجال الشرطة الاثنى عشر تصديقها ؟ هل كان وجودهما معا بقصد القراءة ليس غير !؟ هل مجرد الجلوس هكذا فى ساعة متأخرة لم يكن الا لمجرد أن تنتهى من قراءة كتاب جديد ! بل لقد فسر السيد بيلكنجتون ورجال الشرطة الموقف بالصورة التى يمكن أن يفسرها الرجال • وانما عشاق القراءة ـ كما أقنعت نفسها ـ سوف يفهمون ميلها للقراءة وينكرون تلك النتيجة السيئة

والآن ماذا تفعل ؟ لقد أوردتها القراءة موارد الهلاك ولكن فى امكانها الكتابة فمنذ وقت بعيد وهى قادرة على كتابة الخطابات ، حقيقة لقد كتبت ـ فى سرعة لا يمكن تصديقها وعلى درجة كبيرة من الاتقان ـ قصائد وخطابات، وكتابات مختصرة للآنسة هودلى والى مسجل دبلن والى الدكتور ديلفيل فى الريف •

« سلام الى ديلفيل السعيد والمقر الهنىء ! » « هل يوجد رجل ذو نضرة ثابتة دائبة ؟ »

وهكذا تستمر القصيدة عن أتفه مناسبة فى سهولة ويسر دون تعثر ثم رحلت الى انجلترا وأقامت بها وأصدرت اعلانا عن استعدادها لكتابة أية خطابات فى أى موضوع فيما عدا القانون ، مقابل اثنى عشر بنسا والدفع فورا ولا تقبل الودائع واتخذت لنفسها سكنا فى مواجهة مصنع هوايت للشيكولاتة ، وهناك فى المساء وبينما كانت تروى زهورها فى حوض النافذة كان الرجل النبيل واقفا بالنافذة المقابلة فى المنزل على الجانب الآخر من الطريق فشرب نخب صحتها ثم أرسل اليها

زجاجه من بيرجاندى وبعد ذلك سمعت الكولونيل الشيخ ـ وهو يصيح « حركها من بعدى ياربى ، حركها من بعدى » وهو يردد « د ـ » فى م٠٠ ل ب ه وهو يصعد درج بيتها المظلم هذا السيد المحبوب ، الذى يشرف رتبته بارتدائه الملابس العسكرية قبلها وهنأها وفتح حافظته وترك لها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيها لتكتب عن سير فرانسيز تشايلد مثل هذه العطايا كانت تشحذ قلمها عن تفجيرات عجيبة للانتاج كاعتراف بالجميل ولكن من ناحية أخرى اذا رفض رجل أن يدفع أو لمحت سيدة عن عدم لياقة كتاباتها فان هـــذا القلم الزاهر نفسه يلتوى وينحرف فى كراهية لاذعة وعتاب مرير اذا قلت ان والدك مات كافرا بالله » ، هكذا بدأت احدى اتهاماتها ولكن بقية الرسالة لم تطبع سيدات عظيمات كن متهمات بكل صنوف الفجور ورجال الدين ـ ما لم يكن تذوقهم للشعر لاغبار عليه ـ فانهم سوف يعانون تأديبا عنيفا فهى لم تنس أن السيد بيلكنجتون ـ زوجها ـ كان من رجال الدين

وببطء ولكن بكل تأكيد بدأت حفيدة ايرل كيلمالوك تهبط فى مستواها الاجتـــماعى فبعد أن كانت تعيش فى شارع سانت جيمس بفضل محسنيه من النبلاء نزحت الى شارع جرين لتقيم مع خادم اللورد ستير وزوجته التى كانت تحترف مهنة غسل ملابس ذوى الجاه من الناس انها ـوهى التى كانت ذات يوم تداعب الدوقةـ كانت تسعد وهى تجالس هؤلاء القوم وترقص الرقصة الرباعية مع السايس والغســالات وكتاب شارع الصحافة الذين يعبون البيرة عبا ويرشفون الشـــــاى الأخضر ويدخنون التبغ وهم يقصون قصصا غاية فى البذاءة عن ســـــادتهم وسيداتهم ويضعون على حديثهم من التوابل ما يخفف من هول ما يقولون لوضاعة أخلاقهم ومن هؤلاء التقطت لايتيتيا تلك الحكايات الخاصـــة بالعظماء واطلعت على أسرارهم مما كان مادة تنثرها على صفحاتها عنـد الهجوم كما كانت هذه الأسرار تخدم أغراضها عندما ينضب معينها أو عندما تزداد صاحبات البيوت وقاحة عند مطالبتهن لها بالايجار ٠ انها فى الواقع حياة قاسية فهى تسير حتى شيلسى تحت الثلوج المتساقطة وهى لا ترتدى الا الخفيف من الملابس وبعد ذلك يقصيها ســـيرهانس سلون كما يقصى المتسولات بعد أن ينفحها شلنين ونصف ثم تســافر سيرا على الأقدام الى شارع أورموند وتتحصل على جنيهين من الدكتور ميد الكريه ومن فرط سرورها وسعادتها تقذف بالجنيهين الى أعلا فى الهواء ومن نكد حظها يقع الجنيهان على الأرض ويختفيان فى شق من الشقوق٠ انها حياة قاسية يهينها فيها السايس ؛ وكانت تجلس أمام قدر الماء وهو

يغلى لأنه لا يصح أن تظن صاحبة المنزل أن « تلقيمة » الشاى أبعد من أن تصل اليها امكانياتها ثم حاولت الانتحار مرتين فى الليالى القمرية وهى تسير فى حديقة سانت جيمس بين أشجار الليمون العابقة بأزهارها وذلك بأن تلقى بنفسها فى بركة روزاموند وحدث ذات مرة أن أغلق مندونها باب مقبرة ويستمينستر آبى وهى هائمة بين المقابر واضطرت الى أن تمضى الليل فى المنبر وقد لفت جسمها بسجادة كانت على منضدة القرابين لتحمى نفسها من هجمات الفيران « كم أتمنى الموت وكم تتوق أذناى الى سماع ترانيم الملائكة » ولكن مصيراً آخر كان يتربص بها فعلى الرغم من أن السيد كولى كير والسيد ريتشاردسون كانا يمدانها بالورق ذى الحافة المذهبة لتكتب عليه بادىء الأمر ثم أخذا يمدانها بعد ذلك بورق اللف فان صاحبات البيوت وهن شياطين فى صور نساء وبعد أن كن يحتسين الخمر ويتناولن فاخر الطعام على مائدتها أيام عزها وكن لا يمشطن شعورهن سنوات وسنوات من فرط قذارتهن نجحن أخيرا فى أن يسقن صديقة سويفت وابنة حفيدة ايرل الى السجن مع المدينين فى سجن مارشالسى

لقد استمطرت اللعنات على زوجها بمرارة فهو الذى تسبب فى أن يجعل منها سيدة ملأت حياتها بالمغامرات وهى التى تربت « لتكون سيدة بيت وديعة كالحمامة » وكلما كانت تضيق بها الحياة كانت تفتش فى ذاكرتها وتنقب فى عقلها عن حكايات وذكريات وعن فضائح وعن مشاهد من طبيعة البحر الذى لاقرار له ، وعن مشاهد من طبيعة الأرض المشتعلة تنقب عن أى شىء تملأ به صفحة مقابل جنيه تقيم به أودها تذكرت أنها كانت تأكل مع سويفت بيض الزقازق ـ وكان يقول لها هذه يا هاسى بيضة زقزوق لقد كان الملك ويليام يدفع شلنين ونصف مقابل بيضة منها » لقد تذكرت كذلك أن سويفت لم يكن يضحك مطلقا بل كان يمص شدقيه بدلا من الضحك ماذا يمكنها أن تتذكره كذلك فهناك كثير من السادة وكثير من السيدات وكيف اندفعت النافذة مفتوحة عندما مات أبوها وكانت أختها تهبط على الدرج حاملة معها علبة السكر وهى تضحك تذكرت كل ذلك فى مرارة وفى صراع فيما عدا حبها لشيكسبير وأنها كانت تعرف سويفت فى يوم من الأيام وأنها كانت تحتفظ خلال كل هذه التقلبات والظلال التى خيمت على حياة أجهدتها المغامرة كانت تحتفظ بروح مرحة وببعض من نشأة مترفة وشهامة جعلتها حتى آخر حياتها القصيرة تطلق النكتة وتستمتع بالحياة والموت يملأ قلبها وتؤرق الديون مضجعها

جين أوستن (١)

كان من المحتمل ــ لو أن الآنسة كاسندرا أوستن نجحت فى تنفيذ رغبتها ــ أننا ماكنا لنحصل من جين أوستن الا على قصصها وحدها فلم تكن تكتب بحرية الا لأختها الكبرى ، واليها وحدها كانت تفضى بآمالها ، ولو صدقت الشائعات فان جين أوستن تكون قد أفضت الى أختها بخيبة الأمل الكبرى الوحيدة فى حياتها ، ولكن عندما أصبحت الآنسة كاسندرا أوستن عجوز أو ازدادت شهرة أختها تصورت أنه قد يأتى الوقت الذى يتفحص فيه الغرباء ويدرس التلاميذ كل ما له علاقة بالكاتب أحرقت كاسندرا كل خطاب كان يمكن أن ينقع غلة المتعطشين ولم تبق الا ماعتقدت أنه من التفاهة بحيث لا يثير اهتمام أحد •

لذلك فقد استقينا معلوماتنا عن جين أوستن من الشائعات ومن قليل من الخطابات ومن كتبها أما عن الشائعات ــ الشائعات التى ظلت حية واضحة ــ فانها لا تستحق الازدراء وباعادة ترتيبها قليلا فانها تصبح ملائمة لهدفنا بصورة عجيبة ومن أمثلة ذلك أن جين لم تكن جميلة على الاطلاق وانما كانت متأنقة جدا على خلاف فتاة فى سن الثانية عشرة وكانت هوائية غريبة الأطوار بل متكلفة هكذا وصفتها ابنة عمها فيلاديلفيا أوستن وعندنا بعد ذلك السيدة ميتفورد التى عرفت الأختين أوستن منذ الصغر والتى كتبت تقول « انهما ألطف وأغبى صائدات أزواج متكلفات عرفتهما فى حياتى » وتأتى بعد ذلك صديقة الآنسة ميتفورد المجهولة الاسم التى تزورها الآن وتقول انها تجمدت كقطعة دقيقة متصلبة ، قطعة صامتة للغبطة الفردية اذا كان يمكن أن توجد ، وأنه ــ حتى ظهر كتاب «الكبرياء والتحامل»(٢) أى جوهرة ثمينة كانت مخبوءة فى ذلك الغلاف الذى لا يلين ــ لم يكن المجتمع يرى فى جين أوستن أكثر من امعة (لم تكن فى نظر المجتمع الا تلك القطعة من الحديد التى يقلب

---

(١) Jane Austen.

(٢) Pride and Prejudice.

بهـــا النار فى المدفأة) ولكن أصـــبحت القضية مختلفة الآن تمام الاختلاف ثم تمضى السيدة الطيبة فتقول «انهـــا لا زالت ذلك المحرك للنار ـ ولكنه محرك يخشاه كل فرد ان لجين أوستن ذكاء الفنان الذى يرسم الشخصيات والذى لا يتكلم ومع ذلك فهو مرهوب فعلا ! » وهناك من الناحية الأخرى ـ بالطبع ـ آل أوستن وهم قلما يقرظون أو يمتدحون أنفسهم ، ولكنهم على أية حال قالوا ان اخوتها كانوا معجبين بها فخورين· وكانوا متعلقين بهـــا لعبقرياتها وطهرها وسلوكها الحميد وأحب كل منهم ـ فيما بعد أن يتخيل الشبه بين بنات العمومة أو بناتهم وبين الأخت العزيزة جين التى لا يتوقعون أن يجدوا لها مثيلا مطابقا كانت جذابة ولكنها مستقيمة » محبوبة بين الأهل مهـــابة الجانب بين الغرباء لسان لاذع وقلب رقيق وليست هذه المتناقضات بأى حال من الاحوال متناقضة فى حياتها فعندما نرجع الى القصص فاننا سنجد أنفسنا نتعثر أيضا فى هذه العقد فى الكاتبة

ولنبدأ بالفتاة الصغيرة المتأنقة التى رأت فيها ابنة عمها فيلاديلفيا أنها تخالف فتاة الثانية عشرة هوائية متكلفة، هذه الفتاة سرعان ماأصبحت مؤلفة قصة عجيبة بعيدة كل البعد عن عبث الأطفال «حب وصداقة» (١) والذى يبدو غير قابل للتصديق أنها كتبتها فى سن الخـامسة عشرة من عمرها وأن هذه القصص كتبت لتسلى تلميذات المدرسة وأهديت احدى تلك القصص الى أخيها بشىء من السخرية الهادئة وقامت أختها برسم صور قصة أخرى بالألوان المـائية· كل هذه نكات يشعر الفرد أنها عائلية ، كانت هجمات من الهجاء تتناسب مع الجو العائلى اذ ان أخوات أوستن كانوا يسخرون علنا من السيدات المرهفات اللائى يشهقن ثم يغمى عليهن على الأريكة

ولابد أن الأخوة والأخوات قد ضحكوا عندما قرأت عليهم جين آخر لذعاتها عن الرذائل التى كانوا جميعا يكرهونها

« اننى أموت شهيدة الحزن والأسى لفقدى أوجستن
اغمـــاءة واحدة كانت القاضية اذ كلفتنى حياتى حذار من
الاغماءات يا عزيزتى لورا افعلى ما شئت من لوثات الجنون
كما يحلو لك ولكن حذار أن يغمى عليك »

---

(١) Love and Friendship.

وهكذا اندفعت بقدر ما أسعفتها الكتابة وبأسرع مما تستطيع كتابة الكلمات لتحكى مغامرات لورا وصوفيا التى لا يمكن تصديقها ومغامرات فيلاندر وجوستافوس ومغامرات السيد الذى يقود عربة بين أدنبره وستيرلنج يوما بعد يوم وعن سرقات الثروة التى كانت مودعة درج المنضدة تكتب عن الأمهات اللائى تضورن جوعا وعن الأبناء الذين قاموا بتمثيل دور ما كبث ومما لا شك فيه أن القصة لا بد قد أثارت ضحك تلميذات المدرسة ومع ذلك لاشىء أكثر وضوحا من أن هذه الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعا كانت تجلس فى ركنها الخاص من حجرة الجلوس وتكتب لا لتثير ضحك الاخوة والأخوات ولا للاستهلاك المحلى فى محيط العائلة وانما كانت تكتب لكل شخص لا لشخص معين بذاته وانما كانت تكتب لجيلنا كما كانت تكتب لجيلها وبمعنى آخر ـ حتى فى هذه السن المبكرة ـ كانت جين أوستن تكتب ويحس كل فرد بذلك من وقع أسلوبها ورشاقته وقوة تعبيرها

لم تكن أكثر من شأبة لينة الجانب مدنية بطبعها مجاملة ومن تكن تلك خصالها لا نملك الا أن نحبها ومع ذلك فلم تكن الا موضع الازدراء قصد بمثل هذه العبارة أن تبقى لمدة قصيرة محددة مليئة بالحياة ، سهلة ، كلها مرح ، تميل دون قيد الى مجرد العبث ـ حب وصداقة كتاب فيه كل هذه الصفات ، ولكن ما هى تلك الملاحظة التى لا تندمج مع بقية الملاحظات والتى لها صدى واضح تتخلل الكتاب بأكمله ؟ انها صوت الضحك ـ ان فتاة الخمسة عشر ربيعا تضحك من ركنها الخاص على العالم .

ان فتيات الخمسة عشر ربيعا يضحكن دائما فهن يضحكن عندما يستعمل السيد بنى الملح بدلا من السكر ويكدن يقعن من الضحك عندما تجلس السيدة تومكينز العجوز على القطة ولكنهن يبكين فى اللحظة التالية وليس لهن موضع ثابت يرين منه أن هناك شيئا فى الطبيعة البشرية يثير الضحك دائما صفات فى الناس رجال ونساء تثير دائما سخريتنا انهن يجهلن أن ليدى جريفيل التى تأمر وتنهى دائما وماريا المسكينة التى هى محط ذلك الأمر والنهى هما عينتان من شخصيات كل حفلة رقص ولكن جين أوستن عرفت ذلك منذ ولادتها ـ وكأن احدى الجنيات اللائى يحطن بمهد الطفولة قد طارت بها وجابت بها الآفاق عقب ولادتها مباشرة وعندما أعيدت الى مهدها لم تكن تعلم كيف يبدو العالم فحسب بل كانت قد اختارت مملكتها وقد تعهدت بأنه اذا ما كان عليها أن تحكم ذلك الاقليم فانها لن تطمع فى غيره وعلى ذلك وهى فى سن الخامسة عشرة كانت لديها صور فى خيالها عن بقية الناس وهى لا تدرى

عن نفسها شيئا وكانت تدرك أن كل شيء سوف تكتبه لن يتغير ، فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الصحف لا بالنسبة للأشخاص فحسب وانما بالنسبة للعالم كله ٠ انها لا تتحدث عن نفسها وهي لذلك غامضة ٠ وعندما تضع جين أوستن الكاتبة فى أعظم جزء من كتابها جزءا من مناقشة ليدى جريفيل فلا أثر للغضب فى زجرها الذى تلقته من قبل جين أوستن ابنة رجل الدين انها تشير بوضوح الى الملاحظة ونحن نعلم بالضبط موضع هذه الملاحظة من خريطة الطبيعة البشرية ٠ ونحن نعلم ذلك لأن جين أوستن التزمت بعهدها ولم تتعد حدودها على الاطلاق ولم تقترف من الانفعال العاطفى ما يخجل ، حتى وهى فى سن الخمسة عشر ربيعا ٠ وأنها لم تتنازل عن سخريتها مجاملة لأحد ، ولم تطمس معالم شيء فى صورة شعرية غامضة ٠ ان الانفعالات والصور الشعرية ــ وكأنها تقول وهى تشير مؤكدة بعصاها ــ لا وجود لها فى عملها فالفواصل محددة المعالم فى وضوح ٠ ولكنها من ناحية أخرى لا تنكر وجود القمر والجبال والقلاع ولم يعتلج قلبها بعاطفة الا مرة واحدة نحو ملكة اسكوتلاندة اذ كانت ــ بحق ــ تعجب بها كثيرا ٠ وكانت تقول عنها « انها واحدة من أولى الشخصيات فى العالم، أميرة ساحرة لم يكن لها الا صديق واحد هو دوق نور فوك الذى لم يكن له من أصدقاء سوى السيد هوايتيكر والسيدة ليفروى والسيدة نايت وأنا٠» وبهذه الكلمات وصفت عاطفتها وغلفتها فى ابتسامة ٠ وانه لمن دواعى الغبطة أن نتذكر هنا أى عبارات كتبتها أخوات برونتيس (١) الصغيرات اللائى كتبن بعد جين أوستن بوقت ليس بالطويل عن شخصياتهن من الشمال وعن الدوق ويلنجتون ٠

نمت الفتاة المتأنقة الصغيرة وأصبحت « ألطف وأغبى صائدة أزواج وأكثرهن تكلفا » يمكن أن تذكرها السيدة ميتفورد ٠ وعرضا كتبت المؤلفة قصتها فى السر وأسمتها «كبرياء وتحامل»(٢) وبقيت دون نشر عدة سنوات ٠ وبعد ذلك بقليل قيل انها بدأت فى كتابة قصة أخرى « آل واطسون » ولم تتمها لأنها لم تكن راضية عنها لأسباب فى نفسها ثم جاء بعد ذلك عملها الأكثر نضوجا وهو يستحق القراءة لأنه يهيء أجمل نقد لكاتبة عظيمة فى روائع القصص فقد أخذت مشاكلها تتكشف وأصبحت الطريقة التى سلكتها للتغلب على تلك المشاكل أقل غموضا من الناحية الفنية ٠ فنجد أولا صلابة وسفورا فى الفصول الاولى وبذلك تبرهن

---

(١) Brontes.

(٢) Pride and Prejudice

على أنها واحدة من هؤلاء الكتاب الذين يضعون الوقائع دون تزويق الى حد ما فى بادىء الأمر ثم بعد ذلك تعود اليها مرارا وتكرارا لتكسو تلك الوقائع وتخلق الجو الملائم كيف كان يمكن عمل هذا بذلك القدر وبأى الوسائل من الحذف والادماج والحيل الفنية ؟ فلسنا بقادرين على تبيان ذلك . ولكن المعجزة كانت يمكن أن تتحقق لو أن التاريخ البغيض للسنوات الأربع عشرة فى الحياة العائلية كان قد تحول الى سنوات براقة ومقدمات سهلة واضحة ، ما كنا لنتوه فى درب من الحدس عن ماهية الصفحات التى فيها أرغمت جين أوستن قلمها لأن يسطر كفاحها الاول وفى هذا المقام فاننا ندرك أنها لم تكن مشعوذة رغم كل هذا ، وكأى كاتب آخر عليها أن تخلق الجو الذى فيه يعطى نبوغها الغريب ثماره وهى فى ذلك تتسكع وتجعلنا ننتظر ـ وفجأة حققت ماتريد ، وأصبحت الأمور تجرى على الصورة التى تريد لها أن تجرى فيها ان آل ادوارد ذاهبون الى المرقص ـ وعربة توملينسون تمر ، ثم هى تستطيع أن تخبرنا بأن «تشارلس قد زود بالقفاز وطلب منه أن يبقيه معه » ، ثم تخبرنا بأن توم موشجريف ينسحب الى مكان قصى ومعه كمية ضخمة من المحار وأنه قد ذاعت شهرته . وهكذا نرى أن عبقرية أوستن قد انطلقت وامتلأت حيوية ـ وألهبت حواسنا دفعة واحدة ، وتملكتنا غزارتها النادرة التى تستطيع جين أوستن وحدها انتاجها . ولكن مم تكون كل ذلك ؟ هل من حفلة رقص فى القرية ، أم من تجمع عدد قليل من الأحباب فى غرفة يمسك كل زوجين يدى كل منهما ؟ أم من التقاء حول موائد الطعام والشراب ؟ أم هل وقعت الكارثة ونهرت سيدة صغيرة ولدا مرة ثم عاملته مرة أخرى باحسان. فلا مأساةولابطولة؟ ومع ذلك ـ ولأسباب ـ يتحرك المنظر الصغير بعيدا عن كل تناسب نحو جدية سطحية ولكننا أجبرنا على رؤية كل ذلك عندما قامت اما Emma فى صالة الرقص ، ونتساءل كيف استوعبت جين أوستن كل ذلك ،وكيف كانت دقيقة ملهمة بكل مشاعر الاخلاص وكان من الممكن أن تكشف عن نفسها فى تلك الأزمات المحزنة فى الحياة والتى ـ كما كنا نراقبها ـ تأتى حتما أمام أعيننا ؟ كانت جين أوستن بذلك أستاذة ذات انفعالات أكثر غورا مما يبدو ظاهريا فقد نبهتنا الى أن نتزود بما لم يكن موجودا فى هذا الظاهر . وواضح أن ما تعطيه شىء بسيط ، ومع ذلك فهو يتكون من شىء ينمو ويزيد فى عقل القارىء على الصورة الأكثر احتمالا ، شىء يتكون من صور الحياة التى تبدو فى الظاهر كأنها تافهة . ويكون الاهتمام دائما فى كتب جين أوستن منصبا على الشخصيات . واننا لنعجب كيف تتصرف اما Emma عندما حضر لورد أوزبورن وتوم موسجريف فى الساعة الثالثة الا خمس

دقائق فى نفس اللحظة التى تحضر فيها مارى الصينية وعلبة السكاكين ؟ انه لوضع شاذ للغاية ـ فقد اعتاد الشابان أن يكونا على قدر من الرقة أكثر من ذلك ويمكن أن نعتبر أن اما Emma قد أنشئت تنشئة سيئة وشرسة ، هى والعدم سواء ان اللف والدوران فى الحوار يجذبنا ويشدنا الى أن نشغف به والى توزيع انتباهنا مناصفة بين الحاضر والمستقبل وعندما تتصرف اما Emma فى النهاية بصورة تحقق أقصى ما يمكن أن نأمله فيها فاننا نثور كما لو كنا شهودا فى حادث على غاية كبيرة من الأهمية وفى هذه القصة الناقصة والأقل جودة فى أساسها نجد جميع عناصر عظمة جين أوستن ومكوناتها ففيها الصفات الدائمة للأديب اذا استبعدنا الحيوية الظاهرية ، والتشابه بالحياة ، فان ما يتبقى يقدم سعادة أعمق لأنه تمييز عظيم للقيم البشرية واذا أبعدنا هذا أيضا عن فكرنا فانه يمكن للمفرد أن يحيا فى منتهى السعادة على الفن المطلق المتغيرآلانفعال والنسب فى منظر قاعة الرقص وهو أمر يستمتع به الفرد لذاته ـ استمتاعه بالشعر ـ وليس باعتبار أن هذا الفن المطلق حلقة توجه القصة هذه الوجهة أو تلك

ان الاشاعة تقول ان جين أوستن كانت «مستقيمة» رقيقة صامتة «انها ذلك المحرك للنار الذى يرهبه كل فرد» ولهذه الصفات آثارها فهى من الممكن أن تكون قاسية الى حد كبير ، وانها واحدة من أكثر الكتاب تهكما فى الآداب كلها ان تلك الفصول الأولى من كتاب « آل واطسون » تثبت أن قدراتها ليست عبقرية خصبة ، فهى ليست كاميلى برونتى بمجرد أن تفتح الباب يحس بها الجميع. ولكى يتكامل عش الفن كانت جين أوستن تجمع بتواضع وسعادة لباليب الأغصان والقش وترتبها معا فى عناية وكانت هذه اللباليب والقش جافة بعض الشىء أو عليها قليل من الأتربة. فكان هناك البيت الكبير والبيت الصغير وحفل الشاى وحفل العشاء ورحلات من آن لآخر وكانت تحدد معالم الحياة باتصالات قيمة وبايراد كاف من المال ، وبالطرق الموحلة ، والاقدام المبتلة ، واتجاه نحو شعور السيدات بالتعب ومبدأ بسيط يساند تلك الحياة مع نتيجة مستخلصة والتعليم الذى يصيبه عادة أعالى القوم من الطبقة المتوسطة التى تعيش فى الريف ـ وتركت خارج تلك الحدود الرذيلة والمغامرة والعاطفة ولكنها بهذا النثر وبهذه الأمور الصغيرة لم تتفاد شيئا أو تشوهه بل بصبر وبدقة أخذت تحكى لنا كيف «أنهم لم يتوقفوا فى أى مكان حتى بلغوا نيوبرى حيث نالوا طعاما هنيئا واتصل بهم العشاء الى وقت متأخر وانطوت متع اليوم وآلامه » ولم تدفع ضريبة التقاليد حتى

بمجرد التكريم اللفظى وان كانت تؤمن بتلك التقاليد فضــلا عن تقبلها لها فعندما تصف رجل دين مثل أومند برترام أو بحـــارا بالذات فانها تبدو وكأن قدسية محل عمله قد منعتها من استعمال وسائلها الرئيسية بحرية ـ وهى عبقريتها الساخرة ـ وقد تصبح عرضة لأن تنجرف فى المديح اللائق أو فى الوصف الواقعى ولكن هذه الأمور استثنائية اذ أنها فى أكثر حالاتها تستعيد قول المرأة المجهولة «ان لجين أوستن ذكاء الفنان الذى يرسم الشخصيات والذى لا يتكلم ومع ذلك فهــو موهوب فعــلا ! وكانت لا ترغب لا فى اصلاح الواقع ولا فى القضاء عليه فهى صامتة ، وهذا أمر مخيف فعلا ثم أخذت تخلق شخصياتها الواحدة تلو الاخرى من الاغبياء والمغرورين ومحبى العلم أمثـــال الســـيد كولينسس وسير والتر اليوت والســيدة بينت وكانت تحركهم بعبارات كلهيب السياط وكانت ـ وهى تدور حولهم ـ تحدد معالم شخصياتهم الى الأبد ولكنهم بقوا هناك، ولا عذر لهم ولا رحمة أثيرت نحوهم فلم‌يبق شىء من جوليا وماريا برترام عندما انتهت جين أوستن منهم أما ليدى برترام فقد تركت جالسة تنادى على « بيج » لتبعده عن أحواض الزهور بصورة قاطعة وهى تحقق العدالة المقدسة فى كتاباتها فبينما بدأ دكتــور جرانت غرامه بالاوز المطهو جيدا «انتهت حياته بالسكتة القلبية عقب ثلاث ولائم نقابية للعشاء فى أسبوع واحد » ويبدو أحيانا أن مخلوقاتها قــد خلقن لمجرد ادخال السرور على جين أوستن وهى تجوب فى عقولهم وهى بذلك راضية ، مطمئنة ولم تحول من مظهر شخصياتها ، ولم تغير موضع حجر من مكانها ولم تحرك حتى من نصل الحشائش الخضراء فى عالم يحقق لها مثــل هذه السعادة الغامرة

ولا نطالبها نحن بهذا التغيير ذلك لأنه حتى وان كانت الوخــزات والغرور المتزايد وحمى الحنق المعنوى تقتضى منا أن نعــدل عالما مليئا بالحقد والمخازى والغباء فان هذا العمل فوق طاقتنا فالناس على هذا النحو وقد أدركت فتاة الخمسة عشر ربيعا كل ذلك ، وأثبتته وهى امرأة ناضجة وفى هذه اللحظة التى تحاول فيها ليدى برترام أن تبعد «بيج» بعيدا عن أحواض الزهور فانها تهيىء الجو لتشابمان لكى يقابل الآنسة فانى على انفراد ان التفرقة واضـــحة جدا والسخرية واجبة وحقة وعلى الرغم من استمرارها فاننا لا نكاد نلحظها ولا يخرجنا من تأملاتنا وصف المخازى ولا التلميح بالحقد والضغينة ، بل تمتزج النشوة بنواحى التسلية امتزاجا غريبا وذلك لأن رأس مال الأغبياء هو الجمال

وتتكون صفة المراوغة هذه من جوانب متعددة تحتاج الى عبقرية فذة

لكى تجمع تلك الجوانب معا • وان مهارة جين أوستن تضم الى جانبها ذوقا سليـما • فالغبى فى قصصها هو الغبى والمغرور ليس الا مغرورا لأنه قد ابتعد عن نموذج العقل والمنطق الذى تحتفظ به فى مخيلتها وتنقله الينا ـ بلا أدنى خطأ ـ حتى وهى تضحكنا • ولم يسبق أن استفاد روائى من احساس لا يخطىء بالقيم الانسانية أكثر من جين أوستن•وان ابرازها لكل مايتفرع عن الطيبة والصدق والاخلاص ـ وهى جميعا من بين أكثر الصفات المحببة الى النفس فى الادب الانجليزى ـ هذا الابراز يتفق مع قلب لايخطىء وذوق لا يشط وخلق صارم • انها ترسم شخصية مارى كراوفورد فىخليط من المحاسن والمساوىء مستعينة بتلك الوسائل ـ القلب والذوق والخلق الصارم ـ وتترك لها العنان لتنطلق فى حديثها ضد القسيس ، أو تتحدث فى صالح بارون ذى الدخل الذى يقدر بعشرة آلاف من الجنيهات سنويا بكل سهولة وبكل حيوية ممكنة ، ولكنها بين الحين والآخر تلقى بملاحظة من عندها فى هدوء ، وفى نبرة سليمة ، وسرعان ما تبدو ثرثرة مارى كراوفورد ـ على الرغم من أن هذه الثرثرة ممتعة ـ لا معنى لها خالية من التعبير • وهنا يكمن السر فى عمق مناظرها وجمالها وتعقيدها ومن هذا التناقض يبرز الجمال رزينا متميزا لا كذكائها فحسب وانما هو جزء لايتجزأ منه • وقد قدمت لنا فى قصة «آل واطسون» نموذجا من هذه القدرة فجعلتنا نعجب كيف يصبح عملا ذو فعل رقيق ملىء بالمعانى رغم أنها وصفته بأنه عادى وفى روائعها نجد أن نفس الموهبة قد بلغت الكمال ، وليس فى هذا خروجا على المألوف ، فمثلا وصفت تقول «الوقت ظهر فى نور ثامبتون شاير ، وشاب ثقيل يتحدث الى امرأة صغيرة ضعيفة جدا على درجات السلم وهما يصعدان الى حجرتهما ليرتديا ملابس العشاء ، بينما تمر عليهما خادمات المنزل وكان الحوار بينهما تافها عاديا وعلى حين فجأة تصبح كلماتهما مليئة بالمعانى وتصبح تلك اللحظة بالنسبة الى كل منهما من اللحظات التى لا تنسى فى حياتهما لحظة مليئة مضيئة متألقة وتظل أمامنا عميقة ، مضطربة ، هادئة فيها صفاء لفترة وجيزة ، ثم تعود الخادمة مرة أخرى وينهار كل شىء فى نفس هذه اللحظة التى تجمعت فيها كل السعادة فى الحياة برفق وهوادة لتعود الحياة كما كانت فى مدها وجزرها ، تعود الى وجودها العادى »

هل هناك أكثر طبيعية من جين أوستن حينما تكتب عن التفاهات ولها مثل هذه النظرة الثاقبة فى أعماق شخصياتها الموجودة فى كل يوم عن الحفلات ، وعن الرحلات ، وعن الرقص فى الريف ، ولم يكن هناك أية « اقتراحات لتعدل من أسلوبها فى الكتابة » ـ من الأمير ريجنت الى

الاستاذ كلارك ـ يمكن أن تغريها ، ولا يمكن لأى قصة غرام أو أية مغامرة أو للسياسة ومكائدها أن تلقى ضوءا على الحيـاة فى الريف كما صورتها جين أوستن على درج السلم فى كتـاب «آل واطسون» حقيقة ان الامير ريجنت وأمين مكتبته لا يجدان طريقهما لكى يظهرا فى عالم جين أوستن فقد كانا يجاهدان ليتحرشا بضميرهما السليم الذى لم يفسد أو ليقطعا على بصيرتيهما النفـاذتين هدوءهما فالطفلة التى شكلت عباراتها بهذه الرقة عندما كانت فى الخامسة عشرة لم تكف عن هذا الاسلوب ولم تكتب للأمير ريجنب أو لأمين مكتبته ، وانما كتبت للعالم قاطبة • وقد عرفت أين تكمن قدراتها ولأى مادة تصلح تلك القدرات لان تتناولها كأحسن مايتداولها كاتب على مستوى فنى رفيـع جدا • وهنـاك انطباعات تمتد الى ما وراء محيطها ، وعواطف لا تتناسب مع أسلوبها أو مصادر وحيها ولا تستطيع أن تتناولها فمثلا ليس فى امكانها أن تجعـل فتاة تتكلم بحماسة عن الاعـلام والكنائس ـ وليس فى امكانها أن تلقى بنفسها وبكل قلبها فى لحظة غرام وهى تملك من الحيل على اختلاف أنواعها ما يمكنها أن تتحاشى المواقف الغرامية ولها طريقتها الخاصـة المطولة لتتحدث عن الطبيعة ومواطن الجمال فيها • وهى تستطيع أن تصف ليلة جميلة دون أن تشير ولو مرة واحدة الى القمر • ومع ذلك وبينما نحن نقرأ العبـارات القليلة التقليدية عن «جمال ليلة تقشعت عنها السحب وجمال التباين بين ألوان الخضرة فى الغابات كلما توغلنا فيها » ، نجـد أن الليـل قد أصبح دفعة واحدة « مهيبا يبعث الهدوء والحب » لأنها قالت لنا بمنتهى البساطة أن الليلة هكذا •

ان توازن مواهبها سليم جدا • ولا يوجد من بين قصصها قصة واحدة فاشلة ، كما لا يوجد بين فصول قصصها الكثيرة الا القليل من هذه الفصول الذى يمكن أن يعتبر بوضوح أقل من مستوى الفصول الاخرى • وبعد هذا كله فقد توفيت فى الثـانية والاربعين ، ماتت وهى فى أوج عظمتها وهى ما تزال محـلا للتطور الذى يجعل عادة آخر مراحل حيـاة الكاتب أكثر أهمية • كانت نشطة لا يمكن كبح جماحها ، موهوبة ذات حيـوية فياضة فى الابتكار ومما لا شـك فيه أن انتاجها كان سيزيد لو طال بهـا الأجل وهناك من الدلائل ما يغرينا بأن نتوقع أنها كانت سوف تغير من طريقتها أو أنها كانت ستكتب بطريقة مختلفة حقيقة ان الحدود بالنسبة لها معينة ، القمر والجبال والقلاع التى تقع على الجانب الآخر ولكن ألم تحدثها نفسها بأن تتعدى تلك الحـدود ولو للحظة واحدة ؟ ألم تبدأ فى نوبة مرح ولحظة صفاء أن تفـكر فى رحلة قصـيرة لتكتشف ما وراء تلك الحدود ؟ •

لنأخذ كتابها «اقناع»(١) وهو آخر قصة كتبتها كاملة لنرى في ضوئه الكتب التي كان من الممكن أن تكتبها لو لم تدركها المنية ففي هذا الكتاب ، اقناع نجد جمالا غريبا وكآبة غريبة كذلك الكآبة من النوع الذي يميز عادة فترة الانتقال بين مرحلتين مختلفتين في حياة الكاتب فنرى جين أوستن في هذا الكتاب ضجرة نوعاً ما لقد تعودت أكثر من ذي قبل على مسالك عالمها الذي تكتب عنه ولم تعد تشعر بالسعادة التي كانت تشعر بها عندما كانت تلاحظ تلك المسالك لأول مرة ولهذا نلحظ الخشونة في هزلها تلك الخشونة التي توحي بأنها لم تعد تستمتع بغرور سير والتر أو بعنجهية الآنسة اليوت كما أصبحت سخريتها جافة والنكتة فجة ولم تعد بعد مهتمة بالمتع في الحياة اليومية أو تشعر بجدتها ولم يعد فكرها مركزا على موضوعها ولكن وعلى الرغم من أننا نشعر أن جين أوستن قد فعلت ذلك من قبل وعلى وجه أفضل ، فاننا نشعر الآن أنها انما تحاول أن تأتي بما لم تأت به من قبل ويبرز عنصر جديد في كتابها اقناع ربما تكون الجودة التي دفعت دكتور هويويل(٢) لأن يتحمس ويصمم أن هذا الكتاب «أجمل أعمالها» فقد بدأت تكتشف أن العالم أكبر وأنه أكثر غموضا وأكثر عاطفية مما افترضته وتحس أنها صادقة في التعبير عن نفسها عندما تقول عن آن « لقد أرغمت أن تكون حذرة منذ الصغر ـ فتعلمت الحب عندما كبرت وهو النتيجة الطبيعية لبداية غير طبيعية » ثم تعتاد العيش على جمال الطبيعة وكآبتها في الخريف وهي التي كانت تعيش في الربيع أبدا ثم نراها تتحدث عن «التأثير كم هو جميل وكم هو مؤلم في أشهر الخريف في الريف وتشير الى « أوراق الشجر السمر والأسوار الجافة الذابلة » ثم تلاحظ « ان المرء ليس بمستطيع أن يحب مكانا أقل مما كان يحبه لأنه تألم فيه » ولكننا لا نستنتج التغيير في الاحساس الجديد نحو الطبيعة فحسب بل ان اتجاهها في الحياة نفسها قد تغير كذلك فهي ترى الحياة الآن في جزء كبير من كتابها من خلال عيون امرأة هي نفسها تعسة ـ تشفق اشفاقا خاصا على سعادة الآخرين وتعاستهم ذلك الاشفاق الذي تضطر ـ حتى نهاية الكتاب ـ أن تعلق عليه في صمت وعلى ذلك تكون الملاحظة ـ على غير العادة ـ هي ملاحظة وقائع أقل واحساس أعمق وهناك انفعال عاطفي واضح في منظر حفل الموسيقى وأثناء الحديث المشهور عن ثبات المرأة ومثابرتها ، هذا الانفعال يثبت ـ على خلاف ما جاء في تاريخ حياتها ـ أن

---

(١) Persnasion.

(٢) Dr. Whewell.

جين أوستن قد أحبت ذات يوم ولكن الواقع الفنى أنها لم تعد تخشى أن تصرح بهذا الحب ان التجربة اذا كانت من النوع القاسى فانها تترسب فى‌الأعماق ولا تتأثر بمرور الزمن على الاطلاق ، فقد كانت تسمح لنفسها — من قبل — بأن تتناول التجربة فى كتاباتها ولكن الآن وفى عام ١٨١٧ تصبح على استعداد أن تقدم على ذلك ليس غير وظروفها فى مظهرها الخارجى تشير الى أن تغييرا كان على وشك الوقوع ان شهرتها تكونت ببطء وقد كتب السيد أوستن لى(١) « انى أشك فيما اذا كان من الممكن أن نذكر مؤلفا آخر ذا مكانة كان غموض شخصيته على هذه الصورة من التكامل » فلو أنها امتدت بها الحياة سنوات قليلة أخر لتبدل كل شىء وتغير فربما أقامت فى لندن ، وتناولت وجبات طعامها خارج البيت وقابلت مشاهير القوم ، وجددت أصحابا ، وقرأت وسافرت ثم عادت الى المنزل الريفى الهادىء ومعها كنز من الملاحظات تجترها فى أوقات فراغها

وما هو تأثير كل ذلك ؟ وما الذى كان يمكن أن يحدث لمؤلفات جين أوستن ، التى لم تكتبها ؟ انها لن تكتب عن الجريمة أو عن الحب أو عن المغامرة وما كانت لتضطر لأن تعيش دون اهتمام بمظهرها وبملابسها أو تعيش فى جو من عدم الاخلاص ، جو النفاق نتيجة لالحاح الناشرين ومديح الأصدقاء بل لتعلمت كثيرا ولاهتز احساسها بالأمان ولعانت سخريتها من الألم ولقل اهتمامها بالحوار ولزاد الاهتمام بالتأمل والتفكير لتعطينا صورة عن شخصيتها .(كل هذا يمكن ادراكه فى كتاب اقناع)

ان الكلمات القليلة الرائعة التى تجمعها فى حديث يستغرق دقائق هى كل ما نريده لكى نتعرف على كل ما يتعلق بالأدميرال كروفت أو السيدة مسجروف وان هذا الاقتضاب وطريقة « مرة تصيب ومرة تخيب » التى تشتمل على فصول من التحليل وعلم النفس ، كان يمكن أن يظل فجا عاجزا عن أن يسيطر على ما كانت ستدركه من عقد الطبيعة البشرية .ذ كان من الممكن أنها ستتوصل الى طريقة واضحة مرتبة كالعادة أكثر عمقا وأكثر مفعولا فى نقل — لا كل ما يقوله الناس فحسب — وانما نقل كل ما لا يقولونه فى أحاديثهم نقل لاماهم عليه — وانما ماهى عليه الحياة نفسها ولكانت قد وقفت بعيدا عن شخصياتها حتى تراهم كمجموعة لا كأفراد ولقللت شيئا من تهكمها المستمر وهى تكتب . وفى نفس الوقت كان يمكن أن تكون هذه السخرية أشد قسوة وأكثر ايلاما . كان يمكن أن

---

(1) Mr. Awsten Leigh.

تكون بشيرا بمقدم هنرى جيمس(١) وبروست(٢) لكن كفى لا طائل من وراء تلك التأملات أنها أكثر الفنانات أصالة بين النســاء ماتت الكاتبة ذات الكتب الخالدة « فى نفس الوقت الذى بدأت تشعر فيه بالثقة فى نجاحها » .

---

(١) Henry James.

(٢) Proust.

الرواية الحديثة

عند اجراء أية دراسة مستوعبة للرواية الحديثة ، حتى ماكان أكثرها تحررا أو أكثرها تحللا ــ نجد أنه من الصعب ألا نعتبر ــ دون تحفظ ــ أن ممارسة الفن الحديث للقصة انما كان تطورا للقديم • ويمكن القول بأن فيلدنج(١) قد أبدع وأن جين أوستن كانت أكثر ابداعا ، رغم امكانيتهما البسيطة ومادتهما البدائية • ولكن اذا ما قارنا بين فرصتيهما وفرصنا ! سنجد أن روائعهما كانت ذات جو غريب من البساطة • مع أن الموازنة بين الأدب والخلق ، ولنختر مثلا ــ صناعة السيارات ــ فقلما يؤدى هذا المثل الغرض منه أكثر من مجرد اللمحة الأولى • ومن المشكوك فيه أننا أعبر القرون ــ وعلى الرغم من أننا تعلمنا الكثير عن صناعة الآلات لم نتعلم شيئا عن صناعة الأدب وذلك لأن الاستمرار فى الصناعة يؤدى الى الاتفاق ، أما الأدب فهو موهبة • فلم نصبح قادرين على كتابة أفضل ، وانما كل ما يمكن أن نكونه هو أننا دائبو الحركة تارة فى هذا الاتجاه وتارة أخرى فى الاتجاه الآخر مع الاحتفاظ بالحركة الدائرية حتى يكون مجال الحركة كله منظورا من قمة عالية علوا كافيا • ولسنا فى حاجة لأن نقول اننا لسنا ــ ولو لمجرد لحظة ــ فى مركز أفضل • فى السهول ، ووسط الزحام ، والأبصار لا تكاد ترى من التراب الذى أثارته المعركة فاننا ننظر الى الوراء ونغبط هؤلاء المحاربين السعداء ، الذين كانوا يكسبون معاركهم والذين حققوا أمورا عظيمة حتى اننا لنهمس فى خفوت بأن المعارك لم تكن قاسية على هؤلاء الغابرين بقدر ما هى قاسية فى نظرنا الآن وعلى مؤرخ الأدب أن يقرر ما اذا كنا فى أول الطريق أم فى نهايته أم أننا لازلنا فى منتصف العصر العظيم للرواية النثرية ، وذلك لأننا فى غمرة الانشاء لا يكاد يظهر لنا ما يمكن أن يحدد به الموقف • وكل ما نعلمه أن الاعتراف بالجميل وبالعداوات هى التى تلهمنا ، وأن بعض المسالك توصلنا الى الأرض

---

(١) Fielding.

الخصبة ، والبعض الآخر يوردنا مورد الفناء ويفضى بنا الى الخرائب وعلى ذلك ربما يحتاج الأمر أن نعمل له حسابا

واذا فصراعنا ليس مع الأدب التقليدى واذا كنا نتحدث عن الشجار مع ويلز(١) وبينت(٢) وجالسويرذى(٣) فان ذلك يرجع بعضه الى أن عملهم لا يعيش لمجرد أنهم احيــــاء ، بل أعمالهم هذه تتنفس كل يوم مما يعطينا الحق لمهاجمة عدم الدقة كيفما نشاء ولـكن بينما نشكرهم على آلاف النفحات فاننا ـ حقا ـ نحتفظ بالاعتراف بالجميل ـ بغير تحفظ ـ لهاردى(٤) ولكونراد (٥) ويأتى بعدهما هدسون (٦) الذى كتب الأرض الأرجوانية(٧) والبيوت الخضراء(٨) وأخيراً الأمد البعيد(٩) والمــاضى السحيق · ولقد أثار ويلز وبينت وجالسويرذى الـكثير من الآمال ثم دأبوا على خيبتها حتى ان عرفاننا بالجميل كان فى معظمه على صــورة شكر لهم على ما بينوا لنا ما كان عليهم أن يحققوه وان لم يفعلوه وما لا نستطيع ـ بحق ـ أن نقــوم به ولـكنه فى الوقت نفسه مالا نرغب أن نؤديه وان البيان ليعجز عن أن يصف المسئولية أو الأسى الذى نبديه تجاه انتاج عظيم ضخم فى حجمه يتضــمن قدرا كبيرا من صفات العظمة ونقيضها · فاذا حاولنا أن نعبر عما يجيش فى نفوسنا من معان فى كلمة واحدة فانما ينبغى أن نقول ان هؤلاء الكتاب الثلاثة ماديون وذلك لأنهم لا يهتمون بالروح بل يهتمون بالجسد لدرجة خيبت آمالنا ، وتركونا وقد تسلط علينا شعور بأنه كلما سارعت الرواية الانجليزية فأشاحت عنهم ـ برفق كما ينبغى ـ حتى ولو كان ذلك الى الصحراء كان ذلك أجدى لروح القصة ·وطبيعى لا يوجد لفظ واحد يصيب مراكز ثلاثة أهداف منفصلة ففى حالة ويلز فان الملاحظة تنطبق انطباقا ملحوظا ومع ذلك فانها تشير معه بالذات ـ وفقا لطريقة تفكيرنا ـ الى مزيج النحس فى عبقريته تشير الى نضوب معينه الذى اختلط مع صفاء وحيه بينما قد يكون بينت أسوأ الثلاثة جرما مع أنه أقدرهم صناعة فانه فى استطاعته أن يقدم كتابا محكم

---

(١) Wells.

(٢) Bennett.

(٣) Galsworthy.

(٤) Mr. Hardy.

(٥) Mr. Conrad.

(٦) Mr. Hudson.

(٧) The Purple Land.

(٨) The Green Mansions.

(٩) Far away and Long Ago.

البناء متماسكا فى صناعته حتى ليتعذر على أقدر النقاد أن يجد منفذا أو متسربا ينفذ من خلاله فاطار الشباك محكم ولا يسمح بنفاذ أى تيار من الهواء ولا يوجد باللوح الزجاجى أى شرخ ومع ذلك فماذا يحدث لو أن الحياة أبت أن تعيش فى هذا العمل ؟ وتلك هى المخاطرة التى تمكن بينت ـ مؤلف كتاب حكاية الزوجات العجائز(١) وراسم شخصية جورج كان(٢) وادوين كلايهانجر(٣) وكثير من شخصيات أخـر ـ من أن يتغلب عليها فشخصيات بينت تحيا حياة رغدة بدرجة غير واقعية ولكن يبقى لنا أن نتسـاءل كيف يعيشـون ولأى هدف يقصـدون ؟ وتبـدو لنا الشخصيات وكأنهم يهجرون « الفيلا » البديعة الانشاء فى المـدن الخمس ليمضوا وقتهم فى عربة قطار بالدرجة الأولى ذات المقاعد الوثيرة يضغطون أزرارا وأجراسا لا حصر لها ، وتصبح غاياتهم التى يسافرون من أجلها فى بذخ سعادة دائمة تزداد يوما بعد يـوم يتمتعون بهـا فى أفخم فنادق برايتون وكذلك من الصعب القول بأن ويلز مادى بمعنى أنه يتغالى فى صلابة خاماته ، وأن ذكاءه فياض بالعواطف حتى انه ليقضى الوقت الطويل فى خلق أشياء تتخذ شكلا وكيانا ملموسا فهو مادى بطبيعة قلبه الطيب، يحمل على عاتقه العمل الذى كان يجب أن يضطلع به موظفو الحكومة ومن غزارة أفكاره والوقائع فانه قلما يجد متسـعا من الوقت ليدركها أو ينسى أنها ذات أهمية ، أو ليحس ببدائية شخصياته وغلظتها ومع ذلك ما هو مدى الضرر الذى ينتج عن نقد كل ما يصـوره من عالم دنيوى وجنات عدن ، أكثر من أن هذه العوالم يجب أن تعيش فيها شخصياته مثل جونز وبيترز ؟ أليس فى نقص طبيعتهم ما يطغى على أى أنظمة أو قيم يمكن أن يمنحها لهم خالقهم بسخاء ؟ ولا نجد ما نريد على صفحات جالسويرذى رغم احترامنا العميق لكماله وانسانيته

فاذا لصقنا بطاقة واحدة تحمل كلمة «ماديات» فاننا نعنى بذلك أنهم انما يكتبون عن أشياء تافهة ، وأنهم قـد استنفذوا قدرا كبيرا من قدراتهم الفنية وقدرا كبيرا من طاقاتهم فى خلق الترهات والزائل من الأمور حتى لتبدو وكأنها حقيقة دائمة

وعلينا أن نعترف أننا ندقق وأكثر من ذلك فاننا نجد من الصعوبة بمكان أن نبرر عدم رضانا عندما نبين ما الذى نسعى الى تحديده اننا

---

(١) The Old Wives Tale.

(٢) George Canon.

(٣) Edwin Clayhager.

نشكل سؤالنا على صور مختلفة على مر الأيام ولكنه يظهر مرة أخرى أكثر اصرارا كلما تنفسنا الصعداء عندما ننتهي من قراءة رواية والسؤال هو هل تستحق هذه الرواية كل هذا العناء ؟ ما هو المغزى ؟ هل يمكن أن يكون بينت ـ كنتيجة لواحدة من تلك الانحرافات التى تقترفها النفس البشرية من حين لآخر ـ قد انحدر الى الدرك الأسفل بجهازه العظيم ليصور الحياة متخذا سبيلا منحرفا قليلا عن الطريق السوى ؟ وهكذا تفر من تصويره الحياة ، وربما دون الحياة لا يستحق شيء الذكر انه تسليم بالغموض للاضطرار الى الاستفادة من مثل هذه الصورة ، ولكن من الصعب أن نصلح الأمور بالكلام عن الواقع كما يميل الى ذلك النقاد ٠

ان الاعتراف بالغموض الذى يؤلم كل نقاد الرواية يجعلنا نخاطر بالفكرة التى هى فى نظرنا عنوان الوقت الحاضر بأن تكون الرواية فى شكلها الشائع الذى كثيرا ما يضيع الشيء الذى نبحث عنه أكثر مما يحققه٠ وسواء أطلقنا على ما نبحث عنه اسم الحياة أو الروح ، أو الحقيقة أو الواقع فانه ـ وهو الشيء الجوهرى ـ يشتط ويثور ويأبى أن يحتويه ذلك العمل الفنى غير الملائم كما نقدمه ٠ وعلى أى حال فاننا نسير دائبين وبضمير حى نخلق الاثنين والثلاثين فصلا على صورة أصبحت لا تشابه الرؤيا التى فى أذهاننا وهذا المجهود الشاق الضخم لاثبات التماسك وتقليد الرواية للحياة ليس مجهودا ضائعا فحسب بل هو مجهود فى غير موضعه يؤدى الى الابهام والى الغموض ويعتم الفكرة ويذهب بنورها ويبدو الكاتب وكأنه ملزم لا بارادته الحرة بل كأن هناك طاغيا قويا غير عابيء يستعبده لكى يقدم تصميما للقصة ليكون هزلا أو مأساة أو غراما فى جو من الواقعية يخيم على كل شيء ، طاغيا معصوما من الخطأ لدرجة أنه لو قدر لشخصيات الرواية أن يبعثوا أحياء فسيجدون أنفسهم غاية فى التأنق يرتدون آخر أزياء الساعة ٠ ويطاع ذلك الطاغى وتخرج الرواية طبقا لخطة موضوعة ولكن يحدث فى أحيان كثيرة كلما تقدم الزمن أن ينتابنا الشك ونثور كلما وجدنا الصفحات مليئة بهذه الطريقة العادية هل الحياة هكذا ؟ هل يجب أن تكون الرواية على مثل هذه الصورة ؟٠

اذا نظرنا الى أعماق النفس البشرية نجد أن الحياة أبعد عن أن تكون «هكذا» اختبر عقلا عاديا فى يوم عادى نجد أن العقل يتلقى آلافا من الانطباعات بين التافهة والخيالية وبين الزائلة والباقية المحفورة بعمق تأتى جميعها من كل اتجاه كسيل منهمر من ذرات لا تحصى ولا تعد، وأثناء تراكمها وتشكلها فى الحياة لا فرق بين يوم وآخر ـ يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء ـ انما الاستجابة تختلف اليوم عن سابقه ، واللحظة الهامة ليست

الماضي بل الحاضر ، حتى يتحرر الكاتب من نـير السيطرة ويكتب ما يختار وليس ما يجب عليه أن يكتب ، فاذا استطاع أن يؤسس عمله على شعوره واحساساته وليس على أساس العرف ، ما كان هناك داع للتقيد بتصميم الرواية وماكان هناك هزل أو مأساة أو حب أوكوارث فى الشكل المقبول وربما لم تأت الصورة مفتعلة التأنق فليست الحياة مجموعـــة من المصابيح ذات تصفيف متماثل ، بل الحياة هالة ساطعة ، هى غلاف تصف شفاف يحيط بنا ابتداء من الادراك حتى النهاية . أليس من مهمة القصاص أن يسرد هذا التباين ، وأن يظهر هذه الروح التى لم تؤت من العلم لـكى ندرك كنهها ، أو نحيط بها مهما اختلت وضلت أو بدت معقدة ممتزجة بأقل قدر ممكن من الظروف الخاجية أو غير المألوفة ؟ اننا لا نتوسل لمجرد الشجاعة أو الاخلاص ، بل اننا نقترح أن تكون مادة الرواية مخالفة بعض الشيء لمـا جعلتنا العادة والعرف نؤمن به

اننا ــ على أى حال ــ نحاول فى مثل هذا النمط من الأسلوب ــ أن نحدد الصفات التى تميز أعمال كثير من صغار الكتاب الذين يتميز من بينهم جيمس جويس عن سلفه ، فلقد حاولوا أن يقتربوا من الحياة وأن يحفظوا بأمانة كل ما يهمهم ولو استبعدوا ــ فى سبيل تحقيق ذلك ــ أكثر ما تآلف عليه الناس ويحرص القصاصون عليه ولنسجل الذرات كما تتراكم على العقل بالترتيب الذى تسقط به ولنتتبع الشكل ــ مهما بدا غير متصل أو غير متآلف الشكل الذى يحز كل مشهد منه أو واقعة فيه ، فى الضمير ودعنا لا نسلم بأن الحياة توجد أكثر تكاملا فى كل ما يعتبـر كبيرا لا فى كل ما يعتبر صغيرا ان من قرأ صورة الفنان رجلا صغيرا(١) أو قرأ « عولص » (٢) تلك القصة التى تبشر بأن تكون عملا مجديا والتى تصدر الآن فى المجلة الصغيرة (٣) يجد أنها محاولة جريئة لتطبيق نظريات القصة كما تعمدها جويس ومن ناحيتنا ــ وأمامنا مثل هذه الأجزاء فانها جرأة أكثر منها تأكيدا ، ومهما يكن مغزى القصة ككل فانه يمكن ألا نثير أى تساؤل الا أنها غاية فى الاخلاص والنتيجة ــ سواء كانت صعبة أو غير سارة كما يمكن أن نحكم ــ فانها ــ دون شك هامة وبالمقارنة مع من سميناهم بالمـاديين فان جويس روحانى اذ يهتم ــ مهما كان الثمن ــ بكشف خلجات ذلك اللهب فى الأعماق الذى تومض اشاراته فى العقل وانه فى سبيل المحافظة عليه لا يهتم ــ بكل شجاعة ــ بما يبدو عرضيا

---

(١) The Portrait of The Artist As young Man.

(٢) Ulysses.

(٣) Little Review.

فى نظره ، سواء أكان احتماليا أم حقيقيا أم أى شىء آخر من أمثال هذه الأسس التى كانت تقوم بمعاونة القارىء على التخيل على مر الأجيال المتعاقبة عندما يستلزم الأمر أن يتصور القارىء ما لا يستطيع أن يلمسه أو يراه ومثال ذلك المشهد فى المدافن ـ بما فيه من بهاء واشمئزاز وتفكك ، ومغزاه الذى يومض فجأة ـ بغير شك يلمس شغاف القلب لدرجة أنه عند القراءة الأولى لا يمكن الا القول بأنها احدى الروائع . فاذا كنا نبغى الحياة كما هى فهذه بكل تأكيد الحياة وانا فى الواقع نجد أنفسنا مترددين فى شىء من الارتباك اذا ما حاولنا أن نصرح بماذا نريد خلاف ذلك ولأى الأسباب يتخاذل عمل على مثل هذه الدرجة من الجدية عند مقارنته ـ ويجب أن ننتقى أمثلة على مستوى عال ـ برواية الشباب أو عمدة كاستربريدج عندئذ نرى أنها فاشلة لسبب بسيط وهو نضوب عقل الكاتب ويمكن أن نقرر ذلك ببساطة وينتهى الأمر ولكن يمكن أن نؤكد قليلا ونعجب ، ما اذا كنا من المحتمل ألا نشير الى منطقنا ونتساءل هل بقاؤنا آمنين فى غرفة ضيقة ولكنها مضيئة أفضل من الانطلاق الحر دون أن نتقيد بالطرق الموضوعة للكتابة وبقيود المنطق ؟ هل هذه الطرق المتفق عليها هى التى تمنح القوة الخلاقة ؟ وهل يرجع اليها عدم احساسنا بالمرح أو بالنخوة أو بالشهامة وهل التركيز فى الذات ـ على الرغم من الشعور بالرجفة ـ لا يمكن من احتقان ما هو خارج الذات وما وراءها أو خلفها ؟ هل يعتمد تركيز الموضوع ـ ربما حسب التعاليم على الفضائح التى تسهم فى التأثير فى الأشياء المنعزلة أو التى لها زوايا خاصة ؟ أو أن مجرد أى مجهود مبتكر يكون أكثر سهولة ـ وبالذات بالنسبة للمعاصرين ـ لأن يحسوا بما ينقصهم أكثر من تحديد ما يعطونه ؟ وعلى أى حال فانه من الخطأ أن نظل على الهامش ونفاضل بين الطرق المختلفة فأية طريقة صحيحة ، مادامت تعبر عما يجيش فى نفوسنا وما نريد الافصاح عنه اذا كنا كتابا والتى تقربنا من غرض المؤلف اذا كنا قراء تقربنا هذه الطريقة لما نحن متفقون على تسميته بالحياة نفسها ألم تثبت لنا قراءة عولص مقدار ما نخلفه وراء ظهورنا من الحياة أو مقدار ما أهملناه منها ؟ ألم تحدث قراءة تريسترام شاندى(١) أو حتى بندنس(٢) صدمة لمظاهر الحياة الأخرى الأكثر أهمية التى طرحتها الروايتان جانبا دون أن تتناولاها

---

(١) **Tristram Shandy.**

(٢) **Pendennis.**

ومهما تكن المشكلة التى يواجهها قصاص العصر الحاضر ـ كما نتصور أنها واجهت من قبل قصاص العصر الماضي ـ فانه يجب عليه أن يبتدع الوسائل التى تجعله حرا في تسطير ما يختار كما أنه يجب أن يتحلى بقدر من الشجاعة يمكنه من أن يقرر أن « هذا » الشيء لم يعد يهمه بعد بقدر ما يهمه « ذاك » ، ويبني على « ذاك » وحده أعماله اذ أن هذه الأشياء الجديدة التى يهتم بها المحدثون هى التى قد تكون قابعة فى أعماق النفس وعندئذ يختلف الاهتمام ببعض النقط عنها فى البعض الآخر وقد يصبح التركيز على شيء كان مهملا ، ونتيجة لذلك يتطلب هذا التركيز أسلوبا معينا وصورة تختلف فى اطارها بحيث يصعب علينا استيعابها كما كان يصعب على أجدادنا ادراكها

لا يمكن لأحد غير معاصر أن يشعر بأهمية الموقف الذى حوله تشيكوف الى قصة قصيرة سماها يوسف ففى هذه القصة استلقى بعض الجنود الروس المرضى على سطح السفينة التى تعود بهم الى روسيا ويعطينا مقتطفات من أحاديثهم وأفكارهم ثم يموت أحدهم ويؤخذ بعيدا والحديث يستمر بين الآخرين لفترة من الوقت حتى يموت يوسف نفسه ثم يلقى به الى البحر كما يلقى الجزر أو الفجل ويحدث التركيز على أماكن لم يكن أحد يتوقع التركيز عليها فى بادىء الأمر ، وكما نكيف العين نفسها عند الغروب حتى نتمكن من ادراك أشكال محتويات الغرفة نرى كيف كانت القصة متكاملة ، وكيف كانت عميقة وكيف كان تشيكوف صادقا لرؤياه فى اختياره لهذا الموضوع وبهذا التكامل والعمق ومزجهما سويا تمكن من خلق شيء جديد ولكن يصعب القول بأن « هذه القصة هزلية » أو أن « تلك القصة مأساة » ، ولسنا متأكدين اذ تعلمنا أن القصة القصيرة يجب أن تكون قصيرة متكاملة سواء كانت هذه القصة الغامضة التى لا نهاية لها يمكن تسميتها قصة قصيرة على الاطلاق أو لا يمكن تسميتها كذلك

ان أكثر التعليقات الأولية على القصة الانجليزية الحديثة لا يمكن أن تغفل التأثير الروسى وعند ذكر الروس فان المرء ليشعر بأن كتابة القصة ـ لغير الروس ـ مضيعة للوقت ومجازفة اذا كنا نبغى فهماً للروح والقلب فأين نجدها ـ بعمق ملحوظ ـ فى غير أعمال الروس ؟ اذا كنا قد سئمنا من ماديتنا فان أقل اهتمام للقصاصين الروس يرجع ـ بحق الميلاد ـ الى الاحترام الطبيعى للروح الآدمية « تعلم لتجعل نفسك متجانسا مع الناس ولكن لا تجعل هذه الشفقة مجرد فكرة فى العقل وانما اجعلها نابعة من القلب وبالحب نحو الناس لأن الشفقة كفكرة فى

العقل أمر سهل ميسور » واننا ندرك - فى كل عمل روسى عظيم - معالم شخصية القديس عندما يحتاج الموقف الى المواساة لآلام الآخرين ، وللحب والتفانى لبلوغ بعض الأهداف التى تستحق أكثر المطالب الروحانية دقة والتى تكون القدسية انها القدسية فيهم هى التى تحيرنا بالشعور بتفاهاتنا اللادينية والتى تحول كثيرا من قصصنا المشهورة الى زيف وخداع . واستنتاجات العقلية الروسية الشاملة والعاطفية هى بغير شك فى أعلى درجات الحزن والأسى ولو توخينا الدقة أكثر من ذلك لقلنا انه الشعور الذى ليس له جواب ، واذا درسنا الحياة بأمانة نجد أنها تثير لنا السؤال تلو السؤال - بعد أن تنتهى القصة - يطن ويلح فى استفهام حائر ، ويملأنا بيأس عميق وقد يملؤنا بالحنق والسخط . قد يكونون على حق وبغير شك فانهم يرون أبعد مما نرى وبدون عوائق الرؤيا التى عندنا ولكن ربما أننا نرى شيئا قد فاتهم والا فما سبب ذلك الصوت المعارض يمتزج بكآبتنا ؟ ذلك الصوت المعارض انه صوت حضارة آخرين قديمة يبدو أنها ولدت فينا غريزة المتعة والقتال أكثر من الألم والفهم وتحمل الرواية الانجليزية والقصة منذ ستيرون الى ميريدث الشاهد على انشراحنا الطبيعى فى المزاج والفكاهة وفى جمال الأرض وفى أوجه النشاط المختلفة للذكاء ، ومباهج الجسد ولكن أى استنتاجات يمكن أن نصل اليها عند مقارنة بين طرفى نقيض ، بين الرواية فى الأدب الروسى وبين الرواية فى الأدب الانجليزى انها استنتاجات خصبة الا عندما تفيض علينا بوجهة نظر الامكانيات اللانهائية للفن وتذكرنا بأنه ليس هناك حدود للأفق وأنه لا شىء محظور أو أن هناك « وسيلة » أو خبرة مهما كانت بدائية يمكن أن تكون محظورة الا أن تكون كاذبة غير صادقة . « المادة الصالحة للقصة » لا وجود لها ، فكل شىء هو المادة الصالحة للقصة ، وكذا الشعور ، وكل فكرة ، وكل صفة للعقل والروح يمكن العمل بها ، ولا يمكن أن يصبح أى ادراك غير لائق . واذا تصورنا أن فن القصة يمكن أن تدب فيه الحياة فيقف معنا ووسطنا - لأمرنا هذا الفن بغير شك - أن نحطمه وأن نشاغبه كما نشرفه ونحبه فبهذا كله يتجدد شبابه ويتأكد سلطانه .

جين اير ومرتفعات ويذرنج [1]

وفى خلال الأعوام المائة التى مضت منذ ولادة شارلوت برونتى(٢) التى كانت موضوعا للأساطير ومثلا للاخلاص ورمزا للأدب عاشت شارلوت ٣٩ عاما • وانه لغريب أن نتصور كم كانت تختلف تلك الأساطير لو أن الحياة كانت قد امتدت بها لمداها الطبيعى فقد كان من المحتمل أن تصبح ـ كبعض المشاهير من معاصريها ـ شخصية مألوفة يلتقى بها فى لندن أو فى أى مكان آخر ، شخصية هى موضوع لصور أو لقصص عديدة ، كما كان يمكن أن تكون كاتبة لعدد كبير من القصص وربما كاتبة لمذكرات، ولكنها انتزعت منا مع ذكريات منتصف العمر وهى فى أوج شهرتها العظيمة • ولو امتد بها العمر لربما أصبحت غنية وربما نعمت بالرخاء ولكنها لم تصب غنى ولم تنعم برخاء وعندما نفكر فيها علينا أن نتصور شخصا لا مكان له فى العالم الحديث وعلينا أن نعود بعقولنا الى الخمسينيات من القرن الماضى الى بيت منعزل لراعى كنيسة فى مروج يوركشير البرية وفى هذا البيت وبين تلك المستنقعات ظلت شارلوت فى مخيلتها للأبد وحيدة تعسة فى فقرها وفى مجدها

هذه الظروف ـ كما أثرت فى خلقها ـ ربما كان لها آثارها على عملها فعلى القصاص ـ كما نتصور ـ أن يقيم بنيانه بمواد سريعة التحول يبدأ بتزويد ذلك البنيان بالحقائق ثم ينتهى بخلطه بالنفايات فعندما نفتح كتاب **جين اير** مرة ثانية لانستطيع أن نخفى توقعنا فى أننا سوف نقابل دنيا عتيقة من صنع خيالها دنيا منتصف عهد فيكتوريا لاتتفق والعصر الحديث ، فالبيت فى المروج ، فى مكان لايزوره الا الفضوليون ويخيم عليه التدين والورع وما أن ننتهى من قراءة صفحتين من **جين اير** حتى ينقشع كل شك خيم على عقولنا •

---

(١) Jane Eyre.

(٢) Charlotte Bronte.

« طيات من الأقمشة القانية على اليمين وعلى الشمال ألواح الزجاج الصافية تحميني ولكنها لا تفصلني عن يوم موحش من أيام نوفمبر وكنت أفكر وأتمعن فى مظاهر عصر هـذا اليوم من أيام الشتاء من آن لآخر وأنا أقلب صفحات كتابى وبعد ذلك خيم ضباب وتجمعت سحب بيضاء وعن كثب كانت المروج المبتلة ترى وأحواض الشجيرات ومطر لا ينقطع يغمر المكان بعنف قبل قصفة رعد طويلة كئيبة »

ليس هناك شيء أسرع ذبولا من المروج نفسها أو أكثر موضوعية للاشارة الى الحديث عنها من « قصفة رعـد طويلة كئيبـــة » وحتى هذه البهجة التى تحدثها فينا القراءة قصيرة العمر انها بهجة تدفعنا الى أن ننتهى من قراءة الـكتاب كله دون أن تعطينا فرصـة للتفكير أو التردد ولا تسمح لنا بأن نرفع أعيننا عن صفحاته وهكذا نستغرق فى القراءة لدرجة أنه اذا تحرك أحد فى الغرفة فان هذه الحركة تبدو كأنها ليست فى غرفتنا بل هناك فى يوركشير ان الكاتبة تمسك زمامنا بيديها وتدفعنا الى السير فى طريقها لا نرى الا ما تراه هى ، ولا تتركنا لحظة ، ولا تسمح لنا بأن ننساها وفى النهاية نجد أننا قد اندمجنا مع عبقرية شارلوت برونتى ومع فورتها ومع سخطها تقدم لنا وجوها متميزة وشخصـيات محددة المعالم وملامح عابسة تومض وتطل علينا أثناء مرورها ولكننا ما رأيناها جميعا الا من خلال عينيها حتى اذا ما ذهبت فانه يصبح من المتعذر أن نجد تلك الشخصيات أو أن تبقى تلك الملامح واذا فكرنا فى روشستر فانما نفكر فى جين اير واذا تذكرنا المروج فانما نتذكر جين اير واذا سرحنا بخيالنا فى حجرة الجلوس أو حتى فى « السجاجيد البيض المخططة بأكاليل الزهور اليانعة أو « رف الموقد البارياني الباهت بما عليه من أكواب بوهيميا العقيقيـــة » و « المزيج من الجليد والنار » فهل هذا كله الا جين اير ؟

ان عيوب جين اير لا يصعب اكتشافها فكون البطلة مربية أطفال تهيم حبا بسيدها انما هى حدود خطيرة فى عالم ملىء – بعد كل هذا – بأناس هم ليسوا واحدا من هذا أو ذاك ان شخصيات جان أوستن أو تولستوى لها آلاف الواجهات بالمقارنة مع شخصيات شارلوت برونتى الذين يعيشون ويتعقدون تبعا لتأثيرهم فى مختلف الناس الذين يظهرون مع كل نواحى شخصياتهم فهم يتحركون هنا وهناك سواء كانوا تحت رقابة خالقيهم أو بعيدين عنها وتبدو لنا الدنيا التى يعيشون فيها كما

لو كانت عالما آخر يمكن أن نزوره وكأننا خلقناه بأنفسنا ويبدو توماس هاردى ندا لشارلوت برونتى فى قوة شخصيته وضيق مجال الرؤيا ومع ذلك فاختلافهما شاسع فاذا ما قرأنا قصة **جود الغامض** لتوماس هاردى فاننا لا نتعجل النهاية بل نتأمل ونفكر ونشط بعيدا عن النص فى سلسلة حيـة من الأفكار التى تحيط الشخصـية بجو من التسـاؤل والافتراض لا ندرى عنـه شيئا واننـا لنضطر أن نواجه ـ الفـلاحين البسطاء كما هم ـ بأعظم المصـير والتساؤل حتى لتبـدو وكأن أكثر شخصيات ـ قصص هاردى ـ أهمية هم أولئك المجهولون الذين لا اسم لهم وفى هذه القوة وفى هذا التأمل الفضولى لا نجد أى أثر لشارلوت برونتى فانها لم تحاول أن تحل مشكلة الحياة البشرية انها لا تدرى حتى بوجود مثل هذه المشكلات فكل قوتها وعظمة الحبكة ـ فى تأكيدها « انى أحب » « انى أكره » « انى أتعذب »

والكتاب الانطوائيون أو ذوو الحدود الذاتية قوة تنكرها العقول الجامعة ذات الأفق الواسع وتتجمع انطباعاتهم وتتدافع بين حواجزهم الضيقة فلا يصدر شىء عن تفكيرهم ما لم يكن قد دمغ بانطباعهم فهم يتعلمون القليل من غيرهم من الكتاب ولا يتقبلون ما يقتبسونه ويبدو أن كلا من هاردى وشارلوت برونتى قد بنيا أسلوبهما على صحافة جامدة ولكنها مناسبة فقوام نثرهما غريب ولكنه ممتنع اذ خلقا لنفسيهما نثرا يأخذ بالألباب وذلك بالعرق والجهد والمثابرة وبالفكر المضنى حتى يسخرا الألفاظ لتعبر عن المعانى التى يريدان التعبير عنها هـذا النثر يتميز بالجمال الذاتى وبالقوة وبالخفة ولا تدين شارلوت برونتى ـ على الأقل ـ بشىء الى قراءتها لكثير من الكتب فلم تتعلم اطلاقا رشاقة الكاتب المحترف أو تقتبس قدرته على ملء لغته أو التلويح بها حسبما يختار فقد كتبت تقول « أنا لا أستطيع أن أبقى على اتصال مع عقول قوية مهذبة سواء أكانت عقول رجال أم عقول نساء » وهكذا كانت تكتب فى الجريدة المحلية كأى كاتب متزعم للكتابة ولكن سرعان ما امتزج الدفء بالسرعة فى صوتها الحقيقى « حتى اجتزت الاطار الخارجى للتحفظ العرفى وتخطيت عتبة الثقة وفزت بمكان فى بيت القلوب » فهى اذا قد اتخذت لها مقعدا هناك انه اذا وهج النار المتأججة المتقلبة فى قلبها هو الذى كان يضىء صفحات كتاباتها وبعبارة أخرى فاننا نقرأ لشارلوت برونتى لا للملاحظة النفسـية للشخصيات فان شخصـياتها قوية بدائيـة ولا للمرح فشخصياتها عابسة وخام ولا للنظرة الفلسفية للحيـاة فشخصـياتها

شخصيات فتاة ريفية وابنة راعى كنيسة وانما نقرأ لشاعريتها وربما يكون هذا هو الحال بالنسبة لبقية الكتاب الذين لهم ـ كما لها ـ شخصية قوية عارمة ، حتى أنهم ـ كما نقول فى الحياة الحقيقية ـ ما عليهم الا أن يفتحوا الباب حتى يشعر بهم الجميع اذ تجيش فى صدورهم قوة وحشية فى حرب مع الأوضاع المتفق عليها التى تجعلهم فى رغبة ملحة للخلق السريع بدلا من مجرد التأمل وهذه الحمية ترفض المواقف المتميعة والدوافع الأخرى الصغيرة بل تحلق بطريقة لا تهتم بالسلوك اليومى للناس العاديين وانما تتخذ موقفا معاديا لانفعالاتهم الغامضة وانها تخلق منهم الشعراء أو كتابا للنثر اذا اختاروا ذلك وهى صارمة فى أحكامها وشروطها ولذلك نجد كلا من اميلى وشارلوت تتلمسان دائما المعونة من الطبيعة انهما تشعران بالحاجة الى المزيد من مظاهر الطبيعة ترمزان بها الى مشاعر البشرية الراقدة وهذه المظاهر أكثر قوة من تعبير الكلمات أو الأفعال فقد أنهت شارلوت قصة « **فيليت** ـ وهى أروع قصة لها بوصف عاصفة « تلبدت السماء وامتلأت بالظلمات وزمجرت الرياح من الغرب وأخذت السحب تشكل نفسها فى صور غريبة » وهكذا لجأت الى الطبيعة لتصف حالة عقلية وما كان يمكن أن يكون اللفظ أكثر تعبيرا من ذلك ولكن أيا من الأختين لاحظ الطبيعة بدقة وارهاف كما فعلت دروثى وردزورث أو كما رسمها بدقائقها تنيسون فقد أدركنا تلك الصور من الأرض التى تشبه الى حد كبير ما شعرت به نفساهما أو نسبتهما لشخصياتهما وعلى هذا جاءت عواصفهما ومروجهما وأماكنهما المحببة فى الصيف لا على انها من الزخارف لتزركش صفحة ثقيلة أو لتعرض قدرات الكاتب على الملاحظة ، وانما جاءت لتعبر عن الانفعالات أو لتلقى الضوء على معانى الكتاب

ان معنى الكتاب ـ الذى لا يرتبط ارتباطا مباشرا بالأحداث التى تقع كما هو بعيد عن حوار شخصيات القصة وان كان له علاقة ببعض الأمور المتباينة لدى الكاتب ـ هو بالضرورة أمر يصعب الوصول اليه وخاصة عندما يكون الكاتب ـ كما هو الحال فى آل برونتى ـ شاعريا تتوارى المعانى التى يقصدها فى كلماته التى غالبا ما تكون أقرب الى الحالات النفسية منها الى ملاحظات أو تأملات وان تفهم كتاب **مرتفعات ويذرنج** لأصعب من كتاب **جين اير** وذلك لأن اميلى كانت أكثر شاعرية من شارلوت فعندما كتبت شارلوت كانت تقول فى فصاحة وبلاغة وعاطفة « انى أحب » ، « انى أكره » ، « انى أتألم » فتجربتها ـ على الرغم من

عمقها - فى مستوى تجربتنا ولكن ليس هناك « أنا » فى **مرتفعات ويذرنج** فلم يكن هناك مربية أطفال ولم يكن هناك مخدومون هناك حب ولكنه ليس بحب رجال ونساء ان الفهم العام هو الذى ألهم اميلى ولم يكن الدافع لها على الخلق هو آلامها أو جراحها ؛ وانما لأنهـا نظرت الى العالم فوجدته متفككا وغير متجانس ورأت فى نفسها القدرة على توحيده فى كتاب ويمكن الاحساس بهذا الطموح والرغبة العظيمة من خلال الرواية بأنه كفاح نصف معطل ولكنه اقتناع راسخ لتقول شيئا على لسان شخصياتها ولكن ليس مجرد « انى أحب » « انى أكره بل نحن الجنس البشرى » « وأنت ياذا القدرة الأبدية » وتظل الجملة غير مكتملة وليس بغريب أن تظل هكذا بل ان الغريب أنها استطاعت أن تجعلنا نشعر بما يجول فى خاطرها وبما تريد الافصاح عنه انهـا تموج فى كلمات كاثرين ايرنشو التى لم تنطقها « اذا زال كل شىء سواه وبقى هو فانى أستمر فى البقاء واذا ما بقى كل شىء عداه وذهب هو فستتحول الدنيا بأسرها الى غريب جبار ولن أكون جزءا منه » ثم تنفذ مرة أخرى فى حضرة الموتى « انى أرى سكونا لا تستطيع الأرض ولا حتى الجحيم أن يمسه وانى أشعر بأن الأبدية حق وبانعدام الظل بعد الموت وبالدار الآخرة التى يأوى اليها الأموات حيث الحياة لا ترتبط أو تتقيـد بأجل ولا يتعلق الحب بالشفقة ولا المرح بتكامله » وان هذا الايحاء بالقوة الذى يكمن وراء مظاهر الطبيعة البشرية ويرفعها الى مصاف العظمة هو الذى أعطى الكتاب مكانته العظيمة بين القصص الأخرى فانه لم يكن ليكفى أن تكتب اميلى برونتى بعض الأناشيد أو لتطلق صيحة تعبر عن عقيدة ولقد فعلت ذلك مرة واحدة هى الأولى والأخيرة فى قصائدها وربما تعمر قصائدها أكثر من قصتها ولكنها كانت كاتبة قصة كما كانت شاعرة ولابد أنها حملت على عاتقها عبئا ثقيلا وواجبا كئيبا فعليها أن تواجه واقع وجود الآخرين وعليها أن تؤمن كذلك بحركة الأشـياء الخارجية وأن تبنى - على الأشـكال المتعارف عليهـا - المزارع والمنازل وتسجل كلمات وتخاطب الرجال والنساء الذين يوجدون مستقلين عنها. وعلى ذلك فاننا نصل الى ذروة الانفعال لا بالثرثرة أو بترنيمة وانما بسماع فتاة تغنى لنفسها أغانى قديمة وهى تتأرجح بين أغصان الأشجار وبمراقبة المحاصيل فى المروج وبالانصات الى صوت النسيم يداعب الحشائش فأمامنا الحياة فى الريف بكل ما فيها من سخافات ومتناقضات وقد أعطينا الفرصة للمقارنة بين مرتفعات ويذرنج وبين عزبة حقيقية وكذا المقارنة بين هيثكليف وبين رجل حقيقى - والى أى حد يمكننا أن نتساءل

هل كان هناك أكثر واقعية أو أكثر رقة فى الانفعالات بين رجاء ونساء الرواية الذين يتشابهون قليلا جدا بمن نراهم بأنفسنا ؟ ومع ذلك اذا ما تساءلنا فاننا نجد فى هيثكليف الأخ الذى تراه أخت عبقرية موهوبة. اننا نقول انه مستحيل أن يوجد فى الواقع ومع ذلك لا يتمتع شاب فى الأدب بذلك الوجود النابض الذى يتمتع به هيثكليف وكذلك بالنسبة للأختين كاثرين فاننا نقول انه لا يمكن أن تشعر امرأة بما شعرا أو تتصرف كما تصرفا ومع ذلك فانهما أكثر نساء محبوبات فى الرواية الانجليزية ويبدو كما لو أنها قد مزقت كل ما تعرف عن الآدميين ثم ملأت هذه الشفافية التى لا يعترف بها بنفحة من حياة فأصبحت حقيقة واقعة وهنا تكمن عظمتها الفذة النادرة فى الامكانيات والقدرات انها تستطيع أن تحرر الحياة من اعتمادها على الوقائع وبلمسات طفيفة تقدم لنا روحا لوجه بحيث نصبح فى غير حاجة الى جسم ؛ وعندما تتحدث عن المروج تجعل الريح تقصف والرعد يزمجر

جورج اليوت

ان قراءة جورج اليوت بامعان يؤدى الى ادراك القارىء بأن مايعرفه عنها جد قليل كما ندرك الى أى مدى كانت سليمة الطوية لدرجة لايمكن – لو أمعنا النظر – أن نصدق سلامة الطوية هذه والتى بمقتضاها قبلنا – ونحن نصف واعين مع قليل من سوء القصد أحيانا – تحليل العصر الفيكتورى الأخير » لامرأة مضللة تعرضت بحرية الى موضوعات أكثر منها تضليلا وانه لمن العسير أن نؤكد فى أى وقت وبأية وسيلة أن تعويذتها قد تحطمت ويعزى بعض الناس ذلك الى نشر قصة حياتها وربما كان جورج ميرديث – بعبارته عن « نشاط رجل العرض الصغير (١) » و «المرأة التائهة » (٢) فى مكان العرض – هو الذى شحذ أطراف السهام وسممها لآلاف من الناس الذين هاجموا جورج اليوت وهم عاجزون عن دقة التصويب ولكنهم يسعدون بترك تلك السهام تنطلق وبذا أصبحت جورج اليوت محطا لسخرية الشباب وهدفا ورمزا واضحا لمجموعة من الناس الجادين الذين كانوا جميعا متهمين بنفس الوثنية ويمكن لفظهم بنفس الازدراء وقد قال اللورد أكتون « أنها أعظم من دانتى » ، واستثنى هربت سبنسر قصصها – كما لو كانت ليست بقصص – عندما قاطع تزويد مكتبة لندن(٣) بالقصص. فقد كانت فخرا ومثلا لبنات جنسها وفضلا عن ذلك فان تاريخها الخاص لم يكن أكثر خداعا من حياتها العامة ولما سئل راوى

---

(١) mercurial little showman.

(٢) errant woman.

(٣) مكتبة لندن ، مكتبة خاصة بآثار كبار الكتاب والمؤلفين والفلاسفة ولاتقبل عضوية أى فرد فيها الا بشروط خاصة عسيرة – وقد كان لهذه المكتبة فضل كبير على المترجمة – بعد قبولها عضوا بها للحصول على المراجع النادرة – والمؤلفات التى نفذت من السوق الخاصة برسالة الدكتوراه التى تقدمت بها الى جامعة لندن

القصة أن يصف أمسية فى بريورى فانه يقول أن ذكريات أمسيات الأحد الجادة هذه تثير فيه روح الدعابة وانه ليفزع كثيرا من السيدة الرصينة الجالسة على كرسيها المنخفض وانه ليود أن يشير اليها بقوله هذا « الشيء الذكى ومن المؤكد أن الحديث الذى خاضته وهى فى مكانها كان جادا كما شهدت بذلك ورقة فى اليد الدقيقة للقصاصة العظيمة وكانت مؤرخة صباح الاثنين اتهمت نفسها بأنها تكلمت بغير وعى عن ماريفو بينما كانت تعنى كاتبا آخر ولكن المستمع اليها قد قام بتصحيح الخطأ وان ذكرى الحديث عن ماريفو الى جورج اليوت بعد ظهر يوم من أيام الآحاد ليست بالذكرى العاطفية اذ تلاشت العاطفة مع مرور السنين ولم تعد قوية أو زاهية جذابة

وفى الحقيقة لم يكن فى مقدور أحد أن يتهرب من الايمان بأن الوجه الطويل الصارم الجاد قد فرض نفسه وسيطر على عقول الناس الذين يذكرون جورج اليوت حتى كأنها تتطلع اليهم من خلال صفحات كتبها وقد وصفها مستر جوس (١) أخيرا عندما رآها تقود عربتها القديمة فى شوارع لندن وصفها بأنها مشعوذة ضخمة ساكنة هائمة ذات ملامح كبيرة بشعة اذا نظرت اليها نظرة جانبية وتضع على رأسها قبعة كبيرة غير متلائمة أو متجانسة وان كانت على أحدث طراز من باريس وكانت تحلى عادة فى تلك الأيام بريشة نعام كبيرة » وبنفس الطريقة وصفتها الليدى ريتشى (٢) فى حياتها الخاصة تجلس بجوار المدفأة فى رداء أسود من الساتان الجميل وبجوارها مصباح ذو غطاء أخضر على المنضدة حيث كنت أرى كتبا ألمانية ومطبوعات وفتاحة الورق العاجية كانت هادئة وعظيمة وذات عينين صغيرتين ثابتتين ، وكان صوتها حلوا وعندما نظرت اليها شعرت بأنها صديقة ـ ليست صديقة شخصية وانما شخص ودود ذو قلب عظيم » ٠ وقد سجل لها حديث وهى تقول « يجب أن نحترم تأثيرنا فى الغير ـ فاننا نعلم بخبراتنا الى أى مدى يؤثر فى حياتنا الآخرون، وعلينا أن نذكر أنه ـ بالتالى ـ لابد أننا نؤثر فى الآخرين » انه وان كان هذا التسجيل محفوظا بعناية لكى يزكى الغيرة والذكريات فاننا يمكن أن نتصور ـ اذا ما استعدنا المنظر وكررنا نفس الكلمات ـ أننا نجد أنفسنا ولأول مرة ننفجر ضاحكين

---

(١) Mr. Gosse.

(٢) Lady Ritchie.

فى كل هذه التسجيلات يشعر المرء أن هؤلاء الذين سجلوا هذه الذكريات وهم معاصرون لها كانوا متباعدين عنها بأجسامهم وبأفكارهم ولم يقرءوا قصصها بعد ، ومع ذلك فهم يستعيدون فى أذهانهم شخصية حية جميلة محيرة تداعب أعينهم ففى كتابتها للقصة حيث الشخصيات الكثيرة تكشف عن شخصيتها هى فاننا نلحظ اختفاء السحر والجمال من بطلاتها بصورة واضحة مما جعل نقادها ـ الذين كان معظمهم من الرجال ـ ينفرون من عدم وضوح شخصيتها مما ترتب عليه اختفاء السحر وهو الجانب المعروف عنه أنه مرغوب للغاية فى النساء والسبب فى ذلك يرجع الى أن جورج اليوت لم تكن جذابة ، ولم تكن ذات أنوثة ، ولم يكن بها انحراف أو شذوذ ولم تكن متقلبة الأهواء الأمر الذى نشاهده فى كثير من الفنانين مما يسبغ عليهم بساطة الطفولة المحببة بل يحس المرء ـ كما وصفت ليدى ريتشى احساسها « ليست صديقة شخصية وانما شخص ودود ذو قلب عظيم » واذا ما درسنا هذه الصورة بامعان نجد انها صورة لامرأة كبيرة مشهورة ذات رداء أسود من الساتان وتقود سيارتها العتيقة نجد فيها امرأة خاضت معركة حياتها وخرجت منها وهى أشد ما تكون رغبة فى تحقيق النفع للآخرين ، وانما بغير الحاح فى التقرب اليهم الا فى دائرة ضيقة ممن عرفوها ابان شبابها ـ شبابها الذى لا نعرف عنه الا القليل ؛ وانما نعرف أن الثقافة والفلسفة والشهرة والتأثير ، كل هذا قد قام على أساس متواضع ـ فقد كانت جورج اليوت حفيدة نجار

ان أول مرحلة فى حياتها كانت مرحلة فريدة فى آلامها • ففى خلالها نراها تنشىء نفسها على التأوهات والكفاح فى مجتمع محلى وضيع غير محتمل ، ومشحون بالملل والقلق (فقد اقترب أبوها فى حياته من الطبقة المتوسطة لذا كانت حياته أقل ازدهارا من حياة تلك الطبقة) وخرجت هى من كفاحها لتكون مساعدة محرر فى احدى مجلات لندن الثقافية ورفيقا مرموقا عند هيربرت سبنسر وكانت خطوات تلك المرحلة مؤلمة كما أفصحت عن ذلك فى نجواها الحزينة لنفسها عندما أحرجها الأستاذ كروس فأجبرها على أن تتحدث عن نفسها فقد كانت فى شبابها المبكر مقيدة فى نادى معونة حيث وعدت بالحصول على وظيفة ولما فشلت أسهمت فى جمع المعونات لترميم كنيسة وذلك عن طريق عمل ميثاق عن تاريخ تلك الكنيسة الدينى ؛ وتبع هذا العمل فقدانها لايمانها الذى أفزع والدها فزعا شديدا حتى انه رفض أن يقيم معها ثم جاء بعد ذلك كفاحها

فى ترجمة شتراوس الذى كان يمكن ـ على ما فيه من شـؤم وكآبة على النفس ـ أن يكون أقل تأثيرا لولا ما كانت تقوم به كامرأة من أعباء ادارة البيت ورعاية شئون والدها المشرف على الموت ولكن اقتناعهـا المؤلم واستسلامها الحزين ـ وهى المرأة التى تؤمن بالعاطفة ـ بأنها عندما أصبحت امرأة فقدت احترام أخيها وفى هذا كانت تقول « كنت أهيم كبوم مما زاد فى ازدراء أخى ٠ » حتى أن أحد الأصدقاء كتب عنها وهى تجاهد فى ترجمة شتراوس وتضع تمثال المسيح الى جوارها ياللمسكينة اننى أشفق عليها فعلا فى بعض الأحيان وهى تحملوجها مريضا شاحبا يعاودهـا صداع مروع فضلا عن قلقها على والدها » ومع ذلك لا يمكننا قراءة قصة حياتها دون أن نشعر بأننا كنا نتمنى من أعماقنا أن تكون مراحل حياتها هينة سهلة ان لم تكن أكثر اشراقا اذ كان تصميمها العنيد لارتقاء صرح الثقافة يسمو بشعورنا عن الاشفاق عليها ـ وكان تطورها بطيئا جـدا وعجيبا جدا بل كان وراءه قوة دافعة لا تقوى على مقاومتها هى الطموح النبيل المتغلغل فى أعماقنا فكانت تذلل كل عقبة تقف فى طريقها بعد أن عرفت كل شخص وقرأت عن كل شىء وانتصر نشاطها الفكرى العجيب ثم ولى الشباب ولى الشباب الملىء بالآلام وفى الخامسة والثلاثين وبينما هى فى أوج قوتها وفى انطلاقها الكامل اتخذت لنفسها قرارا كان عميق الأثر فيها هاما بالنسبة الينا اذ قررت أن تذهب بمفردها الى ويمر مع جورج هنرى لويس

تشهد كتبها ـ التى أصدرتها بعد معاشرتها لجورج هنرى لويس ـ بصورة واضحة بالتحرر الكبير الذى أصابها وبالسعادة الشخصية ٠ كانت تلك الكتب فى ذاتها كنزا زاخرا ومع ذلك نجد فى أول حياتها الأدبيـة انطباعات تشير الى عودة عقلها الى الماضى الى القرية الى هدوء ذكريات الطفولة وبساطتها وجمالها بعيدة عن نفسها وعن حاضرها والدليل على ذلك أن أول كتبهـا كان **صور من الحياة الكنائسـية** (١) وليس **ميدل مارش**(٢)٠ ثم أمدتها معاشرتها لجورج هنرىلويس بالعاطفة ولكن من وجهة نظر الظروف والتقاليد فقد أحاطتها بسياج عزلها عن المجتمع فقـد كتبت عام ١٨٥٧ أريدها واضحة أننى لا أدعو أحدا لزيارتى مالم يطلب هو دعوته لذلك وقالت مرة أخرى لقد انقطعت عما يسمى بالدنيا ولكنها لم تكن نادمة ولما أصبحت مرموقة ـ نتيجة لظروفها الشخصية

---

(١) Scenes of Clerical Life.

(٢) Middle March.

بادىء الأمر ثم لشهرتها ككاتبة فيما بعد ـ فقدت القدرة على الحركة بسهولة من غير أن يشعر بها احد من بنات جنسها وهذه الخسارة امر خطير بالنسبة لكاتبة قصة ولكنها نعمت فى شهرة كتابها « **صور من الحياة الكنائسية** » لاحساسها بعقل ناضج يفرض نفسه بشعور فياض من الحرية فى ماضيها البعيد وعلى ذلك يصبح الكلام عن فقدان الحركة فيما بعد غير ذى موضوع فكل ما يفكر فيه هذا العقل الآن مغنم بعد أن ترسبت الخبرات فى فهم واستيعاب لتنعكس فى غنى ودسامة وكل ما يمكن أن يقال ، فى تحديد اتجاهها فى الكتابة ـ عن طريق القليل الذى نعرفه عن حياتها ـ أنها تلقت مؤخرا دروسا عاطفية معينة ـ ان كانت قد تعلمتها والتى من بينها ما كان أكثر تسلطا عليها وهو فضيلة التحمل الحزين اذ كانت مشاعرها مع عامة الشعب وتتجاوب فى سعادة مع مآسى الحياة المنزلية وأفراحها ولم يكن لها التركيز العاطفى الذاتى المتعلق بالشخصية ، والذى لا يمكن التخفيف من حدته أو استبداله اذ يفرض نفسه بقوة على العالم أين التركيز العاطفى فى حب « وآلام رجل الدين الكهل الذى يحلم من خلال ما يشربه من الويسكى أو ما يتعاطاه من النشوق ـ كما وصفته جورج اليوت ـ بأنانية جين اير المتقدة كما وصفتها شارلوت برونتى ؟ ان جمال هذه الكتب الأولى **صورة من الحياة الكنائسية** **وآدم بيد** (١) **والطاحونة فى برارى فلوس** (٢) جمال رائع جدا ومن المستحيل تقدير قيمة عائلة بويزر وعائلة دورسون وعائلة جيلفيل وبارتون والآخرين بكل ما يحيط بهم وما يتصل بهم لأنهم تجسدوا دما ولحما وعشنا معهم تارة فى ملل وتارة أخرى فى اشفاق ولكن فى جميع الحالات لم نكن نملك الا أن نتقبل أفعالهم وأقوالهم دون مناقشة، كما نفعل مع العظماء النادرين

ان فيضان الذكريات والمرح الذى تصبه جورج اليوت تلقائيا فى شخصية واحدة فى منظر تلو الآخر حتى تعيد الى ريف انجلترا القديم ـ حيث تجرى فيه أمور طبيعية ـ ما كان عليه حتى لا يكون فيه بعد ذلك مجال لناقد بل نتقبل كل شىء ، نتقبل الدفء الجميل والانطلاق الروحى الذى لا يستطيع أحد غير كبار الكتاب أن يحققه لنا ولما نعود الى الكتب بعد انقطاع سنوات عنها نجد أنها تفيض ـ على عكس ما نتوقع ـ بنفس مكنونات النشاط والطاقة حتى أننا لنرغب ـ أكثر من أى شىء آخر ـ

---

(١) **Adam Bede.**

(٢) **The Mill on The Floss.**

فى أن ننعم بدفء تأثيرها كما ننعم بدفء الشمس تتسلل من بين أغصان الاشجار فى بستان جميل وحتى اننا لنفكر فى وسيله لنهجر كل شى ونستمتع بدعابات فلاحى ميدلاند وزوجاتهم وهذا التفكير صادق عندما نعاود قراءة الكتب ونتقبل كتاباتها حتى انه يصبح من النادر أن نجد الرغبة فى تحليل ما نجده فى كتاباتها الشامله التى تتصل بأعماق الانسانية وعندما ندرك مدى بعد هذا العالم عن الماضى ـ عالم شيرتون وهايسلوب وعندما ندرك أن عقلية الفلاحين والعمال الزراعيين بعيدة عن قراءة جورج اليوت ـ فاذا ما أدركنا كل ذلك كان فى الامكان ان نعزى السهولة والسرور عندما نتجول من منزل الى دكان الحداد ومن فناء الدار الى حديقة الابراشية نعزى ذلك كله الى أن جورج اليوت تشركنا فى حياتهم ، ليس بروح من التنازل أو من قبيل حب الاستطلاع وانما بروح العطف والمشاركة فجورج اليوت ليست بالكاتبة الساخرة والعمليات الفكرية عندها من البطء والتعقيد ما يبعدها عن أن تندمج فى الفكاهة وان كانت تجمع فى ادراكها الواسع بالطبيعة البشرية مجموعة من عناصرها وتجمعها ببساطة وبمقدرة سليمة وفهم واضح وهذا هو الذى يمكن ملاحظته عند معاودة قراءة كتبها مما لا يجعل شخصيتها دائما متجددة ومتحررة فحسب بل يجعلها تتحكم دون أن نشعر فى ابتسامتنا وفى دموعنا ومن هذه الشخصيات مسز بويزر المشهورة فى قصة **آدم بيد** فقد كان من الممكن أن تستغل فطرتها الى النهاية ولكن جورج اليوت جعلت منها ـ فى الصورة التى صورتها عليها ـ شخصية تضحك دائما من الآخرين ولكن تعيد لنا الذاكرة ـ بعد أن ننتهى من قراءة الكتاب ـ تفاصيل ومهارات كانت خابية الى جوار الصفات البارزة التى لم ندركها أو نلاحظها أثناء القراءة واننا نعلم أن صحتها لم تكن طيبة وكانت هناك مناسبات لم تتحدث عنها اطلاقا لقد كانت هى الصبر نفسه مع طفل مريض وكانت مشغوفة لذكرى الطفلة توتى ولذلك يجد المرء نفسه يتأمل ويتمعن فى شخصيات جورج اليوت العديدة حتى ليلحظ فى النهاية الفجوة والمسافة حيث تكمن تلك الصفات التى لم تشأ جورج اليوت أن تكشف عنها الغموض

وفى وسط هذا العطف والتحمل يوجد فى كتبها الأولى لحظات أعظم أهمية فقد أظهرت قدرتها على الدعاية بحيث امتدت الى آفاق بعيدة فشملت مغفلين وفاشلين وأمهات وأطفالا وكلابا وحقولا يانعة وفلاحين عقلاء وسكارى ، تجار خيول وأصحاب حانات ، قسسا ونجارين

ـ خيم عليهم كلهم جو من خيال معين وهو الخيال الوحيد الذى سمحت به جورج اليوت لنفسها ، انه خيال الماضى ان كتبها مشوقة للغاية وليس فيها أثر للأبهة أو المظاهر وانما بالنسبة للقارىء الذى لديه المام سابق بكتبها الآولى فان سحب الغموض تنقشع • وقدرتها على الكتابة لا تتناقص وانما تبلغ ذروتها فى كتابها الناضج « **ميدل مارش** » ذلك الكتاب الرائع الذى ـ على الرغم مما به من مآخذ ـ فهو آحد الكتب القلائل فى القصة الانجليزية التى انما كتبت للناضجين من الناس فلم تعد دنيا الحقول والمزارع تشفى غليلها فهى فى الحياة الواقعية قد نقبت عن حظها بعيدا عن الحقول والمزارع ، وعلى ذلك لم يكن الالتفات الى الماضى الا طلبا للهدوء والعزاء ، ولهذا تلحظ فى كتبها الأولى لمحات لهذه النفس المضطربة ، تلك اللمحات التى تحدد وتلح ثم عطلت الحاضر الذى هو جورج اليوت نفسها• ففى كتابها **آدم بيد** نجد اشارة الى نفسها فى شخصية دينا ثم تكشف عن نفسها كلية وبوضوح أكثر فى شخصية ماجى فى كتابها **الطاحونة فى برارى فلوس** ثم هى جانيت فى قصة **توبة جانيت** (١) ورومولا ودوريثيا وهما تبحثان عن الحكمة وتجدان أنه من النادر أن يدرك المرء ما فى الزواج من شخصية « لادزلو » واننا نميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يصمون جورج اليوت بالدناسة انما حكموا عليها بهذا من خلال بطلاتها وهذا الاعتقاد سليم لأن بطلاتها ـ من غير شك ـ تكشف عن أسوأ ما فى جورج اليوت وتجعلها تكشف عن مخازى حياتها وتجعلها دائما تحس بنفسها وهى تارة معلمة وشرسة تارة أخرى ومع ذلك ان استطعت أن تجذب الخيط الذى يصل بينها وبين شخصياتها فان ما دون ذلك يكون تافها وناقصا ولو أنه تكامل فنى ملىء بالبهجة والراحة ولتعليل فشلها ـ اذا كان يمكن تسمية ذلك فشلا ـ يجب أن نذكر أنها لم تبدأ فى الكتابة الا فى سن السابعة والثلاثين فلما بدأت تفكر فى هذا السن كان تفكيرها مزيجا من الألم والتحفظ وبقيت مدة طويلة تفضل ألا تفكر فى نفسها بالمرة ولكن عندما تلاشت الدفعة الأولى للخلق واستعادت ثقتها بنفسها بدأت تكتب عن نفسـها وفعلت ذلك دون أن تهجر طفولتها ونلاحظ شعورها واحساسها بنفسها عندما تجرى على لسان بطلاتها ماكانت تتمنى أن تقوله هى عن نفسها وكانت تخفى معالم بطلاتها بكل وسيلة ممكنة كما منحتهن جمالا وثراء وزادتهن ميلا لشرب البراندى وانما الحقيقـة

---

(١) Janet's Repentance.

المحيرة والدافعة بقيت كما هى وهى أنها اضطرت بقدرة عبقريتها أن تتقدم بشخصها نحو المنظر الريفى الهادىء

ان الفتاة الجميلة النبيلة التى صممت جورج اليوت أن تجعلها تولد فى براري « فلوس » لأوضح مثل على بطلة تحيط من حولها الأطلال وتغمرها روح الفكاهة وتجعلها محبوبة دائما طالما بقيت صغيرة ويمكن أن ترضى بقصص الهرب مع الغجر وتدق المسامير فى عروستها ولكن تتطور وقبل أن تدرك جورج اليوت ماذا حدث كانت أمام امرأة اكتمل نموها تطالب بما لا تستطيع أن تمنحه الغجريات ولا العرائس ولا القديس أوج. فقدمت أولا فيليب واكم ثم بعد ذلك ستيفن جيست وكان النقاد يشيرون دائما الى ضعف الأول وخشونة الثانى وكلاهما سواء فى الضعف أو الخشونة لا يدلان على عدم قدرتها على تصوير شخصية الرجل وانما عدم التأكد والاهتزاز والتردد الذى كان يرعش يديها عندما كانت تضطر لخلق الرفيق المناسب لبطلاتها فقد أبعدت فى بادىء الأمر عن عالم البيت الذى تعرفه وتحبه ثم أجبرت على ولوج صالونات الطبقة المتوسطة حيث يغنى الشباب أغانى الصيف الصباحية وحيث تجلس الفتيات يطرزن طواقى للأسواق فأحست أنها غريبة عن هذا المجتمع كما أيد ذلك تنديدها الفظ بما أسمته « المجتمع الطيب »

« للمجتمع الحسن نبيذه وسجاجيده المخملية وله التزاماته وولائمه وأوبراته ومراقصه الخيالية ، يستمد عمله من فاراداى وديانته من القسيس الأعظم الذى يستقبل فى أحسن البيوتات فكيف اذا يحتاج هذا المجتمع الى الايمان أو الاقتناع »

لا نجد فى هذا الكلام أثرا للدعابة أو للادراك بل نجد أحقاد التعصب الذى نشعر أن مرده أسباب شخصية ولكن نظامنا الاجتماعى له فروض مروعة على مشاعر كاتب الرواية وادراكه واحساساته حتى ليشرد كلما خرج من محيطه وأسوأ ما فعلته ماجى توليفر أنها أخرجت جورج اليوت من محيطها الطبيعى فقد ألحت عليها أن تقدمها فى المشهد العاطفى العنيف فهى لابد أن تعشق ولابد أن يصيبها اليأس وهى فى النهاية لابد أن تغرق وهى ممسكة أخاها بيديها وكلما ازددنا فحصا للمشاهد العاطفية العنيفة توقعنا مزيدا من العصبية فى تلاقى السحب وتجمعها حتى لتنذر بوابل من خيبة الأمل والهراء والسبب فى ذلك يرجع الى أن

قدرتها على الحوار ــ عندما لايكون دارجا ــ ضعيفة كما يرجع الى أنها تتراجع وتنكمش كالعجوز التى تخشى المجهود نتيجة للتركيز والمجهود العاطفى الذى تبذله فهى تجعل بطلاتها تثرثر كثيرا وأسلوبها ليس بالسلس وينقصها التذوق الماهر الذى يمكنها من اختيار جملة واحدة ثم تركز المشهد وتجعله يدور فى محيط هذه الجملة المنتقاة

ــ « مع من سترقصين » ؟ هكذا تساءل السيد ناتيلى فى الحفل الراقص فى ويستن ــ « معك ان طلبت ذلك » كان جواب اما Emma

وفى ذلك ما فيه الكفاية فى حين أن السيدة كازابون كانت تتحدث فى هذا المجال ساعة كاملة وكنا عندئذ ننصرف عنها

ومع ذلك اذا أهملنا بطلات جورج اليوت بلا رحمة ، وحددنا عالمها بالعالم الزراعى لماضيها السحيق » ، فاننا لا نقضى على عظمتها فحسب بل نفقد تذوق رواياتها وهى عظيمة دون شك مجالها عريض واسع محددة المعالم ففى كتبها الأولى النابضة بالشباب وفى كتبها الأخيرة الزاخرة بالقدرة على البحث تجبرنا بالتأمل على التريث والاسهاب فى مديحها دون تقيد وانما بطلاتها هى التى نلقى عليها نظرة أخيرة

« كنت دائما أبحث عن الايمان منذ كنت طفلة صغيرة »
هذا ما قالت دوريثا كازابون « كنت آنئذ أكثر صلابة فى حين أننى الآن قلما أصلى أحاول ألا يكون لى أبدا رغبات خاصة بنفسى »

وهى تتحدث عن أهلها جميعا فهذه هى مشكلتهن وهن لايستطعن أن يحيين بلا عقيدة بل يبدأن فى البحث عن احدى هذه العقائد عندما يصبحن فتيات صغيرات ولكل منهن ميل عميق نحو الطبيعة ، مما يجعل موقفها ــ سواء فى تأجج الأمل أو فى صدمة العذاب ــ محور الكتاب هذا الموقف أو محور الكتاب ساكن مزخرف كالمعبد ومع ذلك فهى لم تعد تعرف لمن تصلى ومن خبراتهن فى مجال التزاماتهن النسوية الطبيعية يبحثن عن هدفهن ومن خلال مجالهن الواسع فيما يؤدين من خدمات لا يجدن ما يسعين اليه ولا غرابة فى ذلك فعقل المرأة الباطن منذ القدم مشحون بالعذاب والحساسية لقد ظل حقبة طويلة من الزمن لا ينطق أو يحتج حتى يبدو عقل البطلات وكأنه طفح بما فيه ثم أفصح عن مطلب أو رغبة فى شىء ــ ولكنهن لا يكدن يدرين ماهية هذا الشىء فهو رغبة فى شىء ربما كان غير مألوف لواقع الوجود البشرى ولكن

ذكاء جورج اليوت بلغ من الحدة حتى ليعبث بهذا الواقع ، ومزاحها خصب حتى ليلطف من الحقيقـة الصارمة   واذا استثنينا الشجاعة الفـذة لبطلاتها فى بحثهن عن الحقيقة ، لانتهى صراعهن بمأساة أو بتراض هـــو فى الواقع أكثر تأثيرا   وعلى العموم نجد قصة أولاء البطلات هى القصة التى لم تتم لحياة جورج اليوت نفسها   فهى ترى أن مسئولية المرأة وعقدة الجنس لم يكونا كافيين . كما ترى أنه يجب أن تجتاز حدود سجنها وتقطف من الثمار الغريبة الزاهية للفن والمعرفة وتتعلق بها كما تعلقت نســاء قليلات ، ولا تتنازل عن طبائعها المتوارثة   تلك هى اختلاف وجهة نظرها أو اختلاف مستواها ، وهى لا تقبل أية مكافأة غير لائقة بها . ولذلك نراها شخصية لا تنسى ، نالت ما تستحقه من مديح ولكنها كانت تتوارى بعيدا عن الشهرة ، يائسة ، متحفظة تحتمى بين أذرع الحب كما لو كانت بينهما فقط تجد الرضا وربما التبرير   وفى نفس الوقت تحصل   بطموح دقيق نهم »   على كل ما يمكن أن تمنحه الحيـــاة ، والعقل الحر المنقب ومواجهة تأملاتها النسائية بعالم الرجال الحقيقى   وكان النصر حليفهـا مهما كانت الصورة التى عليها بطلاتها   وعندما نستعيد فى الذاكرة كل ما أقدمت عليه وما حققته ـ رغم كل العقبات التى صادفتها   ســواء من ناحية الجنس أو الصحة أو التقاليد ـ فى بحثها عن المعرفة والحرية حتى ناء جسدها بحمله المضاعف وبلى وانزوى عودها   نرى لزاما علينا أن نضع على قبرها كل ما يمكن أن يوضع من أكاليل الزهور والورود

وجهة النظر الروسية

اننا نتشكك دائما فيما اذا كان الفرنسيون أو الأمريكيون — الذين يألفون فينا الشيء الكثير — يمكنهم تفهم الأدب الانجليزي وعلينا أن نعترف بتشكك أعمق فيما اذا كان الانجليز — على الرغم من كل تحمسهم بقادرين على تفهم الأدب الروسي وقد تكون المناظرة هي التي عوقت بصفة قاطعة تحديد ما الذي نعنيه بكلمة « تفهم » وقد نجد أمثلة لكل فرد من الكتاب الأمريكين وبصفة خاصة لمن كتبوا وغالوا في التمييز بيننا وبين أدبنا ، ولمن أمضوا حياتهم بيننا ثم اتخذوا الاجراءات القانوية لكي يصبحوا من رعايا الملك جورج فهل بعد هذا كله فهمونا ؟ ألم يبقوا حتى آخر أيامهم غرباء ؟ هل يصدق أحد أن قصص هنري جيمس كتبت بمعرفة رجل عاش في المجتمع الذي يصفه أو أن نقده للكتاب الانجليز كتب بمعرفة رجل سبق أن قرأ شيكسبير يغير عقلية المحيط الأطلنطي ؟ وأن مائتين أو ثلاثمائة سنة على الجانب الآخر من المحيط قد فصلت حضارته عن حضارتنا ان هناك دائما الذكاء الخاص والانفصال وزاوية ضيقة للرؤيا عند الغريب أما بالنسبة للمواطن فليس لديه الاحساس الذاتي الذي يشعر به الغريب بل يحس بتلك البساطة والزمالة والاحساس بالقيم العامة التي تتبع المودة وسلامة العقل وسرعة البذل والأخذ والعطاء في مجتمع ليس بغريب عليه .

وليس هذا هو كل ما يفصل بيننا وبين الأدب الروسي بل هناك حاجز أكثر أهمية من هذا كله الا وهو الاختلاف في اللغة ومن هؤلاء الذين التهموا تولستوي ودستوفسكي وتشيكوف خلال العشرين سنة الماضية نجد أن واحدا أو اثنين على الأكثر هما اللذان قرءا لهؤلاء بالروسية ان تقديرنا لعظمتهم قد تشكلت من خلال أقوال النقاد الذين لم يقرأوا كلمة روسية واحدة أو رأوا روسيا أو حتى سمعوا الروس يتحدثون بلغتهم كل هذا اعتمد اعتمادا كليا على أعمال

المترجمين ان ما نقوله فى هذا الصدد اذا انما هو حكمنا الذى أصدرناه على أدب برمته بعد أن أنتزع من أسلوبه فعندمــا تحول كل كلمة فى جملة من الروسية الى الانجليزية فانك تكون قد غيرت المعنى تغييرا طفيفا أما الموسيقى والوزن ونبرة الكلمات فى علاقاتها بالكلمات الأخرى فانها تتغير كلية دون أن يبقى منها سوى معنى فج هكذا عومل الكتاب الروسى العظام فأصبحوا أشبه بالرجال الذين جردوا بفعل زلزال أو كارثة من ملابسهم أو ما هـــو أهم من ذلك جردوا من أســلوبهم وسجية شخصياتهم وفطرتهم ولا يتبقى بعــد ذلك ـ كمــا أثبتــه الانجليز بتعصب اعجابهم ـ الا شىء قوى مؤثر ولكنه من العســير الاحساس ـ بعد هذا البتر ـ بمدى الاطمئنان الى اننا لا نفترى عليهم أو أننا لا نشوه أعمالهم فنقرأ لهم ونقتنع بالزيف

لقد جرد الكتاب الروس من ثيابهـــم ـ كما نقول ـ فى فاجعــة مروعة اذ أن مثل هذه الشخصيات تصف البســاطة والانسانية التى جفلت دون مجهود مذعــورة لتخفى أو تموه فطرتهــا التى فرضهــا علينا الأدب الروسى ، اما نتيجة للترجمة واما لأى سبب آخر أبعد عمقا واننا نجد تلك الميزات تزداد وعورة وهى واضحة فى الكتاب العظام كما هى واضحة فيمن هم أقل منهم شأنا « تعــلم لتجعل من نفسك نداً للناس . وأود أن أضيف اجعل من نفسك شيئا لازما ضروريا بالنسبة اليهم ولكن لا تدع للشفقة مجالا لتجد طريقها الى العقل فان الأمر سهل ما دام العقل يفكر ولكنه ليس كذلك اذا تحكم القلب أو اتجهت العاطفة نحوهم » « من الروسية » ، هذا هو كل ما يمكن أن يقوله المرء بمجرد أن يصادف شيئا مقتبسا والافتراض ـ فى عالم تفشى فيــه البؤس ـ بأن الواجب الأســاسى علينــا أن نفهم ونحس باخواننــا المعــذبين ، « ولكن ليس بالفكر ـ اذ أن ذلك أمره ســهل ـ وانمــا بالقلب » ـ هــذه هى الســحابة التى تخيـــم على كل الأدب الروسى والتى تغرينــا بأن ننتشر فى ظلهــا هــربا من لفحات نبوغنا ومن شــواظ عموميتنــا وبغير شك تكون النتائج وخيمة فقــد أصبحنا فى وضع غريب وبادراك ذاتى نفكر صفاتنا نحن ، ونكتب بتلك الجودة والبساطة لدرجة تعافها النفس الى أبعــد حد فنحن لا يمكننا أن نقول يا أخى » عن ايمان بسيط سهل وهناك قصة جالثويرثى وفيهــا تخاطب احدى الشخصيات شخصية أخرى بكلمة « يا أخى » وذلك لأن كليهما فى أعمــاق الألم من الحظ السيىء » عندما نقرأ ذلك سرعان ما نشعر بأن كل شىء غير طبيعى غير مستساغ ان الكلمة الروسية

التى تقابل كلمة « أخ » فى الانجليزية وهى « رفيق » كلمة تختلف تمام الاختلاف فيها شيء من الاستخفاف وتحمل فى طياتها الايحاء المبهم بالتهكم هكذا تقابل الرجلان الانجليزيان فى أعماق الألم من الحظ السيء وهكذا — وقد قرب بينهما الفقر — ونحن متأكدون — سوف يجدان عملا ثم يصيبان شيئا من الثراء فيقضيان سنوات حياتهما الأخيرة فى بحبوحة ويجنيان بعضا من المال حتى لا ينادى الفقراء بعضهم البعض على الجسر بكلمة « أيها الأخ » اذ أن الآلام المشتركة وليست السعادة المشتركة أو الرغبة هى التى تخلق الشعور بالاخوة انه الأسى العميق الذى اكتشف دكتور هاجبرج رايت (١) أنه يطابق ما أدخله الشعب الروسى فى آدابه .

وبطبيعة الحال ان التعميم الذى من هذا القبيل — حتى ولو كان فيه قدر من الصدق اذا ما طبق على الأدب — سوف يتغير جذريا عندما يكون الكاتب العبقرى هو الذى يتناوله فى عمله وعندئذ ثمة أسئلة تثور فمن المعروف أن « وضعا ما » ليس بسيطا بل هو معقد غاية التعقيد وأن الرجال الذين عقدت دهشة تصادم القطار ألسنتهم وجردوا من ملابسهم واختفى الرقيب الذى يتحكم فى أخلاقهم مثل هؤلاء الرجال يقولون كلاما قاسيا ، وأشياء فظة غير لطيفة ، أشياء يصعب اتيانها فى الظروف العادية كل ذلك يصدر متتابعا مرسلا فى يسر وكأن الكارثة قد تولدت معهم هكذا تكون أول انطباعاتنا عن تشيكوف انطباعات ليست عن البساطة بل عن الضياع ما هو الهدف من تلك الكتابة ، ولماذا جعل من ذلك قصة ؟ هكذا نتساءل عندما نقرأ قصة تلو أخرى رجل يقع فى غرام امرأة متزوجة ويفترقان ثم يلتقيان وفى النهاية نجدهما يتناقشان فى موقفهما وكيف يتحرران من « هذا القيد الذى لا يمكن تحمله » .

« كيف ؟ كيف ؟ » يتساءل القارىء وهو ممسك برأسه ويبدو كما لو كان فى لحظة وجيزة سوف يصل الى الحل ، وعندئذ تبدأ حياة جديدة هنيئة » هذه هى النهاية للقصة . وقصة أخرى نرى ساعى البريد يوصل طالبا الى المحطة وفى أثناء الطريق يحاول الطالب أن يدفع ساعى البريد الى الكلام ولكنه يبقى ساكنا . وفجأة يتفوه ساعى البريد بكلام غير متوقع « ان السماح لأحد بالركوب مع البريد أمر مخالف للتعليمات » ثم يذرع رصيف المحطة ذهابا وايابا

---

(١) Dr. Hagberg Wright.

تعلو وجهه نظرة غضب ، « ممن هو غاضب ؟ » وهكذا تنتهى تلك القصة .

ولكن هل نهاية القصة هى التى نبغى ؟ اننا نشعر أننا قد جاوزنا الحدود أو أن نغما قد توقف قليلا دون أن تتجمع الخيوط لتسدل الستار ان هذه القصص لا يمكن اخضاعها للقيود أو نقدها بنفس الطريقة التى تعارفنا عليها اننا أن فعلنا ذلك فاننا نثير سؤالا حول مدى لياقتنا كقراء ، حيث النغم المألوف والنهاية الحتمية ، النهاية السعيدة للمحبين ، الأشرار يغلبون على أمرهم ، والخداع ينكشف ، كما هى الحال فى معظم القصص العاطفية فى عصر فيكتوريا وعندئذ لا نضل عند قراءة مثل هذه القصص ولكن عندما يكون النغم غير مألوف والنهاية غير واضحة أو محددة المعالم مما يبعث على التساؤل أو تنتهى القصة على مجرد حديث بين أبطال القصة كما سبق أن بينا عند الكلام على تشيكوف عندئذ نكون فى حاجة ماسة الى حاسة أدبية جريئة متيقظة حتى نستطيع أن نتذوق النغم وخاصة تلك العبارات الأخيرة التى تكمل التوافق . ربما يكون علينا أن نقرأ قصصا كثيرة جدا قبل أن نحس ذلك الاحساس الضرورى لتحقيق رضانا عنها ولكى نجمع أجزاءها معا وعندئذ يصبح تشيكوف ليس كاتبا متجولا متفككا وانما يناقش نقطة معينة تارة ويتطرق الى نقطة أخرى تارة أخرى عن قصد ليكمل المعنى الذى يريد

يجب علينا أن نبحث وندقق لنتكشف المواطن الهامة فى تلك القصص الغريبة وتقودنا كلمات تشيكوف نفسها فى الاتجاه الصحيح عندما يقول « ان مثل هـذا الحـوار الذى يدور بيننا ربما لا يكون قد ورد على فكر آبائنا فلم يكونوا يتكلمون ليلا بل ينامون ملء جفونهم . بينما جيلنا ينام نوما مضطربا ثقيلا وانما يتكلم كثيرا ، ودائما يحاول أن يؤكد ما اذا كنا على خطأ أم على صواب ان أدبنا الخاص بالنقد الساخر للمجتمع والرقة النفسـانية انما ينبثق كلاهما من نومنا المضطرب ومن الحديث الذى لا ينقطع ، ومع كل ذلك فهناك فارق ضخم واضح بين تشيكوف وهنرى جيمس وبين تشيكوف وبرناردشو . ولكن من أين ينبثق هذا الخلاف ؟ ان تشيكوف على علم بشرور المجتمع وظلمه فى الدولة ويفزع من حالة الفلاحين ومع ذلك فليس فيه حماسة المصلح ولكن يجب ألا نتوقف عند هذا الحد فقد استهواه العقل بدرجة كبيرة ولذا فهو محلل ماهر رقيق للعلاقات الانسانية وليس

هذا هو نهاية الخلاف فهل يرجع ذلك الى أنه لا يهتم أصلا بعلاقة الروح بغيرها من الأرواح وانما بعلاقة الروح بالصحة وبعلاقة الروح بالأفعال الطيبة ؟ وتظهر لنا دائما هذه القصص بعضا من التكلف وأوضاعا معينة وبعضا من عدم الاخلاص فامرأة قد اتخذت علاقات شائنة ورجل قد تغير نتيجة ظروفه غير الانسانية . ان الروح مريضة، وانها قد تم شفاؤها أو الروح لم يتم شفاؤها تلك هي الركائز في قصص تشيكوف

واذا ما تعودت العين على تلك الظلال فان نصف نهايات القصص العاطفية يتلاشى في الهواء وتبدو وكأنها شفافة من خلفها ضوء ينفذ من خلالها ، كأنها زاهية متوهجة وسطحية ان انهاء الفصل الأخير بصفة عامة بالزواج أو بالوفاة أو بقرع الطبول للجهر بالقيم أصبح أساسا ، ونشعر بأن شيئا لم يحل ولم يرتبط ارتباطا سليماً ومن ناحية أخرى تبدو الطريقة لأول وهلة عارضة وغير شاملة وتهتم بالسفاسف فتظهر بعد ذلك نتائج ذوق مبتكر للغاية ودقيق يختار بشجاعة ويرتب بلا أخطاء تحكمه أمانة لا نجد لها مثيلا سوى بين الروسيين أنفسهم وقد لا يكون هناك اجابة على تلك الأسئلة وانما لا يجدر بنا في نفس الوقت أن نتلمس البراهين لنقدم شيئا لائقا وموائما ومقبولا لغرورنا . قد لا يكون هذا هو السبيل لاسترعاء سمع العامة ، فهم قد تعودوا سماع الموسيقى الصاخبة واعتادوا المعايير القاسية ، ولكن تشيكوف كتب النغمة التي أحس أنها هي الملائمة وترتب على ذلك اننا عندما نقرأ تلك القصص القصار التي تدور حول لا شيء تتسع الآفاق وتحظى الروح فيها بشعور عجيب من الانطلاق والحرية

عند قراءة قصص تشيكوف نجد أنفسنا نكرر كلمة « الروح » ونعيدها مرارا انها تنتشر على صفحاتها ويستعملها عجائز السكارى بكثرة ، « انك ممتاز في خدماتك ، فوق كل مستوى ولكنك لا تضم روحا صادقة يابني العزيز لا قوة فيها » وفي الواقع انها « الروح » التي تعتبر صفة رئيسية في القصص الروسي فهي رقيقة وذات ذكاء حاد عند تشيكوف ، بينما هي لا حدود لها في الفكاهة وحدة الطبع وهي أعظم عمقا وكيانا عند دوستوفسكي وهي عرضة للأمراض الفتاكة وفورة الحمى ، ومع ذلك فلا زالت الروح التي لها الاعتبار الأول في السيطرة ولعل هذا هو السبب في حاجة القارىء الانجليزي الى مجهود كبير لقراءة قصة الاخوة كارامازوف أو المأخوذ

للمرة الثانية فالروح غريبة عليه بل انها تسبب له النفور . وهى خالية من روح الدعابة أو الهزل وهى غير محدودة الشكل ولها ارتباط خفيف بالذكاء انها محيرة وانها عطرة ، ذات ضجيج وعاجزة ، ويبدو أنها تستسلم لسيطرة المنطق أو لنظم الشعر ان قصص دوستوفسكى كأنها تمزج الدوامات وتدرى الأعاصير ودوامات المـاء تغـلى وتصلصل وتجذبنا الى داخلها ان سداها ولحمتها من مادة الروح وعلى الرغـم من ارادتنا فاننا ننجذب داخل الدوامة ، وقد عصبت عيوننا ، ونشعر بالاختناق ، ونحن فى نفس الوقت غارقون فى ذهول محير وباستثناء شكسبير فانه لا يوجد غيره مثير فى قراءته نفتح الباب فنجد أنفسنا فى حجرة اكتظت بالجنرالات الروس ومدربى هـؤلاء القواد الروس وبنات العمومة وبنات زوجاتهم وزمرة من غيرهم والجميع يتناقشـون بأعلى صوتهم حول أدق الخصوصيات وشـئونهم الخاصة ولكن أين نحن ؟ بالطبع على الكاتب أن يخبرنا عما اذا كنا فى فندق أم فى شقة أو فى مكان آخر مستأجر ولا يفكر أحد فى تفسير ذلك وذلك لأن أرواحنا معذبة أرواحـا تعسـة لا هم لهـا الا أن تتحدث لتنفس عن نفسهـا لتعترف ولتجذب الى السطح ـ مهما كان ذلك على حسـاب الجسد أو الأعصـاب ـ لتجذب آثاما تزحف على رمل القـاع فى أعماقنا واذا ما انصـتنا فاننا نخرج من حيرتنـا تدريجيـا كمـا لو كان قـد أدلى الينا بحبـل فنمسك بأطراف المفـاجأة نعض عليه بالنواجذ ومع ذلك نندفع الى المـاء ، نندفع بقسوة كالمحمومين ونندفع ونندفع ثم نغوص فى لحظة وفى لحظة يقظة نجد أننـا قد تفهمنا أكثر مما فهمنا من قبل ، ثم نتلقى الوحى والالهام كما كنا معتادين أن نحصل عليه كاملا من ضغط الحياة وعندما ننطلق نلتقط كل شيء : أسماء الناس وعلاقات بعضهم ببعض وانهم انما يقيمون فى فنـدق فى روليتنبرج وأن بولينا متورطة فى مكيدة مع ماركيز دى جريو ولكن كل هذه الأشياء جميعا تبدو أكثر تفاهة اذا ما قورنت بالروح !! انها الروح التى تهم ، انفعالاتها ، حيويتها ، مزيجها العجيب من الجمال والشر فاذا ما ارتفعت أصواتنا فجأة فى قهقهة من الضحك أو اذا هزنا نحيب عنيف ، فهل هناك ما هو أكثر طبيعية من هذا ؟ انه يندر أن يدعو ذلك الى ابداء تعلقات ان سرعة الحياة التى تعيشها عالية جدا وعلى ذلك فعلينا أن نضاعف من سرعتنا

وفضلا عن ذلك فانه مع زيادة السرعة ومع تكشف المزيد من عناصر الروح وهى غير متفرقة أو موزعة بين فصول الفكاهة وفصول

الانفعال ولا تدركها عقولنا الوئيدة نحن الانجليز الا متداخلة ومتورطة ومعقدة فى غير وضوح ـ تنكشف عنـــدئذ آفاق جـــديدة شاملة للعقل البشرى ـ ويذوب التقسيم القديم ويتلاشى فالرجال أشرار وقديسون فى وقت واحد ، أفعـــالهم جميلة مرة وتســـتحق الازدراء مرة أخرى ونحب ونكره فى وقت واحـــد ولا يوجد شيء من هـــذا التحديد بين الخير والشر الذى ألفناه ان من نشـــعر نحوهم بالحب العظيـم كثيرا ما يكونون أشد المجرمين ضراوة وان أبغض الآثام تحرك فينـــا أقوى الاعجاب كما تحرك فينا لواعج الحب

من الصعب على القارىء الانجليزى أن يشعر بارتياح وهو يقرأ الأدب الروسى الذى يحمـــله الى أعلى ويحلق به فوق أمواج الخيـــال ثم يرتطم به على صخور التحليل النفسى فيخر محطما وذلك لأن الأنظمة التى اعتادها القارىء الانجليزى فى آداب لغته على النقيض من ذلك فاذا أردنا مثلا أن نحكى قصة غرام الجنرال (وسوف لا يمكننا أن نقاوم الضحك فى أول الأمر من جنرال) فاننا سوف نبدأ بمنزله ثم نجسد ما يحيط به وعندما يصبح كل شيء مستعدا عنـــدئذ فقط نحاول أن نتناول الجنرال نفسه وأكثر من ذلك فليست غلاية الشـــاى الروسى هى التى تتحكم فى انجلترا بل انه قدر الشاى الانجليزى ، كما نجد الوقت محددا فى الأدب الانجليزى والفجوات مزدحمـــة وتأثير وجهات نظر الآخرين أو الكتب الأخرى وحتى الأجيال الأخرى تفرض نفسها فالمجتمع الانجليزى يتكيف بطبقاته الدنيا والمتوسطة والعليا ولكل منها تقاليدها ، وخصالها وأحيانا لغتها وسواء أراد الكاتب الانجليزى ذلك أو لم يرده فانه يواجه ضغطا مستمرا لكى يعترف بتلك الحواجز وبالتالى بالنظام وبعض الرسميات المفروضة عليـــه فعليـــه أن ينزل باللوم والتقريع على المجتمع لا أن يحنو عليه وأن يتفحصه أكثر من أن يتفهم الأفراد أنفسهم

لا شيء من هذه القيود كانت مفروضة على دوستوفيسكى سواء أكان بطل قصته من النبلاء أم من البسطاء أو أكانت بطلتها من عابرات الطريق أم سيدة جليلة فمهما كانت الشـــخصية فالنفس هى الوعاء الذى يحتوى على هذا السائل المحير ، هذه المادة النفسية المعتمة ، هى الخميرة التى تحتوى على الروح . ان الروح لا تعانى من الحواجز انها تهيم انها تفيض انها تمتزج بأرواح الآخرين ان القصـــة البسيطة الخاصة بموظف البنك الذى لا يملك أن يدفع ثمن زجاجة نبيذ نراها تنتشر ـ قبل أن نعرف ماذا سيحدث من وقائع القصة فى

حياة صهره والمحظيات الخمس اللائى يعاملهن أبشع معاملة وفى حياة ساعى البريد وفى حياة الخادمة باليومية وفى حياة الأميرات اللائى يقمن فى نفس المجمع من الشقق وذلك لأنه لا شىء دخيل أو خارجى عن محيط دوستوفيسكى ، وعندما يتعب فانه لا يتوقف بل يستمر فهو ليس بمستطيع أن يكبح جماح نفسه . انها النفس البشرية التى تسيطر علينا ، ساخنة ، حارقة ، ممتزجة رائعة ، مروعة ، غير محتملة .

وهناك يبقى على مر الدهر أعظم الكتاب جميعا — وبأى صفة أخرى يمكن أن نصف بها كاتب قصة ((**الحرب والسلام**)) ؟ هل سنجد تولستوى أيضا ، أجنبيا ، صعبا غريبا علينا ؟ هل هناك غرابة فى زاوية رؤياه التى أبقتنا على كل حال على مسافة ذراع من الشك والضياع، حتى أصبحنا من الحواريين نتقبل ما يقوله تولستوى دون مناقشة فمن كلماته الأولى نصبح على يقين من شىء واحد وهو أن تولستوى انما يرى ما نراه ، ويسير — أيضا كما تعودنا نحن أن نسير فلا يبدأ بالنفس البشرية ويخرج الى المظهر الخارجى بل يبدأ بالاطار الخارجى ثم يتدرج منه الى أعماق النفس البشرية فيحللها وفى عالم تولستوى نجد أنه عالم عادى ، تسمع فى هذا العالم دقات ساعى البريد فى الساعة الثامنة ويأوى الناس فيه الى فراشهم بين العاشرة والحادية عشرة فهو رجل ليس بالشرس وليست له براءة الأطفال ، انه مثقف ولديه كل أنواع الخبرات . انه واحد من أولئك الذين ولدوا من الطبقة الارستقراطية الذين استفادوا من جميع امتيازاتهم حتى النهاية انه من سكان المدن وليس من سكان الضواحى حاد الحواس والذكاء قوى قد نشأ نشأة طيبة وهناك شىء من الخيلاء والتعالى عندما يهاجم الحياة ومثل هذا العقل ومثل هذا الجسم لا تغيب عنه شاردة ولا واردة ولا تفوته لمحة دون تسجيل وعلى ذلك فليس هناك من هو قادر على أن ينقل انفعال الرياضة ، وجمال الخيول وكل رغبة جامحة فى الدنيا الى حواس شاب قوى كل شىء يميل اليه ، اذ ان كل غصن ، وكل ريشة تلتصق بجاذبيته . انه دقيق الملاحظة فهو يلحظ لون ملابس الطفل وهل هى حمراء أم زرقاء ، يلحظ الطريقة التى يحرك بها الحصان ذيله، ونبرة السعال وحركة الرجل الذى يريد أن يضع يديه فى جيوبه التى خيطت حديثا ومما تلحظه عينه التى لا تخطىء سعالا أو مهارة اليد يفسر لنا عقله ما خفى من طبائع البشر لدرجة أننا نتعرف على شعبه لا من الطريقة التى يحبون بها أو من وجهات نظرهم فى السياسة أو فى الروح الخالدة فحسب بل نتعرف كذلك على الطريقة التى يعطس بها

هؤلاء الناس أو يشرقون فى شرابهم وحتى فى التراجم نشعر وكأننا قد جلسنا على قمة جبل وفى يدنا منظـار مقرب نرى به كل شىء واضحـا جليا كل خلجة واضحة بشكل غريب وبدقة متناهية وعلى حين فجأة وبينما نحن فى نشوة البهجة نتنفس بعمق ونشعر بالرباط الوثيق وقد خلصنا الى ما نقرأ تقابلنا بعض التفاصيل ـ وقد تكون وصفـا لرأس رجل ـ تظهر فى الصورة بشكل مروع كما لو كانت قد أخرجتها قوة وجودها نفسها

« وفجأة وقع شىء غريب ـ وفى بادىء الأمر لم أعد أرى ما يحيط بى ثم بدا وجهه وكأنه يتلاشى حتى لم يبق سـوى العينين تضيئان ببريق ينعكس على عيونى ، وبعد ذلك بدت عيونه وكأنها قد ركبت فى رأسى أنا ثم اختلط كل شىء على لم أعد أرى شـيئا واضطررت لأن أغمض عينى حتى أقطع الشعور بالسعـادة والخوف اللذين تبعثهمـا تحديقاته فى

وهكذا نشارك ماشا فى شعورها فى قصة « **سعادة الأسرة** » يغمض الشخص عينيه ليهرب من الاحساس بالسعادة والخوف ان هـذا عادة هو أسمى احساس بالسعادة فى هذه القصة تصادف وصفين أحدهما لفتاة تسير فى حديقة مع حبيبها ليلا والثانى لزوجين قد تم زواجهما حديثا هبطا الى حجرتهما التى تبعث فيهمـا شعورا زاخـرا بالسعادة حتى لندع الكتاب جانبا لنشعر شعورا أصدق بهذه السعادة. ولكن هناك دائما عنصر الخوف الذى يدفعنا الى الرغبة فى الهرب ـ كما فعلت ماشا ـ من تحديق تولستوى فينا هل هذا هو الاحساس الذى يزعجنا فى الحياة الحقيقية بأن مثل هذه السعادة ـ كما وصفها ـ من الدرجة بحيث لا تدوم ، احساس بأننا على حافة كارثة ؟ أو انهـا ليست هذه الدرجة من السعادة هى التى تعلقنا وتدفعنا لكى نتساءل مـع بوزدنيشيف (١) فى قصـة **كروتزرسـوناتا** ولـكن لماذا نعيش ؟ ان الحياة تسيطر على تولستوى كما تسيطر النفس البشرية على دوستوفيسكى فهناك دائما وسط أوراق الزهرة توجد العقربة أو السؤال لماذا نعيش ؟ وهناك دائما فى قلب الكتاب يوجد أولينين أوبيير أو ليفين الذى يجمع فى نفسه كل التجارب ويدير العالم بين أصابعه ولا يكف مطلقا عن التساؤل ـ حتى وهو يستمتع بهـا ما معنى الحياة ؟ وما هى أهدافنا ؟ انه ليس القسيس الذى يتحدث عن رغباتنا حديثـا

---

(١) Pozdnyshev.

مؤثرا وانما هو الرجل الذى يعرف تلك الرغبات وقد عشقها بنفسه وعندما يسخر منها ، تصبح الدنيا بحق ترابا ورمادا تحت أقدامنا وعلى ذلك يمتزج الخوف بسعادتنا ، ومن كتاب روسيا الثلاث العظام نجد تولستوى أقدرهم على اثارة البهجة أو النفور فينا

ولكن يتشكل العقل ويتخذ لونه وميوله من البيئة التى ولد فيها ومما لاشك فيه أنه عندما يضرب فى دروب أدب غـــريب مثـــل الأدب الروسى فانه ينفصل عن مركزه ويهيم بعيدا عن الحقيقة

عمومیات

أولا - الآنسة ميتفورد

حقيقة القول أن كتاب مارى راسل ميتفورد وما يحيط بها كتاب ليس بالجيد فهو لا يوسع المدارك ولا يطهر القلب . وليس به شيء عن رئيس الوزراء وأما ما يخص مس متيفورد فهو ليس بالشيء الكثير وما دمنا بصدد ذكر الحقائق فلا بد أن نعترف بأن هناك نوعا من الكتب يمكن قراءتها بغير تفكير لأنها لا تمس القلب ومع ذلك نقرؤها بمتعة كبيرة ولندخل فى الموضوع ان أكبر ميزة لمثل هذه الكتب التافهة - اذ أنه من الصعب تسميتها بالسير - أنها ترخيص بالافتراء والكذب فلا يمكن المرء أن يصدق ما قالته الآنسة هيل عن الآنسة ميتفورد وعلى ذلك فالمرء فى حل لأن يخلق آنسة ميتفورد من خياله. ولا نستطيع أن نتهم الآنسة هيل - ولو للحظة واحدة - بالافتراء . فرذيلة الكذب هذه تخصنا نحن فقط . فمثلا : « كانت الريسفورد موطن ميلاد لشخص أحب الطبيعة بدرجة لم يعشقها مثله الا القليل وكنا نحس بكتابات هذا الشخص وهى تتنفس رائحة الدريس وشذى البراعم البرية ، ويبدو وكأنه يريد أن يهب علينا عبير حقول القمح الناضج على سنابله ورياض الأقحوان والحقيقة التى لا جدال فيها ان الآنسة ميتفورد ولدت فى ألريسفورد ومع ذلك عندما قيل لنا ذلك ساورنا الشك الشك حتى فى أنها ولدت على الاطلاق . وتقول الآنسة هيل انها ولدت فى ١٦ ديسمبر ١٧٨٧ وكان منزلها منزلا مريحا حقا » هكذا أخذت تكتب الآنسة ميتفورد حجرة الافطار كانت جناحا واسعا بالطابق الأعلى للمنزل » ثم يخبرنا الكتاب أن ميتيفورد ولدت فى حجرة الافطار حوالى الساعة الثامنة والنصف فى صباح يوم كان يتساقط فيه الجليد أثناء تناول الدكتور قدحه الثالث من الشاى « لا تؤاخذنى » قالت ذلك السيدة متيفورد وقد امتقع لونها قليلا وبالرغم من ذلك لم

تنس أن تضع الكمية المناسبة من اللبن فى فنجال زوجها « انى أحس » وهذه هى الطريقة التى بدأت بها سلسلة الأكاذيب لقد كان هناك شيء مقبول بل وينطوى على كرم النفس وهى تتناول الموضوع . فالملاحظة الخاصة باللبن مثلا يمكن أن نعتبرها ملاحظة تاريخية هامة اذ انه من المعلوم أنه عندما ربحت مارى عشرين ألفا من الجنيهات فى اليانصيب الايرلندى أنفقها الطبيب فى اقتناء الأوانى الخزفية ، ودمغت جميعها بالرقم الرابح وسط قيثارة ايرلندية وفى أعلاها نقش سلاح عائلة ميتفورد ويحيط بذلك كله شعار سيرجون برترام ــ أحد فرسان ويليام الفاتح والذى يدعى آل ميتفورد انهم انحدروا من سلالته ــ وتستمر الأكذوبة فتقول « يلاحظ فى أية حالة يتناول الطبيب قدح الشاى وكيف أن السيدة المسكينة تتمسك بآداب اللياقة وهى تغادر الغرفة » شاى ؟ انى أعجب أن يكون الطبيب ــ وهو ذو شخصية لطيفة ــ شديد الاحتقان ويزيد ــ كديك أحمر ــ من بين « كشكشة ركامة قميصه الأنيق » « ومادامت السيدات قد غادرت الغرفة » هكذا تستمر الأكاذيب فى سيل متصل الحلقات لتؤكد أن الدكتور متيفورد يحتفظ لنفسه بمحظية فى ضواحى ريدنج ويدفع لها نقودا تحت ستار أنه يستثمر أمواله فى طريقة حديثة لاضاءة المنازل وتدفئتها اخترعها الماركيزدى شافان وتأتى فى النهاية الى نفس الشيء ــ الى مائدة الملك . ومعنى هذا انه بدلا من أن نتمكن من تذكر الارتباط الأدبى والتاريخى للمكان فان الأكاذيب تتجول وتنطلق من النافذة وتصرف فكرنا بملاحظة تافهة وهى أن الجليد كان لازال يتساقط وكأن هناك شيئا ممتعا فى عاصفة ثلجية فى تلك الأيام الماضية . أما اليوم وكأنما تغير الطقس مثلما تغير الجنس البشرى على مر الأجيال تقريبا وكأن ثلوج تلك الأيام كانت تحتفظ بأشكالها أكثر من ثلوج أيامنا أو أنها كانت على درجة كبيرة من الرقة أكثر منها اليوم ، حتى البقر فى القرن الثامن عشر لم يعد يشبه بقرنا فيما كانت عليه من صحة وقوة فى عصر اليزابيث ولهذا قلما يتعرض الأدب فى أيامنا لمثل هذه الأمور ولم تعط العناية الكافية لهذه الظواهر فى الأدب

ربما يكون شبابنا النابه قد أتى امرا نكرا عندما جد فى البحث عن موضوع آخر بدلا من قصر موضوعات آداب اللغة لمدة سنة أو سنتين على البقر وعلى الثلوج وعلى زهر الأقحوان عند تشوسر وكوفنترى باتمور فالأدب القديم كان يدور حول الطبيعة بمظاهرها المختلفة فيتناول الكاتب وصف الثلوج وهى تتساقط بغزارة ، كما

يصف كيف أن عربة بريد بورتث موث ضلت طريقها ، وكيف غرقت بعض السفن وتحطم رصيف مارجيث عن آخره وفى هاتفيلد بفيرال دفنت عشرون شاة تحت عاصفة واستعانت احداها ــ لتقيم أودها ــ بأكل العشب الذى عثرت عليه قريبا منها ، وهناك سبب جدى يدعو الخوف بأن عربة الملك الفرنسى قد سدت الطريق الى كولشستر . هذه صورة من الأدب فى السادس عشر من شهر فبراير عام ١٨٠٨

مسكينة السيدة ميتفورد فمنذ واحد وعشرين عاما غادرت غرفة الافطار لتضع مولودها وحتى يومنا هذا لم نتلق أى خبر عن مولد طفلتها ان الأكاذيب لتتوارى قليلا خجلا من نفسها ، واذا التقطنا كتاب **مارى راسل ميتفورد وما يحيط بها** ، فانه يؤكد لنا أن كل شىء كان يمكن أن يكون بخير اذا ما كان لدينا شىء من الصبر فعربة الملك الفرنسى كانت فى طريقها الى بوكينج ، و فى بوكينج يقيم لورد تشارلس مورى ايفسلى وزوجته وأن لورد تشارلس شعر بالخجل. وهو دائما خجول . ففى ذات مرة عندما كانت مارى ميتفورد فى سن الخامسة وقبل فقد الخراف وقبل ذهاب الملك الفرنسى الى بوكينج بستة عشر عاما ، « وضعته مارى فى مأزق حرج وسببت له ارتباكا خطيرا عندما جرت نحو مقعده ظنا منها أنه مقعد والدى . » فكان عليه أن يغادر الغرفة ولم تشأ الآنسة هيل أن تترك هذا الحادث يمر ، خاصة وقد سرها مجتمع لورد تشارلس وزوجته ــ على غير المألوف ــ « راوية لحادث ذى صلة بهما وقع فى شهر فبراير عام ١٨٠٨ » ولكن هل للآنسة ميتفورد دخل فى ذلك ؟ اننا نتساءل لأنه لا بد من وضع حد لهذه الخزعبلات ويمكن القول أن ليدى تشارلس كانت ــ فى حكم ــ عمة لآل ميتفورد وأن لورد تشارلس كان خجولا . وأن الأكاذيب على أتم استعداد لأن تتناول « الحادث » ولو كانت على هذه الشروط ، ولكننا نكرر أننا سئمنا من الخزعبلات . وقد لا تكون الآنسة ميتفورد امرأة ذات شأن اذ ان كل ما تعلمه عنها أنها لم تكن حتى امرأة طيبة وانما علينا تبعات معينة ــ كمعقبين ــ ولن نتخلى عن تلك التبعات

وهناك ــ ولنبدأ بالأدب الانجليزى ــ احساس بجمال الطبيعة لم يغب على الاطلاق فمهما كثر ذكر البقر فى الشعر الانجليزى فانه قد يتغير من عصر الى عصر وبالرغم من ذلك فان الفرق بين بوب (١) وردزوورث(٢) فى هذا المجال بين جدا وقد نشر كتاب **القصص**

---

(١) Pope.

(٢) Wordsworth.

الشعرية الغنائية(١) فى عام ١٧٩٨ وكتاب قريتنا(٢) فى عام ١٨٢٤ والأول شعر والثانى نثر وليس هناك داع لأن نجهد أنفسنا لعقد مقارنة لن تسمل — على كل حال — على عناصر العدالة فضلا عن عدم شمولها لأصول كثيرة من المجلدات وفضلت الآنسة ميتفورد الريف على المدينة لأسلافها العظام ، وعلى ذلك ربما يكون من المناسب أن نتحدث قليلا عن ملك الساكسون وعن مارى آنينج وحيوان اكتيوسورس(٣) البحرى المنقرض فما بالنا نسمع ان لكل من مارى آنينج ومارى ميتفورد اسما عاما أى لهما شهرة وهما أكثر من ذلك مرتبطتان بما يكاد أن يسمى بالحقيقة بل وربما يقال — بدون تردد — باحتمال الشهرة فقد كانت الآنسة ميتفورد تنقب عن الحفريات فى لايم ريجيز منذ خمس عشرة سنة فقط قبل أن تعثر مارى آنينج على واحدة منها وفى عام ١٨٤٤ زار ملك الساكسون لايم وعندما رأى رأس أكتيوسورس فى نافذة مارى آنينج طلب منها أن تسافر الى ينى لتستكشف الصخور هناك وبينما هم ينقبون عن الحفريات جاءت امرأة مسنة وجلست فى عربة الملك فهل كانت هذه المرأة مارى ميتفورد ؟ الحقيقة ترغمنا على القول أنها لم تكن هى ولكن ما من شك — ونحن لا نهذى عندما نقول ذلك — أن مارى ميتفورد كانت كثيرا ما تؤكد أنها تتمنى أن تتعرف على مارى آنينج وأنه لمن سوء الحظ الغريب أن نقرر أنها لم تحقق تلك الأمنية على الاطلاق وذلك لأننا بلغنا عام ١٨٤٤ وبلغت حينئذ مارى ميتفورد السابعة والخمسين من عمرها وكل ما نعرفه عنها — وهنا يرجع الفضل للأكاذيب والتلفيق — أنها لم تكن تعرف مارى آنينج كما لم تعثر على الاكتيوسورس ولم تكن فى العراء عندما فاجأتها العاصفة الثلجية، وأنها لم تر ملك فرنسا

ولقد حان الوقت لأن نعتصر عنق مارى ميتفورد ولنبدأ من البداية الأولى

ما هى الاعتبارات التى كانت تحملها الآنسة هيل فى رأسها عندما قررت أن تكتب كتابها **مارى راسل ميتفورد ومايحيط بها** ؟ هناك ثلاثة اعتبارات تنبثق من بين الاعتبارات الأخر والتى يمكن أن ينظر اليها على أنها أكثرها أهمية وأعلاها شأنا فالاعتبار الأول هو أن الآنسة ميتفوورد كانت سيدة من النبلاء ، والثانى أنها ولدت فى عام ١٧٨٧

---

(١) Lyrical Ballads.

(٢) Our Village.

(٣) Ichtyosaurus.

أما الاعتبار الثالث فهو أن عدد الشخصيات النسائية التى تستحق أن تؤرخ حياتها بمعرفة النساء من الكتاب ضئيل لسبب أو لآخــر ومن أمثلة ذلك ان معلوماتنا عن ســـــافو (١) قليلة وحتى هذا القليل ليس فى صالحها وليدى جين جراى (٢) سيدة لها قيمتها ولكن ممـــا لا يمكن انكاره أنها كانت غامضة أما جورج ساند (٣) فانها كلما زادت معلوماتنا عنها اشتد نفورنا منها أما عن جورج اليوت (٤) فقد سبقت الى طريق الشيطان ولم تشفع لها فلسفتها أما الأخوات برونتى (٥) فعلى قدر ما نقدر عبقريتهن فانهن كن يفتقرن الى ذلك الشيء الذى لا يمكن تعريفه وهو الـذى تتميز به المرأة وكانت هارييت مارتينو(٦) ملحدة أما اليزابيث باريت براوننج (٧) فقد كانت سيدة متزوجة كمـا سـبق الـكتابة عن جين أوســتن(٨) وفانى بيرنى(٩) وماريا ايدجورث (١٠) وعلى ذلك لماذا كانت مارى راسل ميتفورد ــ لسبب أو لآخر ــ هى المرأة الوحيدة التى تركت دون أن يكتب عنها

ليس هناك داع لأن نجهد أنفسنا فى تحديد الأهميـــة العظمى للتاريخ عندما نقرأ كلمة « وما يحيط بها » على غلاف الكتاب فهـذا الذى يحيط بها ــ كما أطلق عليه ــ انما هو عبـــارة عن الجو الرتيب المحيط بالأفراد خلال القرن الثامن عشر فعندما نصل ــ كما فعلنـــا بطبيعة الحال ــ الى العبارة التى تبين كيف أنه « عنــدما نظرنا الى السلالم التى توصلنا من الغرفة العليا الى أسفل يخيل الينا اننا رأينا أشــــكالا دقيقة تقفز من درجة الى أخرى » فانه يمكن أن يعتبر انه افتئات كبير على احساسنا اذا قيل لنا أن هذه الدرجات كانت على النمط اليونانى أو الاليزابيثى أو الفارسى اذ أنها كانت ــ بطبيعــة الحال ــ درجات على نمط القرن الثـــامن عشر وهى تلك الدرجات التى

---

(١) Sappho.
(٢) Lady Jane Grey.
(٣) George Sand.
(٤) George Eliot.
(٥) The Brontes.
(٦) Harriet Martineau.
(٧) Mrs. Browning.
(٨) Jane Austen.
(٩) Fanny Burney.
(١٠) Maria Edgeworth.

تؤدى بنا من الحجرة العتيقة ذات الألواح الزجاجية الى الحديقة الوارفة حيث كان وليام بليت ـ كما كانت العادة ـ ينحت تماثيل الرخام » أو ـ اذا كنا نريد أن نكون أكثر جرأة ـ نقول يؤدى هذا التدرج الى حيث يمكن أن يخيل الينا اننا نسمع فى أيام الصيف الساكنة طبول بونابرت على الساحل الفرنسى وبونابرت هو نهاية المطاف على أحد الجانبين ، كما أن مون ماوث هو نهاية المطاف على الجانب الآخر وكان يمكن أن تكون الطامة الكبرى لو شطح بنا الخيال فيقال اننا كنا نلعب مع الأمير ألبرت أو نمارس الرياضة البدنية مع الملك جون ولكن للخيال حدود أو لسنا بحاجة الى أن نجهد أنفسنا فى تحديد مكان هذا الخيال فهو خيال القرن الثامن عشر والوجه الآخر لهذا الخيال أشد غموضا ولابد أن يكون أحد وجهى الخيال متعلق بسيدة ومع ذلك فان معنى ذلك ـ سواء قبلنا هذا المعنى أو لم نقبله ـ يمكن أن يبقى مشكوكا فيه فاذا ما قلنا ان جين أوستن كانت ليدى وأن شارلوت برونتى لم تكن كذلك فاننا نكون قد قدمنا ما فيه الكفاية فى سبيل التعريف بهما ولا نربط أنفسنا بأى الجانبين

ومما لا شك فيه أن بقاء الآنسة هيل فى عداد السيدات انما مرجعه الى سكوتهن فهن يتنهدن بأشياء ويبتسمن لأشياء ولكنهن لا يمسكن بأرجل المنضدة الفضية على الاطلاق أو يقذفن بأقداح الشاى الى الأرض . وانه لمن المناسب جدا ـ من عدة وجوه ـ أن تتناول الآنسة هيل موضوعا يمكن أن يدوم مدة طويلة دون أن تنبس ببنت شفة وان ستة عشر عاما لوقت طويل جدا ولكن بالنسبة لسيدة فانه يكفى القول « لقد أمضت الآنسة متيفورد ستة عشر عاما من عمرها وعندئذ بدأت تتعلم وبدأت تعشق لا جمال الأراضى فحسب بل عشقت كذلك الدوران فى الدروب ذات الظلال الوارفة فى المنطقة المحيطة بها » ان حبها كان للخضر وكانت حوارى منطقتها وارفة الظلال ثم بعد ذلك تعلمت ـ بطبيعة الحال ـ فى المدرسة حيث تعلمت جين أوستن والسيدة شروود من قبل وزادت لايم ريجز وهناك ورد ذكر كوب وشاهدت لندن من قمة سانت بول وكانت لندن أقل حجما فى ذلك الوقت منها الآن وانتقلت من منزل أنيق الى منزل أنيق آخر ، ثم كان يتردد عليها نخبة كبيرة من رجال الادب اما للتحية واما لتناول الشاى وعندما انهار سقف حجرة الطعام لم يقع عليها ، وعندما حصلت على تذكرة يا نصيب ربحت الجائزة واذا كان فى الجمل السابقة أية كلمات مركبة من أكثر من مقطعين

فمرد ذلك الى خطئنا نحن فى التعبير وليس مرجع ذلك الى أسلوب الآنسة هيل ولكى نعطى تلك الكاتبة حقها من الانصاف فليس فى الكتاب الكثير من الجمل المقتبسة من الآنسة ميتفورد أو التى عزها مستر كريس كاتب سيرة الآنسة هيل

ولكن لأى مدى تكون الحياة أمرا خطيرا ! هل يمكن أن يستوثق المرء من أن أى شىء ليس مصنوعا كلية من خشب الموجنا يمكن أن يبقى الى ما لانهاية حتى ولو كان عاريا تحت الشمس ؟ وحتى الدواليب لها مصادر سرية وعندما تلمس الآنسة هيل أحدها عن غير قصد منها — ونحن متأكدون من ذلك — ينقلب هذا الدولاب — وهذا أمر مروع — الى رجل ضخم مسن وهى تريد بذلك — بلغة بسيطة — ان تبين أنه كان لمس ميتفورد أب وليس فى ذلك شىء غير سليم فى الواقع فكثير من النساء كان لهن فى يوم من الأيام آباء وانما والد الآنسة ميتفورد كان موضوعا داخل دولاب وبمعنى آخر تريد أن تقول أنه لم يكن أبا ظريفا ثم تذهب الآنسة هيل الى أبعد من ذلك فتتخيل وقتما اضطر الجيران والأصدقاء الى تشييع جنازته حتى مثواه الأخير فاننا لا نملك سوى الاعتقاد بأن هذا الواجب قد قصد به مشاطرة الآنسة ميتفورد وتقديرها أكثر من تقدير المشيعين للوالد » وعلى قدر ما ينطوى عليه هذا القول من حكم قاس فان الرجل الشيخ النهم السكير المتدله فى الحب لم يفعل شيئا يستحق عليه التقدير وكلما قل الكلام عنه كان ذلك أفضل فمثلا اذا كنت فى المهد صبيا ثم يغامر أبوك ويضارب أولا بأموال والدتك ثم بأموالك أنت ثم بعد ذلك ينفق دخلك ويدفعك الى المزيد من الكسب لينفق كل هذا أيضا ، حتى اذا بلغ من الكبر عتيا استلقى على أريكة وهو يقرر فى اصرار أن الهواء النقى مفسد لبناته فاذا ما واتته المنية بعد ذلك ترك ديونا لا يمكن سدادها الا ببيع شىء تملكه أو بالتطفل على كرم الأصدقاء والاثقال عليهم هذا كان حال الآنسة ميتفورد وهو أمر لا يطاق حتى ان المرأة — وقد فاض بها — ترفع صوتها احتجاجا ولهذا صاحت الآنسة ميتفورد ذات مرة « انه لمحزن أن يموت والدى فقد شقيت واجتهدت وذقت مرارة القلق فى الأعماق ، وانتابنى الفزع وراودنى الأمل كما يحدث كثيرا لأغلبية النساء » . أى لغة هذه التى تستعملها « ليدى » هى — الى حد ما —

في بحبوحة من العيش فهى تملك ابريقا من الشاى وفى نهـــاية الصفحة نجد رسما لابريق الشاى ولكنه أصبح الآن عـــديم الجدوى فقد حطمته الآنسة ميتفورد حتى أصبح عديم النفع ان هذا أســـوأ ما يمكن أن يكتب عن الســـيدات فلهن جميعـــا آباء كما لهن أباريق للشاى ومن ناحية أخرى لا زال بعض القطع من معدات الطعام موجودا بحجرة طعام الدكتور متيفورد ويدجوود ونسخة من كتاب جغرافيا لآدم كانت مارى قد فازت به كجائزة فى المدرسة « ضمن مقتنياته المؤقتة »

ان هذه الأكاذيب والافتراءات تجعلنا نقترح ـ وهـــذا الاقتراح غير كريم ـ ألا يقتصر الكتاب التالى على أمثال تلك السيدات

ثانيا ـ دكتور بنتلى

عندما نجوس خلال القصور الشـــهيرة ـ حيث كان للدكتور بنتلى الأمر والنهى ذات يوم ـ فاننا نلمح أحيانا شخصا يهرول فى طريقه اما الى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالقصر واما الى القاعة وعندما يتوارى ذلك الشخص عن أنظارنا فان أفكارنا تحوم حوله لأنه وهو غائب عن أنظارنا يدفع أفكارنا ويذكيها لتتبعـــه وذلك لأن ذلك الرجل ـ كما قيل لنا ـ جمع حكمة سقراط وتولى زمامهـــا وحفظ هوميروس عن ظهر قلب وقرأ للشاعر اليونانى بندار كما نقرأ نحن جريدة التايمز ، وقضى حياته كلها ـ فيما عدا تلك الفترات القصـــيرة التى كان يتناول فيها طعامه أو يؤدى فيها صلواته فى صحبة الكتاب اليونان وانها لحقيقة ، أن ضعف تعليمنا يحول بيننا وبين تقـــدير التعديلات التى أدخلها حق تقديرها ان عمله طوال حياته كتاب مغلق بالنسبة الينا وعلى الرغم من ذلك فاننا نكتنز أى شىء يتصل بحياته الخاصة وانا لنسمع هفهفة ردائه الأسود وكأنها عصفور من الجنة قـــد مرق بنا مضيئا فى كســـائه الروحى وفى أمسيات نوفمبر الحالكة نسعد برؤياه وهو يرفرف بجناحيه مخترقا طريقه ليحط فى حقول الأمارانت (١) وأحواض الثوم البرى (٢) ومن بين النـــاس

---

(١) الامارانت Amaranth. نبات شتوى ذو زهرة حمراء (المترجمة)

(٢) Moly ويطلق كذلك على نوع من الاعشاب والنباتات التى تستعمل فى السحروالتنجيم (المترجمة)

جميعا نجد أن الدارسين المتعمقين هم أكثرهم غموضا وأجدرهم بالاجلال • ولما كان اختلاطنا بهم وتغلغلنا فى خصوصياتهم أو مشاهداتنا لهم عن كثب ـ اذ لا نراهم الا وهم يمرقون فى ملابسهم السوداء داخل الفناء فى الظلام ـ ولما كان اختلاطنا بهم أمرا بعيد المنال فان أفضل ما نفعله هو قراءة سيرهم ومن أمثلة ذلك حياة الدكتور بنتلى بقلم القس مونك

وفى هذا الكتاب ستطالعنا كثير من الغرائب وقليل من اليقين ان أعظم الدارسين عندنا لهو ذلك الرجل الذى يقرأ اليونانية كما يقرأ الانجليزية أعمق المتخصصين فيها قراءة ليست لمجرد الادراك الدقيق للمعنى وقواعد النحو فحسب وانما يقرؤها باحساس مرهف وسعة أفق حتى ليدرك روابط اللغة وايماءاتها ويمكنه ذلك الاحساس وسعة الأفق من استنباط ما بين السطور التى طمسها النسيان كما يمكنانه أيضا من بث روح جديدة فى تلك الحفريات الأثرية مثل هذا الرجل الذى غرق فى الجمال (اذا كان كل ما قيل عن اللغة القديمة حقا) هذا الرجل كان من المفروض أن ينبع الجمال منه وتصدر الرقة فى تصرفاته كما ينضح اناء العسل بالرحيق ولكن نجده على النقيض من ذلك أكثر المشاغبين من بنى جنسه .

كتب مؤرخ سيرته يقول « انى أعتقد أنه لا يوجد أنداد كثيرة لفرد كان طرفا فى ست قضايا بارزة أمام المحكمة العليا خلال سنوات ثلاث » كما أضاف الكاتب أن بنتلى كسب تلك القضايا جميعا وانه لمن العسير انكار ما انتهى اليه ذلك المؤرخ من أن دكتور بنتلى كان يمكن أن يكون محاميا من الدرجة الأولى أو رجلا عسكريا عظيما « وهذا الوصف يتلاءم مع أية شخصية أكثر مما يتفق مع قس مهيب متعلم »

ولم تثر كل هذه المنازعات كنتيجة لحبه للأدب وذلك لأن كل الادعاءات المقامة ضده ، والتى كان عليه الدفاع عن نفسه فيها ، كانت موجهة اليه كمدير كلية ترينتى بكمبريدج فقد أعتاد التغيب عن الكنيسة وكان اسرافه فى توسيع المبانى وفى نفقات ادارة منزله باهظا جدا ، وكان يستعمل خاتم الكلية فى الاجتماعات التى لم يكتمل لها العدد القانونى وهو ستة عشر عضوا ، وهكذا وبالاختصار كان عمل مدير كلية ترينتى عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المخالفات والتحدى الذى كان الدكتور بنتلى يلجأ اليه فى مواجهة هيئة كلية ترينتى كما يعامل رجل كامل النمو ، طفلا لحوحا من السوقة من أطفال الشوارع .

وهل كانوا ـ هيئة الكلية ـ يجرءون على مجرد التلميح بأن سلم المسكن الذى يسمح لمرور أربعة أشخاص واسع سعة أكثر من اللازم ؟

وهل يرفضون اعتماد نفقات بناء سلم جديد ؟ وقد اجتمع بهم ذات ليلة عقب الخروج من الكنيسة فتقدم يسألهم بظرف فرضوا اعتماد الميزانية وبينما تغير لونه وصوته فجأة توعدهم بنتلى « هل نسوا سيفه الصدىء ؟ » وقد ضغط مستر ميشيل هاتشينسون وآخرون — من هؤلاء الذين أول ما يهوى سيف بنتلى فسوف يهوى بثقله على أعناقهم — ضغط هؤلاء على رؤسائهم ودفعت قائمة الحساب بمبلغ ٣٥٠ جنيها وبذلك ضمنوا ترقيتهم ولكن بنتلى لم ينتظر لانهاء سلمه حتى يصدر قرار اعتماد الموافقة على النفقات

وهكذا سارت الأمور سنة بعد سنة ولم يشفع لسلوكه المتعجرف دائما عظمة الأشياء التى وضعها نصب أعينه أو منفعتها كايجار الأراضى الشاسعة خلف كليات كمبريدج واقامة المرصد وتأسيس المعمل وهناك كثير من الأشيـاء التافهة كان يحصل عليها بنفس الجبروت فأحيانا كان يحتاج الى الفحم وأحيانا الى الخبز والبيرة ، والى جانب ذلك كانت زوجة بنتلى ترسل خادمها بسلة المشتريات ومعه طلب رسمى وتحصل به من مخازن المأكولات والخمور على كميات كبيرة من هذه السلع — على نفقة الكلية — أكثر مما تتصور ادارة الكلية أن الدكتور بنتلى فى حاجة اليه ومرة أخرى قبل اقامة أربعة طلاب فى مسكنه وقد دفع له هؤلاء الطلاب نفقاتهم بسخاء نظير تلك الاقامة ومع ذلك فقد صرفت لهم الأطعمة من الكلية وخصما من صندوق المصروفات ولم يدفع الدكتور بنتلى ثمن تلك الأطعمة ان المشاعر الخاصة بالرقة وبالاحساس الجميل التى كانت متوقعة من « بحاثة عظيم غارق فى الجمال مثله » كلها تبددت فى الهواء ولم يقتنع الزملاء بالكلية بمناقشة الدكتور بنتلى حول ما اذا كانت « جراية الكلية القليلة » والتى كان يعيش عليها الطلاب الأربعة تساوى ما دفعه بسخاء على نفقته ثمنا للمزاليج التى ركبها لثلاث نوافذ فى حجرة هؤلاء الأربعة وفى يوم أحد فى ترينتى عام ١٧١٩ تبين زملاؤه بالكلية أن بيرة الكلية ذات الشهرة لا يعجبهم مذاقها ولم يصدق الزملاء عندما أخبرهم الساقى أن البيرة قد صنعت بناء على أوامر المدير من شعير المدير الذى كان مشونا فى مخازن غلاله وعلى الرغم من تلفه لاصابة الشعير «بالسوس» ومع ذلك فقد دفع فى هذا الشعير الثمن الباهظ الذى طلبه المدير

ان تلك المشادة حول الخبز والبيرة مسائل تافهة عادية وانما الأدهى والأمر سلوكه فى مهنته الذى يلقى كثيرا من الأضـواء على ما نتحرى عنه لنتخلص من الطوب والبناء ومن الخبز والبيرة ومن

الطلاب النبلاء ونوافذ حجرتهم ، وسنجد أنه قد توسع فى جـو هومر (١) وهوراس (٢) ومانيتوس (٣) وأثبت من دراساته أن الطبيعة السليمة لهذه القوى المؤثرة قد انتقلت الينا عبر الأجيـال ولكن الدليل كان ضعيفا بالنسبة للغات الميتة وقد برأ نفسه ببراعة – كما اتفق الجميع على ذلك – فى المجادلة الكبرى حول خطابات فالاريس(٤). وكان مزاجه صافيا ودراسته عظيمة ولكن هذا النصر قد لحقتـه سلسلة من المنازعات التى أجبرتنا على الاطلاع على مشهد فريد لرجال العلم والحجى ، رجال الدين والنفوذ يتشاحنون حـول النصوص اليونانية واللاتينية ثم يتقاذفون بالسباب ويتبادلون أقذع الشتائم كما يفعل رجال المراهنات فى حلبة السباق أو الغسـالات فى الشوارع الخلفية هذه الحدة فى الطباع والغل فى اللغة لم تكن مقصورة على بنتلى وحده بل يبدو أنها للأسف كانت من مميزات المهنة بصفة عامة. وفى مستهل حياة بنتلى فى عام ١٦٩١ اشتد فى الحملة عليه أخوة القس هودى حول كتابة « ماليلاس » (٥) اذ كان هودى يرى ان تكتب «ماليلا» بدون حرف السين ولهذا احتدم النقاش وفيه استعرض بنتلى العلم والحجا أما هودى فقد انهال بصفحات لا نهاية لها فى نقاش لاذع مرير ضد حرف « س » الذى جاء فى نهاية الكلمة وقد تعثر هودى حتى أن « هناك من الأسباب القوية ما تدعو الى الاعتقاد بأن الجرح الذى أحدثه هذا السبب التافه لم تندمل آثاره » وفى الحقيقة أن تصحيح سطر أدى الى تصدع الصداقة وقد هاجم « جيمس جرونوفيوس (٦) » من « ليدين » (٧) الدكتور بنتلى اذ كان بنتلى قد سـبق أن وصف جيمس بأنه «رجل تافه ، ومتوسط العلم ليس له نصيب من العبقرية» فهاجم جيمس بنتلى عشر سنوات لأن الأخير نجح فى تصحيح قطعة أثرية من كاليماكس (٨) حيث فشل هو فى ذلك

---

(١) Homer.

(٢) Horace.

(٣) Manitius.

(٤) Phalaris.

(٥) Malelas.

(٦) James Gronovius.

(٧) Leyden.

(٨) Callimachus.

ولكن جرونوفيوس كان – بلا منازع – الباحث الوحيد الذى استاء من نجاح منافسه وامتلأ قلبه بالحقد الذى لم تفلح الحكمة ولا أربعون سنة انقضت فى تحرير الآداب القديمة فى ازالة ذلك الحقد وفى كل المدن الكبيرة فى أوربا عاش رجال أمثال الشرير دى بو (١) فى أوتريخت (٢) « شخص يعتبر حقا وباء وعارا على الكتابة » وهم الذين – اذا ما ظهرت نظرية جديدة أو طبعة جديدة – تكتلوا ليستهزئوا وليقللوا من شأن الباحث أو من قيمة النظرية وقد علق الأسقف مونك على دى بو « بأن كل كتاباته لا تدل على الصراحة أو حسن العقيدة أو طيب الخلق ولا يتمتع بأى احساس من احساسات الرجل المهذب وبينما هو يضم جميع المآخذ والصفات السيئة التى يمكن أن توجد فى الناقد أو المعلق فهو يضفى على نفسه صفة غريبة وهى أن لديه ميلا دائما نحو التلميحات الفاضحة » وبمثل تلك الطباع وتلكم العادات فليس بمستغرب أن الباحثين فى تلك الأيام كانوا أحيانا يضعون بأيديهم حدا لحياتهم التى جعلها الفقر والمرارة والاهمال لا تطاق فمثلا نجد جونسون – بعد أن قضى حياته فى البحث عن الأخطاء الدقيقة فى تكوين الكلمة – قد أصيب بالجنون ثم أغرق نفسه فى المستنقعات بالقرب من نوتنجهام وفى ٢٠ مايو من عام ١٧١٧ روعت كلية ترينتى عندما اكتشفت أن الدكتور سايك أستاذ اللغة العبرية قد شنق نفسه » « حوالى الغروب بأن علق رقبته فى أكرة شباك غرفته أمام ضوء الشمعة » وعندما توفى كاستر كان الاخطار فى بادىء الأمر بأنه قتل نفسه وهذا صحيح الى حد ما « وذلك لأنه عندما شرحت الجثة وجد بها ترسيب من الرمل حول أسفل منطقة البطن وانى أعلل ذلك بأنه كثيرا ما كان يجلس متربعا الى منضدة منخفضة يكتب عليها وعلى الأرض من حوله ثلاث حلقات أو أربع من الكتب وهذا هو الوضع الذى كنا نجده دائما عليه » كما حرفت آراء نظار المدارس المساكين مثل جون كير وهو من المدرسة المنشقة التى سبق أن نالت الحظوة الكبرى عندما تناولوا العشاء مع الدكتور بنتلى فى مقره بالجامعة وذلك عندما جرى الحديث عن استعمال كلمة الرشوة . حرفت آراؤهم التى انتهوا اليها خلال فترة طويلة من الدراسة وأهملت شئونهم حتى انهم عادوا الى منازلهم وجمعوا كل

---

(١) de Pauw.

(٢) Utrecht.

استعمالات كلمة الرشوة وكانت آراءهم تتعارض مع رأى الدكتور ولما رجعوا الى مقر الدكتور كانوا يتوقعون فى بساطة استقبالا حارا ولكن الدكتور قابلهم وأعلنهم انه ذاهب للعشـــاء مع أسقف كانتريرى فتابعوه الى الطريق على الرغم من عدم اكتراثه ونفـــاذ صبره وبدون أى كلمة وداع عادوا الى منازلهم ليفكروا من خلال ما لحق بهم من اهانات ولينتظروا يوم الانتقام

ولكن انتفاضات هؤلاء الصغار وأحقادهم ضخمها الدكتور نفســـه ولم يزلها أو يمحها خلال سلوكه فى أموره الخاصة فقد اختفت المجاملة والخلق الكريم اللذان كان الدكتور بنتلى يظهرهما أثنـــاء مناقشاته فى بادىء الأمر « أسلوب من الكراهية الثائرة والسخط الذى لا حدود له خلال أعوام كثيرة ، كل ذلك قد أفسد كلا من ذوقه وحكمه على الأمور فى المناقشات » وقد ارتضى ــ على الرغم من أن موضوع المناقشة كان العصر اليونانى ــ أن يصف خصمه بأنه « دودة ، حشرة من الهوام » « فأر قارض » « ورأس فارغة » ويشـــير بذلك الى بشرته الداكنة كما يلوح بذلك الى أن ذكاءه به لوثة وكان يدلل على ذلك بالواقعة التى ظلت مسـيطرة عليه وهى أن أخاه ــ وهو قسيس ــ كانت له لحية تصل الى وسطه

ظل الدكتور بنتلى ــ وهو العنيف والمحب للنزال وغير المكترث ــ يحيا ويتغلب على العواصف والهزات كما بقى معلقا بدرجاته محروما من الماجستير ــ قابعا رابط الجأش فى مسكن الجامعة ويضع على رأسه قبعة مظلتها عريضة داخل المنزل لتحمى عينيه ويدخن غليـــونه ويستمتع بقيافته مفسرا لأصدقائه ميثاقه فى علم اللغة عاش بنتلى تلك السنوات الثمانين وهى التى وصفها بأنها كانت طويلة بحيث تكفى « قراءة كل ما يستحق القراءة » ثم أضاف على طريقته الخاصـــة « وهكذا فأنا عظيم من قبل أن يدركنى الموت »

ان حجرا صغيرا مربعا يشير الى مقبرته فى كلية ترينتى ولكن الزملاء رفضوا أن يسجلوا عليها الحقيقة وهى أنه كان رئيسا عليهم

ولكن أغرب عبارة فى هذه القصة الغريبة والتى يمكن اضافتها وهى التى كتبها الأسقف مونك كما لو كانت مكانا طبيعيا لا يحتاج الى تعليق « الى انسان لم يكن شاعرا وليس لديه احساس شاعرى ومع ذلك يخوض هذا الميدان ان هذا لا يمكن أن يكون افتراء أو ضربا من

التخمين » وكان الهدف هو نصير كل هفوة فى اللغة فى قصيدة الجنة المفقودة وجميع الأمثلة الدالة على الذوق المريض والوصف غير السليم وكانت النتيجة على حالة يرثى لها ومع ذلك فلنا أن نتساءل كيف اختلفت تلك النتيجة عما انتهى اليه الدكتور بنتلى بتبرئته نفسه بمقدرة فائقة ؟ ولو كان بنتلى غير قادر على تذوق شعر ميلتون فكيف نتقبل حكمه على هوراس وهرمر ؟ واذا كنا لا نملك أن نثق ضمنيا بطلاب العلم ، واذا لم يكن من شأن دراسته اليونانية أن تهذب الأخلاق وتطهر الروح فان هذا كثير لقد عاد طالب العلم من « هول » وأضاء مصباحه واستأنف دراساته ، وحان الوقت لأن نضع حدا لتأملاتنا الدنيا الى جانب أن كل هذا قد وقع منذ سنوات كثيرة مضت .

ثالثا - السيدة دوروثى نيفيل

مكثت فى حالة من التواضع لمدة أسبوع فى قصر من قصور الدوقة وشاهدت أفواجا من علية القوم من ذوى النياشين يهبطون الى الطعام أزواجا ويصعدون الى النوم أزواجا وقد راقبت الدوق بنفسه فى احدى القاعات وهو يتظاهر بتنظيف القطع الدقيقة فى الدواليب الزجاجية بينما تترك الدوقة ابرة الكروشيه تسقط من بين أناملها وكأنها لا تصدق على الاطلاق أن العالم فى حاجة الى أشغال الكروشيه

وقد رأت السيدة دوروثى من نافذة علوية وعلى مدى ما تستطيع أن تدركه العين طرقا مرصوفة بالحصى تدور حول جزء سندسى ثم تختفى داخل أحراش صغيرة نسقت لتكون وارفة الظلال بدرجة أخف من الغابات الكثيفة كما راقبت عربة الدوق وهى تطوى الأرض لتختفى داخل هذا المنظر ثم تخرج منه ثم تعود متخذة لنفسها طريقا آخر غير الطريق الذى سلكته فى ذهابها وماذا كان حكمها ؟ « مستشفى المجاذيب » .

حقا انها كانت وصيفة سيدة ولو تلاقت السيدة دوروثى نيفيل معها على السلم لانتهزت الفرصة لكى تبين أن هذا أمر يختلف تمام الاختلاف عن أن تكون سيدة (١)

---

(١) Lady.

« لم تخفق والدتى مطلقا فى أن تشير الى حماقة النساء العاملات والبائعات وأمثالهن وجهلهن عندما يطلقن على أنفسهن « سيدات » كل هذه الآمور تبدو لها مجرد خداع مبتذل ،ولم تمل أن تردد ذلك دائما »

ماذا يمكن أن تظهره للسيدة دوروثى نيفيل انها على الرغم من المميزات التى تتمتع بها فانها لم تتعلم مطلقا كيف تكتب ، فهى لا تستطيع أن تكتب جملة سليمة من ناحية النحو والصرف ، وهى قد عاشت سبعة وثمانين عاما ولم تفعل خلالها شيئا سوى أن تملأ جوفها بالطعام وأن ينساب الذهب من بين أصابعها ، ولكن على الرغم من أن السخط يكون أمرا مقبولا اذا ما كان فى موضعه الصحيح فانه يكون ضربا من الخلط اذا وافقنا وصيفة السيدة الى ما ذهبت اليه من أن الميلاد بين علية القوم انما هو صورة من تجانس الجنون وفيه يرث المعذب امراض أسلافه ويتحملهم فى أغلب الوقت بغير اكتراث ذلك لأن هذا التحمل انما يتم فى واحدة من تلك المصحات العقلية ذات الجدران المبطنة والتى تلقب تجاوزا بسرايات انجلترا

وفضلا عن ذلك فان آل ويلبول ليسوا من طبقـــة الدوقة فأم هوراس والبول كانت الآنسة شورتر وليس هناك أية اشارة الى أم السيدة دوروثى فى المجلد الحالى ، ولكن جدة جدتها كانت السيدةأولدفيل المثلة والتى اليها يرجع السبب فى تفاخر السيدة دوروثى وهكذا لم يكن الموضوع أرستقراطية فى أجلى صورها ولم تكن منطلقة بل كانت سجينة فيما هو أشبه بقفص العصافير منه بمستشفى الأمراض العقلية ومن خلال قضبان ذلك القفص كانت ترى الناس يغدون ويروحون فى حرية وقد انطلقت مرة أو مرتين انطـلاقة وجيزة ومدهشة تنسمت فيها نسيم الحرية ولم يكن يوجد من بين نزلاء ذلك القفص من هم أكثر منها مرحا أو بهجة وكانت سعادتها بدرجة تدفع الى التساؤل ـ أحيانا ـ عما اذا كانت مثل هذه الحياة المقيدة هى المصير المحتوم الذى يختاره العقلاء الذين قضى عليهم أن يعيشوا فى مكان منعزل على الأرض فالحرية والانطلاق بالنسبة لها معناهما التشرد ومعنى ذلك أن هذه الحياة المترفة لايستطيع أن يعيشها انسان من الكادحين الا اذا قضى عمره يجمع المال حتى اذا تم له ذلك لا يجد بعد ذلك الوقت لكى يستمتع بمباهج الحياة التى تغرق فيها السيدة دوروثى ومثيلاتها والتى تهيأت لها منذ الصبا • فلقد تفتحت عينا السيدة دوروثى على هذا المكان البهيج تفتحت عيناها عام ١٨٢٦ على ١١ مدان بركلى حيث عاش الروائى الشــهير ويلبول وكان هذا المكان قد قامر عليه والدها اللورد أورفورد ذات ليلة وخسره وذلك بعد

سنة من ميلادها وعلى ذلك عاشت في ولتركون هول في نورفولك الذى كان يزخر بالنقوش والتحف بينما تفتقر حديقته الى الأشجار وان كانت تضم مرجة رحبة ذاعت شهرتها ولم يكن هناك روائى يطمح فى أكثر من هذا الجو الشاعرى البهيج لينسج قصة فتاتين صغيرتين ترعرعتا – فى مكان موحش منعزل وهما تقرآن للكاتب بوسويه(١) مع مربيتهما وتركبان حصانيهما الصغيرين عند أول الضيعة فى يوم جميل وما من أحد بمستطيع أن ينكر أنه اذا كان مثل كاتب الخطاب التالى ضمن أسلافه فان هذا يكون – فى الواقع – مصدر كبرياء منقطع النظير · هذا الخطاب موجه الى جمعية الانجيل فى نورويش عندما دعت لورد أورفورد لأن يكون رئيسها

« لقد امتزج القمار بدمى وانجرفت أخيرا فى مراهنات السباق وأخشى أننى أصبحت كثيرا ما أكفر بالله ولم أوزع نشرات دينية على الاطلاق وكل هذه الآثام معلومة لكم وعلى الرغم من ذلك ترون أننى أصلح لرئاسة جمعيتكم ! عفا الله عن نفاقكم »

ولم يكن اللورد أورفورد هو الذى يعيش داخل القفص فى هذه المناسبة بل للأسف كان اللورد أورفورد يمتلك منزلا ريفيا آخر هو ألسنجتون هول فى مقاطعة دورشستر وهناك أعجبت السيدة دورودثى بشجرة التوت أول الأمر ثم تعلقت فيما بعد بالمستر توماس هاردى الكاتب المشهور ؛ ومن هنا بدأنا نشعر بوجود قضبان القفص فى حياة السيدة دوروثى ونحن لا نزعم ان خيالها نشيط ازاء بيوت البحارة بصفة عامة ، فمما لا شك فيه أن أشجار التوت وهى باسقة تبدو أكثر جمالا من تلك البيوت ؛ ولكن عندما تصل الحالة الى دعوة المخربين الى اقتلاع تلك الأشجار ليبنوا منها بيوتا لهم ويصنعوا منها مساند لأقدامهم وينقشوا على تلك المساند من الحروف ما يفيد أن الملك جورج الثالث قد تناول أقداح الشاى وهو يريح أقدامه على تلك المساند ، عندئذ يحق لنا أن نعترض « انك طبعا تقصدين شكسبير وليس الملك جورج الثالث ؟ » ولكن ملاحظاتها المتتابعة عن مستر هاردى تؤكد أن السيدة دوروثى لم تكن تعنى شكسبير انها تقدر بحماس أعمال هاردى ولذا دأبت تشكو « ان عائلات الريف من الغباء بحيث لا يقدرون عبقريته بما

---

(١) Bossuet.

هي أهل له » تناول الملك جورج الثالث أقداح الشاى تهاون عائلات الريف في تقدير هاردى فهل بعد مثل هذا القول يبقى شك فى أن السيدة دوروثى كانت تعيش وراء القضبان !؟

لم تصور أية قصة ذلك الحاجز الذى قام حائلا بين السيدة دوروثى وبين العالم الخارجي مثلما صورته قصة شارلس داروين والبطاطين ومن بين هوايات السيدة دوروثى ظهرت هواية زراعة زهرة الأوركيد ، وبذلك توطدت علاقاتها بعالم التاريخ الطبيعى العظيم ثم دعتهـا زوجة دروين الى البقاء معهم فلمحت ببساطة واضـــحة الى أن الذين اندمجوا فى مجتمعات لندن يعشقون العظمة ويرفلون فى ثياب الرفاهيـــة ولذا أخبرتها فى نهاية خطاب الدعوة بأنها تخشى ألا تستطيع أن تهىء لها بعضا من هذا النعيم والرفاهية ولكن هل تداولت زوجة داروين حقيقة هذا الأمر مع زوجها وتناقشا سويا فى مدى امكان توفير أسباب الرفاهيـــة للسيدة دوروثى أو أنها أدركت التفاوت بين السيدة وبين زوجها فهذا ما لا نعرفه وانما لدينا احساس باصطدام عالمين وأن عالم داروين لم يكن هو الذى تحطم الى شظايا وكلما ازددنا فى دراســـة السيدة دوروثى وجدناها تقفز بين النبات تلتقط بعض الجـذور من هنا وبعض الأعشاب من هنـــاك ثم تنطلق بالغناء بصوت مرتعش ثم هى تصـــلح من شأن صوتها بقطعة من السكر فى قفص كبير فى الهواء الطلق قد أحسن تجهيزه ان ذلك القفص ملىء بمتناقضات لطيفة فهى تارة تزين أوراق الشـــجر التى تمزقت اربا وتارة أخرى تســـلى نفسها فى تحسين نســـل الحمير ثم بعد ذلك تهتم بتربيـــة دودة القز وكأنها تحاول أن تهـــدد أستراليا بطاعون الديدان « وهى فى الواقع قد نجحت فى ذلك فحصلت على كمية من الحرير تكفى لعمل ثوب » ، ومرة أخرى فهى التى اكتشفت تلك الغابة التى خوت على عروشها والتى كان يمكن ــ مع بعض النفقات ــ أن تصنع منها صناديق صغيرة ثم اتجهت الى مشكلة الفطريات وأبانت فضائل الفطر الأرضى الانجليزى الذى لم يحظ بأى اهتمام ثم اذا بها تستورد سمكلة من النوع النادر وتبذل جهدا كبيرا بدون جدوى محاولة بذلك أن تربى فى ساسكس طائر اللقلق والغرابيب ذات الارجل الحمراء ، ثم هوت النقش على الخزف ، كما رصعت الاسلحة القديمة وأخيرا ركبت صفارات فى ذيول الحمام فكان لذلك أثره الغريب عندما ينطلق الحمام فى الهواء » اذ بدا وكأنه فرقة موسيقية هوائية » • ويرجع الفضل فى كشف الطريقة المثلى لطهو الفيران الرومية الى دوقة سومرسيت • وانما

كانت السيدة دوروثى هى أول من قدم طبقا يحتوى على نلك المخلوقات الصغيرة فى وجبة الغداء فى شارع شارلس

كان باب القفص مفتوحا على مصراعيه طوال الوقت وكان يأوى اليه الكثيرون ، مما رفع السيد نيفيل الى أن يطلق على القفص « بوهيميا الراقية » وفيها تجمع لدى السيدة دوروثى « المؤلفون والصحفيون والممثلون والممثلات وغيرهم من الشخصيات المرحة اللطيفة » وتحقق حلم السيدة دوروثى بما وقع بالفعل فلم يسيء أحد منهم التصرف وقد سلم بعضهم بالفعل فكتب اليها بالتالى خطابات تعترف بالجميل »
ولكن كانت السيدة دوروثى تهرب من قفصها مرة أو مرتين بنفسها » ان هؤلاء الطغمة ـ وكانت تقصد بذلك الطبقة المتوسطة ـ « على جانب كبير من الذكاء بينما نتمتع نحن بالغباء فانظر كيف يحسنون تعليم أبنائهم بينما أبناؤنا لا يتعلمون سوى كيف ينفقون أموال آبائهم ! انها تعتمد على الواقع وان هناك أمرا يسير فى اتجاه خاطىء كانت من الذكاء ومن الامانة بحيث لا تلقى بكل اللوم على الطبقة التى تنتمى اليها انى أعتقد أنها لا تكاد تستطيع القراءة » قالت ذلك وهى فى معرض الحديث عن سيدة تدعى أنها مثقفة وقالت عن أخرى « انها فى الواقع فضولية ولديها استعداد طيب لكى تفتح محلا للبيع وانما فى اعتقادنا أن هربها المتميز من ذلك القفص حدث خلال السنة أو السنتين السابقتين على وفاتها وذلك فى متحف فيكتوريا وألبرت اذ كتبت تقول

« انى لأتفق معك وان كان لا ينبغى لى أن أقول ذلك فان الطبقة الراقية ولا أدرى ماذا أقول ـ تبدو أنها لا تهتم بشىء سوى لعب الجولف وما أشبه ذلك فقد كنت ذات يوم فى متحف فيكتوريا والبرت ولم يكن موجوداً به الا نفر قليل من الناس ـ وأنا على يقين من أنهم يبدون من التفاهة بدرجة يصعب فيها أن تكون لهم روح أو أجساد وقد خفف من وقع هذا المنظر على ناظرى صبيان صغيران ينكبان على قطعة بالمتحف بالدراسة فى كتاب صغير أجسامنا ـ من غير شك ـ تقهقه وترنو الى لا شىء ومما يزيد الطين بلة أنه لم يكن موجودا انسان واحد من الطبقة الراقية والحقيقة المرة أنى لم أسمع عن واحد منهم يعرف شيئا عن هذا المكان الذى ننفق عليه الملايين . ان هذا الامر مؤلم للغاية

لقد كان فعلا أمرا غاية فى الأذى ذلك الذى شعرت به السيدة دوروثى ودار فى مخيلتها لقد تفادت الكارثة فمن كان بمستطيع أن يذبح حمامة تحمل فى ذيلها صفارة ؟ وانما اذا كان القفص بأكمله قد تغير وتبدل وأرسلت الفرقة الموسيقية الهوائية أنغامها على متن الأثير فاننا كنا على يقين ـ كما قال لها جوزيف تشمبرلن ـ من أن سلوكها كان من الممكن أن يكون « رصيدا للطبقة الأرستقراطية البريطانية »

رابعا ـ رئيس الأساقفة طومسون

ان أصل رئيس الأساقفة طومسون غامض ويمكن القول بأن عم والده كان ينتمى الى الطبقات المتوسطة وتزوجت عمته من رجل كان حاضرا مقتل جوستاف الثالث ملك السويد وقد وافت المنية والده وهو فى السابعة والثمانين عندما وطأت قدمه قطة فى الساعات الأولى من الصباح. ان قوة والده الجسمية التى تصفها هذه القصة امتزجت بالقدرات العقلية التى كان يتمتع بها ابنة رئيس الأساقفة ولذا كان النجاح حليفه فى أية مهنة يلتحق بها ففى اكسفورد كان يبدو وكأنه قد وهب نفسه للعلم أو للفلسفة وفى ذلك الوقت كان يستعد لاعداد رسالة لنيل درجة علمية ووجد متسعا من الوقت لكى يكتب معالم القوانين الفكرية » وسرعان ما اعتبر هذا الكتاب من الكتب العلمية الدراسية فى أكسفورد وعلى الرغم من اغراءات الشعر والفلسفة والطب والقانون فقد نحى أفكاره جانبا ولم يرفه عن هذه الافكار بأن نهل من هذه العلوم لأنه كان قد وطد العزم على أن يهب نفسه للرب وللطقوس المقدسة ومعيار نجاحه فى هذا المجال العظيم انما تقرره وتدل عليه الوقائع التالية كرس شماسا فى عام ١٨٤٢ عندما كان عمره ٢٣ سنة ، وأصبح عميدا ثم أمينا لصندوق كلية الملكة بأكسفورد فى عام ١٨٤٥ ثم نصب أسقف جلوستر عام ١٨٥٥ ثم أسقف بريستول عام ١٨٦١ ثم رئيسا للأساقفة فى يورك عام ١٨٦٢ وبذلك لم يكد يبلغ ثلاثة وأربعين عاما حتى وصل الى المرتبة التالية لأسقف كانتربرى نفسها وكان من الطبيعى ـ وهذا غير صحيح ـ أن يفكر أنه سوف يحصل فى النهاية على هذا الشرف وينصب أسقفا لكانتربرى .

قد تقرأ تلك القائمة ـ قائمة الوظائف ـ فتمتلىء نفسك أما بالاحترام أو بالضيق والضجر ـ فهذه مسألة مزاج وايمان وبذلك قد

ننظر الى قبعة رئيس الاساقفة وكأنها تاج ملك أو مضخة اطفاء فاذا كنت مثل نقـــاد العصر الحاضر فانك على استعداد لأن تؤمن ببســـاطة بأن المظهر انما ينم عن المخبر • وأن القسيس انما هو رجل فاضل ، رجل يحمى الفضيلة والشريعة وقياسا على ذلك فان رئيس الاســـاقفة يكون بالتالى قد تركزت فيه الفضائل والخير والطيبة وانك حين تدرس حياة رئيس الاساقفة فانك ستجد هذه الحياة مثيرة للغاية فهو قد تحول عن الشعر والفلسفة والقانون وتخصص فى الفضيلة وان قدرته الروحية من العلو بمكان حتى انه تدرج من شماس الى عميد ومن عميد الى مطران ومن مطران الى أسقف خلال عشرين عاما وهى فترة وجيزة•ولما كان لايوجد فى انجلترا الا اثنين من الأساقفة فقد ترتب على ذلك أنه كان أفضل رجل ثان فى هذا الشأن فى انجلترا وفى قبعته الدليل على ذلك(١) وحتى فى الواقع المادى الملموس كانت قبعته فعلا احدى القبعات الـكبرى فقـد كانت أكبر من قبعة جلادستون وأكبر من قبعة ثاكرى وديكنز ولقد كانت قبعته ــ فى الواقع وكما أخبره صانع القبعات ونحن نوافقه على ذلك ــ بارتفاع ثمانى بوصات ورغم أنه بدأ كما يبدأ غيره من الرجال فانه وصل الى هذه المكانة ولقد ضرب أحد طلاب الجامعة وهو فى ثورة غضبه فأبعد عن الجامعة ثم نشر كتابا مدرسيا فى علم المنطق وأدلى بدلوه فأحسن الادلاء ولكنه بعد أن عين فى الجامعة كشفت مذكراته أن عملية التخصص قد بدأت تكشف عن نفسها وبدأ يتأمل كثيرا فى حالته الروحية ، ففكر فى اصلاح الكنيسة وفى معنى المسيحية ــ وانتهى به التفكير الى أن انكار الذات هو الأساس فى الدين المسيحى والأخلاق المسيحية وأن أسمى مراتب الذكاء هى تلك التى تحقق وتنمى أنكار الذات هذه وعلى ذلك (بعكس كوزن) (٢) فاننى أتمسك بهذا الدين لأنه أسمى مكانة من الفلسفة » وهناك اشارة واحدة الى الكيمياء وأنابيب الاختبار ولكن العلم والفلسفة حتى فى هذه المرحلة المبكرة كانا فى خطر أن يضيعا فى الزحام وسرعان ما اتخذت اليوميات طابعا مغايرا « ويبدو » كما قال المؤرخ « أنه لم يكن لديه وقت ليسجل أفكاره على الورق»؛ اذ كان يسجل مواعيده فقط وكان يتناول عشاءه فى الخارج معظم الأمسيات وقد وصفه سير هفرى تيلور الذى قابله ذات ليلة فى أحدى هذه الولائم

---

(١) ويقصد بهذا التعبير ماتحويه هذه الرأس من معلومات وآراء وأفكار (المترجمة)

(٢) Cousin.

بقوله « بسيط ـ صارم ـ طيب ـ كفؤ ـ لطيف » وربما كانت هذه الصرامة ممتزجة بتلك الطريقة من التفكير العلمي البحت وظرفه الى جانب ضخامة جسمه ربما كان كل ذلك سببا فى التأثير على هؤلاء العلية من القوم لأن يثقوا فيه لدرجة أن تجد الكنيسة فيه شخصية لا غنى عنها ويبدو أن منطقه القوى وهيئته المهيبة جعلاه يتمسك ـ كواجب يفرض عليه بشدة ـ بأن يلائم ويوفق بين اكتشافات العصر العلمية وبين الدين بل ويبرهن على أن « بعض تلك الاكتشافات دليل قوى فى ذاته على الحقيقة » فان كان أحد بمستطيع ذلك ، فان طوسون أقدر منه ، فكفاءته العلمية التى لا يحد منها أى انحراف خاطىء أو شطط خيالى قد فرضت نفسها على سلوكه فى تصريف الأمور فى كليته فمن قسيس أصبح فى الحال فى حكم رئيس الأساقفة ولكونه رئيسا للأساقفة فقد أمس رئيس أساقفة انجلترا ومحافظا لقلم المعاشات فى كلية الملك بلندن وراعيا لمائة وعشرين يعيشون مع رئيس شمامسة يورك ، وكان المتصرف فى كليفلاند وايست رايدنج وكانون ريزوبر يبندز فى مقاطعة يورك ودار الابراشية نفسها كانت قصراً منيفا ، وقد واجهته فى الحال « مشكلة معقدة » وهى هل يشترى كل الأثاث الذى كان أغلبه وضيعا أم يؤثث المكان من جديد وفى هذا تحميل بنفقات لا قبل له بها وفضلا عن ذلك كان بالحديقة الملحقة سبع بقرات ـ وهذه البقرات لا تكلف الابراشية شيئا اذ يصرف عليها مايدفعه آباء تسعةأطفال فى الحضانة يتغذون على ألبانها ثم حضر أمير مقاطعة ويلز وأميرتها للاقامة فأخذ رئيس الأساقفة على عاتقه تأثيث جناح الأميرة فقصد لندن واشترى ثمانية مصابيح وحاملين للشموع على شكل تمثالين أسبانيين ولم ينس ضرورة شراء صابون للأميرة،ولكن انبثقت أمور على جانب كبير من الأهمية اقتضت منه استعمال كل طاقة من طاقاته فقد أشير عليه أن أحسن استعمال سلاح منطقك القوى فى مواجهة السفسطائيين » من مؤلفى « مقالات وآراء» وقد استجاب لهذه المشورة فى كتاب سماه « عون على الايمان » . وكانت مدينة شيفيلد ـ التى تزخر بعدد كبير من أنصاف المتعلمين من العمال ـ مرتعا خصبا للريبة والتذمر فحمل رئيس الأساقفة هذه المهمة على عاتقه اذ كان مغرما بالنزال والنضال وقرع الحجة بالحجة . فعقد عدةاجتماعات للعمال وخطب فيهم ما هذا الذى يطلقون عليه الاباحية والاشتراكية والشيوعية وثوار ايرلندة والجمعيات السرية ما معنى هذه المسميات ؟ واستطرد مجيبا على تساؤله «الانانية وسيطرة الطبقة الدنيا على المجموع». ثم قال « ان هناك قانو نا طبعيا بمقتضاه تتفاوت الطبقات تبعا لتفاوت الأجور ويجب عليكم أن تتقبلوا الهبوط كما تفرحون بالصعود آننا

اذا تمكنا من ايجاد الشعب الذى يفهم هذا سار كل شيء على ما يرام فى سهولة ويسر » وقد استجاب عمال شيفيلد لهـــذا النداء بأن قدموا خمسمائة قطعة من فضيات الطعام ذات قشرة من الفضة الصافية ومن المحتمل أن يكون هناك عدد من السكاكين بين الملاعق والشوك

لقد كان الأسقف « كولنصوه » أكثر مشاغبة من عمال شيفيلد ودأب قارىء الطقوس على اغاظته حتى ان قوته المفرطة بدأت تحس وطأة الاثارة. ان الاستفهامات التى عزيت اليه كانت غريبة فى تلفيقها وقصد منهـــا اثارة رجل على هذه الضخامة وفى مثل هذا المركز ومضايقته ومن هذه الاستفهامات هل تجوز اقامة مراسم الدفن لرجل سكير وجد ميتا فى حفرة أو تقام تلك المراسم لرجل سارق قد سقط فى منور المنزل الذى سـطا عليه ؟ وهل تضاء له الشموع ويرتدى القساوسة أرديتهم الملونة ؟ وهل تدار كؤوس العشاء الربانى ؟ وفى كل هذا تكبيد للنفقات لا قبل له بها وفى النهاية يقوم الأب جون بيرشيس وهو يرتدى رداءه الأبيض وقبعة الكاهن والشال ثم يشعل الشموع ثم يطفئها لغير « ما سبب » ويملأ الاناء بمسحوق أسود ويعفر جباه رفاقه ثم يضع فوق « المنضدة المقدسة »تمثالا أو صورة أو حمامة محنطة فى وضع طائر » لقد آلم كل ذلك رئيس الأساقفة ذا الطباع الهادئة والرابطة الجأش وتساءل « هل سيأتى ذلك اليوم الذى يسود فيه الاعتقاد بأن الجريمة تثقل على كنيسة انجلترا التى تعتبر رمزا لكل ما هو معقول فى الدولة ؟ انى أعتقد انه سيأتى ذلك اليوم ولكن لن أراه ، فلقد قمت بالكثير ولست نادما على ما أديت وقمت به بكل ما فى وسعى » . واذا كان رئيس الاساقفة نفسه قد راوده هذا التساؤل فاننا لا بد وأن نعترف بأن الحالة كانت محيرة للغاية وما الذى انتهى اليه رجلنا المختار هذا ؟ لقد أصبح حائرا وأســقط فى يده انه يقضى وقته فى اثارة الأسئلة حول الحمام المحنط وملابس النســاء الداخليــة الملونة وكان أحيانا يكتب ماينيف على الثمانين خطابا قبل أن يتناول الافطار وقليلا ما كان يجد متسعا من الوقت ليطير الى باريس ليشترى قبعة لابنته وفى النهاية يســأل نفســه هل ســيعتبر مسلكه هذا جريمة فى يوم من الأيام ؟

هل يعد هذا السلوك جريمة ؟ واذا عد كذلك ، فهل كان هذا خطأ منه ؟ ألم يبدأ بالايمان بأن للمسيحية علاقة بانكار الذات أو لم يكن هذا أمرا بديهيا ؟ واذا كان التكريم والالتزامات والأبهــة والعظمة وحب الاقتناء قد تجمعت جميعها وأحاطت به فكيف يتسنى له وهـــو رئيس

الاساقفة ـ أن يرفض قبولها ؟ فالأميرات لا بد أن يحصلن على الصابون الخاص بهن ، والقصور لا بد وأن تزود بالرياش ، والأطفال لا بد أن تربى لهم البقرات • وعلى الرغم مما يبدو على هذه الحياة من تزاحم فانه لم يفقد كلية تعلقه واهتمامه بالعلم وكان متطورا فقد وضع على نفسه مقيـاس المســافات الذى يعد الخطوات وكان واحـدا من الأوائل الذين بادروا باستعمال آلات التصوير ، وكان يؤمن بمستقبل الآلة الكاتبة وفى السنوات الأخيرة من عمره حاول اصلاح ساعة مكسورة وكان والدا لطيفا كذلك • كتب خطابات رشيقة تنم عن الذكاء والفكر العميق وكانت حكاياته الجميلة فى الصميم وبعد ذلك انطفأت شعلته ولقى ربه وهو قائم يعمل

حقا لقد كان رجلا كفؤا واذا كان علينا أن نتعرض للطيبة فهل كان من الميسور ، أو هل كان من الممكن لرجل طيب أن يصبح رئيســا للأساقفة ؟

القيم(١) وزهرة الكروكس(٢)

ان الشبان والشابات المبتدئين فى الكتابة كثيرا مايسدى اليهم النصح السليم بأن يكتبوا بصفة عامة وألا يضمنوا كتاباتهم أفكاراً أخرى غير تلك التى تدور فى رءوسهم ولا يقولون الا ما يؤمنون به ، الا أن هذا النصح غير عملى على الاطلاق ولم يضف واحد من الناصحين النصيحة الوحيدة التى هم فى حقيقة الأمر فى حاجة اليها وهى « أن تكون على يقين من أنك قد أحسنت اختيار القيم » وذلك لأن هذا هو حجر الزاوية فى الموضوع فالكتاب انما كتب لكى يقرأه بعض الناس ولما كان ولى الأمر ليس مجرد الخزانة التى تتولى دفع النفقات فحسب ، بل هو الذى يوحى ــ فى مكر ودهاء ــ بما يكتب ، وعلى ذلك فانه من الأهمية بمكان أن يكون ذلك القيم رجلا محبوبا .

ولكن من هو ذلك الرجل المحبوب أو المرغوب فيه ــ هل هو القيم الذى يستطيع أن يبرز أحسن ما فى رأس الكاتب أو هو الذى فى امكانه أن يقدم الى الوجود خلفا ضليعا عبقريا فى مختلف الميادين

---

(١) The Patron and The Crocus

كان الفنان أو الاديب فى ذلك العصر يحتمى بحمى رجل ذى مكانة أو نفوذ أو ثراء يتولى أمره فيهيىء له سبل العيش حتى يتفرغ الى فنه وانتاجه فاذا أسىء اختيار ذلك القيم تولى الاخير املاء أفكاره وآرائه وكان بالتالى مصدرا لوحى ذلك الفنان وقد فطن الى ذلك مجتمعنا الاشتراكى فتولت الدولة مهمة القيم ومنحت الفنان بدل التفرغ حتى يكون حرا فى انتاجه طلقا من كل قيد بعيداً عن السيطرة والنفوذ (المترجمة)

(٢) زهرة الكروكس زهرة موسمية وقد قصدت المؤلفة من هذه التسمية أن ترمز الى أنه على الفنان أو الكاتب أن يختار موضوعات الساعة ليكتب عنها اذ هى التى تهم القارئين وذلك لأن العامة تتحدث عن تلك الزهرة كلما تفتحت براعمها ونوجت عيدانها بلونها الاصفر فى موسم الزهور (المترجمة)

ولقد أجابت على هذا السؤال أجيال متعاقبة وبطرق مختلفة ففى عصر اليزابيث اختار المعاصرون أن تكون كتاباتهم ـ بصفة عامة ـ للأرستقراطيين ولجمهور المسرح أما فى القرن الثامن عشر فقد كان القيم عبارة عن خليط من لباقة رواد المقاهى وبائعى الكتب فى شارع جراب. ولما جاء القرن التاسع عشر كان أعظم الكتاب يحررون فى المجلات ذات الثمن المرتفع وللطبقات التى لا تحتاج الى العمل من أجل الحياة فاذا ما نظرنا الى الوراء وهللنا للنتائج الباهرة لهذا المزيج المتباين فانها تبدو ـ فى منتهى البساطة وفى وضوح ـ محددة المعالم ، صغيرة فى حجم حد الحربة اذا ما قورنت بأعمالنا واننا نتساءل اليوم لمن يجب علينا أن نكتب وذلك لأن معونة القيم فى الوقت الحاضر متعددة الألوان بما لم يسبق له مثيل فهناك الصحافة اليومية والصحافة الأسبوعية والصحافة الشهرية وهناك جمهور القراء من الانجليز والأمريكيين ، وهناك جمهور المطبوعات التى يقبل عليها الناس وجمهور المطبوعات التى لا يقبل عليها الكثير كل ذلك يشكل حاليا قدرة الادراك الشخصى من خلال أبواقها المختلفة التى تعبر عن احتياجاتها وتجعل العامة على بينة بما تقره أو لا تستسيغه وعلى ذلك فالكاتب الذى حركت مشاعره وأحاسيسه رؤية أول زهرة كروكس فى حدائق كينسنجتون عليه ـ قبل أن يخط بقلمه على الورق ـ أن يختار من بين زحمة المتنافسين قيماً بعينه يكون أكثرهم توافقا معه انه من العبث أن تقول « أستغن عنهم أجمعين ـ فكر فى الموضوع الذى يؤثر فيك أنت ليس فيهم» وذلك لأن الكتابة انما هى وسيلة من وسائل الاتصال الفكرى وزهرة الكروكس (أى موضوع الكتابة) سوف تكون غير جميلة حتى يشاركك الآخرون نفس الاحساس(١) ان أول رجل فى تاريخ البشرية وكذا آخر رجل سوف يبقى على ظهر الأرض هما وحدهما اللذان يمكن أن يكتبا لنفسيهما ليس الا . عندئذ سوف يكون هذا استثناء من القاعدة ولن يكون ذلك منتهى ماتبغيه ، فالكاتب يهتم حتى ببسطاء العقول ويرحب بهم اذا كان فى استطاعتهم قراءة أعماله

وبذلك نكفل لكل كاتب بعض الجمهور أو بعض القراء الذين يتلقفون كتاباته وسوف يقول كبار المفكرين ان هذا الجمهور سوف يكون خاضعا ويتقبل طائعا كل ما يريد أن يقدمه لهم هذا الكاتب وعلى قدر ما يبدو هذا القول صوابا فانه ينطوى على مخاطر جسيمة وذلك أنه فى هذه

---

(١) وتقصد الكاتبة من ذلك أن الموضوع لن يحظى بالقبول وبالاقبال عليه الا اذا كان موضوعا يهم القارىء الذى يكتب له بمعنى أن يكون موضوع الساعة (المترجمة)

الحالة سيظل الكاتب حريصا على جمهوره وان كان أعلى منهم مستوى وبغير ذلك سوف تكون الرابطة بينهما غير طيبة وغير سعيدة كما يستدل على ذلك من أعمال صمويل باتلر وجورج ميرديث وهنرى جيمس كل كان يتعالى على الجمهور وكل كان يبغى جمهورا وكل لم ينل شهرة أو رضاء الجمهور وكل صب لعنة فشله على الجمهور بسلسلة متزايدة من الكتابة فى زوايا مختلفة وموضوعات غامضة وتكلف بحيث لا يمكن لأى كاتب أن يقر ـ حتى ولو كان من يتولاه متفقا معه ـ هـذا الانتقام من الجمهور أو يرى فى هذا العمل أمرا لازما وبالتالى تصبح موضوعاتهم كزرع مرصود ، جميل براق ، ولكن معقوف عليهم مهلهل الشكل متجعد من جانب ، متطاير من الجانب الآخر ولمسة من الحياة ، تجعل الدنيـــا نعيما بالنسبة اليهم وهل معنى ذلك أننا ندفع الى الرأى المضاد وتتقبل ـ ولو فى الفكر ـ المقترحات المغرية التى قد يتقدم الينا بها رؤساء التحرير فى التايمز والديلى نيوز « عشرون جنيها لموضوع عدد كلماته خمسمائة على وجه التحديد تقدم كل صباح من جون أوف جروتس الى لاندز اند قبل التاسعة من صباح اليوم التالى وعليه اسم الكاتب ؟ »

ولكن هل موضوع واحد يكفى ؟ أفلا يمكن أن يكون براقاً الى حد كبير أن يتكلف الموضوع مثل هذا المبلغ فضلا عن ظهور اسم الشخص الى جانب الموضوع ؟ ان الصحافة ـ بغير شك ـ تضاعف الموضوعات بصورة عظيمة وانما اذا نظرنا الى بعض هذه النباتات فسوف نجد أن الشقة قد اتسعت بينها وبين الموضوعات الأصيلة التى تهم الجمهور وتسترعى انتباهه ولا تكون كتلك الزهرات الصفراء أو القانيات التى تنبثق من بين الحشائش فى حدائق كنسنجتون فى وقت مبكر من مارس كل عام(١) ان موضوع الصحافة موضوع مثير ولكنه من لون مخالف فالصحفى يملأ الحيز المخصص له بالضبط ويشع بريقا كبريق الذهب انه ملء بالبهجة والأنس والحماس انه دقيق معنى به الى درجة أن أحدا لا يفكر فى أن فن « نقدنا الدرامى » فى جريدة التايمز أو نقد ليـنـد فى الديلى نيوز عمـل سهل ـ انه ليس بالعمل الهين أن تحرك مليون عقل فى الساعة التاسعة صباحا وأن ترضى مليونين من العيون بما يقدم لها من البهجة والانشراح وبما يسترعى حقاً النظر اليه وعندما يأتى المساء تذبل تلك الزهرات وكأنها لم تكن يانعة فى الصباح هناك ذرات صغـيرة من الزجاج تفقـد

(١) وتقصد الكاتبة أن الموضوعات لاتسترعى انتباه العامة كما يسترعى تفتح الزهور فى أوائل الربيع انتباههم ولاتتصل الموضوعات بمشاعرهم ووجدانهم كما تفعل زهور الربيع (المترجمة)

بريقها اذا أخرجت من البحر وان بطلات المسرح يعوين كما تعوى الضباع اذا سجن فى أكشاك التليفون ، وكذا أكثر الأدوات بريقا ولمعانا اذا أزيل عنها عنصرها الأساسى تصبح تراباً ورمالا وقشورا من القش ــ ان الصحافة اذا قيدت بين دفتى الـكتاب فانها لا تقرأ

وعلى ذلك فالقيم الذى نريده انما هو ذلك الشخص الذى يساعدنا على العناية بأزهارنا حتى لا تذبل وتذوى عيدانها ولكن مادامت صفاته تتغير من جيل الى جيل يحتاج الأمر الى رصيد من النزاهة والاستقـامة والايمان بألا ينخدع بالمظاهر أو يتميز باستمالة الجموع المتنافسة وأن مهمة العثور على مثل هذا القيم أو النصير على هذه الصفات هى محك فن التأليف ومحل الاختبار والتجربة وان معرفة لمن تكتب هى الدليل فى ذاتها على القدرة على الكتابة ان صفات القيم فى العصر الحديث واضحة وضوحا تاما فالكاتب فى حاجة فى هذه اللحظة الى نصير يهوى قراءة الكتب أكثر من هوايته الذهاب الى المسرح ويجب أن يكون ــ فى أيامنا هذه ــ متفقا بآداب العصور والأجيال المختلفة وهنـــاك من الصفـات ما يفرضها ضعفنا الخاص وميلنا الى النصير فهناك مسألة الأدب الفاضح مثلا الذى يزعجنا ويحيرنا أكثر مما أزعج أدباء عصر اليزابيث أو حيرهم ان القيم ــ فى القرن العشرين ــ يجب أن يكون محصنا ضد الصدمات ــ وعليه أن يميز ــ بغير خطأ ــ بين تلك القطعة الصغيرة من السبخ التى تعلق بالزهرة كضرورة وهى تنبثق من بين التربة وسباخها وبين تلك التى تلتصق بها نتيجة للاهمال(١) وعليه أن يكون حكما كذلك فى المؤثرات الاجتماعية التى تلعب ــ رغما عنا ــ دورا هاما فى الأدب الحديث وأن يكون قادرا على أن يقول أى الموضوعات زبد يذهب جفـــاء وأيها ينفع الناس فضلا عن ذلك فهناك مشاعر عليه أن يفصح عنها وليس هناك من عمل يمكن للقيم أن يؤديه ويكون أكثر نفعا من عصـــمة الـــكاتب من العاطفة من ناحية ومن الخوف من الافصاح عن مشاعره من ناحية أخرى فعندئذ سيقول أن الخوف من الافصاح عن المشاعر أســـوأ من الافراط فى المشاعر والأحاسيس وقد يكون الخوف أمرا طبيعيا وقد يزيد على ذلك شيئا من اللغة فبعد الكلمات الكثيرة التى استعملها شكسبير وقواعد النحو والصرف التى انتهكها شكسبير وعلى الرغم من أننا نحرص كل الحرص حتى لا نلحن أو نخرج نغماً ناشزاً فاننا لم نتقـدم أو نتفوق على

---

(١) ترمى الكاتبة من ذلك أن على ذلك القيم أن يميز بين مايمكن أن يتعرض له الموضوع من مآخذ اقتضتها ضرورة الفن وبين تلك العيوب التى تعتور موضـــوع ما نتيجة رعونة من الكاتب أو استخفاف أو عدم العناية بما يكتب (المترجمة)

أنتونى وكليو باترة : وسيقول كذلك انه اذا لم يفكر فى أمور الجنس كلية فان ذلك يكون من عزم الأمور اذ ليس للكاتب نصيب منها • وانما كل هذه الأمور الأساسية محل للتنازع فأول صفات انقيم أمر مختلف عن كل ذلك اذ انه لزام عليه أن يحس ويتأثر بالكلمة الملائمة التى تأتى فى موضعها ومن الضرورى عليه أن يظلل زهرة الكروكس (موضوع الكاتب) ويرعاها فى جو يجعلها تبدو نباتا له أهمية عظمى وذلك لأن الاخفاق فى تقديم الموضوع من العثرات التى لا يمكن أن تغتفر أو يمحى أثرها عليه أى على القيم أن يشعرنا أن موضوعا واحدا يكفيه اذا كان حقـــا موضوع الساعة وأنه لا يحتاج الى تلقين أو زيادة أو تثقيف أو تحسين وأنه يأسف أنه دفع كارليل الى الصياح والعجيج ودفع تينسون الى الأناشيد وراسكن الى الجنون وأنه على استعداد الآن لأن يكفر ويطهر نفسه أو يدعمها كما يريد له كتابه وأنه مرتبط بهم ارتباط الابن بأمه ، انهما ـ القيم والكاتب ـ توأمان بالفعل يموت أحدهما اذا قضى الآخر نحبه ويزدهر أحدهما اذا نما الآخر وآمن بأن مصير الأدب يعتمد على تحالفهمـا السعيد وكل ذلك يدل على ما بدأنا به القول من أن اختيار القيم من أهم الأمور وأجلها وانما كيف السبيل الى الاختيار السليم ؟ كيف يجيـد الـكاتب ؟ تلـكم هى المشكلة •

المقال الحديث (١)

يقول الأستاذ رايز ـ وهو على حق فيما يقول ـ ليس من الضرورى التعمق فى أغوار التاريخ وفى أصل المقال ، وهل ابتدعه سقراط فى ليونان أم ابن سينا فى فارس وذلك لأن حاضره ـ وشأنه فى ذلك شأن كل كائن حى ـ أهم من ماضيه وأكثر من ذلك فان العائلة الواحدة تتشعب فروعها فبينما يرتفع شأن بعض أفرادها فى العالم وتتوج جباههم أكاليل الغار ينزل البعض الآخر الى الدرك الأسفل ليلتقطوا شيئا من صناديق القمامة يسدون به رمقهم بالقرب من شارع فليت (شارع الصحافة) وكما يسمح الشكل بالتباين فيمكن أن يكون المقال قصيرا أو مطولا ، وقد يشتمل على الجاد من الأمور أو يأتى مليئا بالخزعبلات ، وقد يكون الله موضوع المقال أو شبينوزا ، وقد يكون المقال عن السلحفاة أو عن منطقة «تشيب سايد» وعندما تقلب صفحات الأجزاء الخمسة الصغيرة التى تضم مقالات كتبت بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩٢٠ يظهر لنا بعض القواعد التى تحكم تلك الفوضى المستشرية ونلحظ فى وقت قصير عند الفحص شيئا أشبه مايكون بتقدم التاريخ

ان المقال من بين صور الأدب المختلفة هو الصورة الوحيدة التى تدعو الى الاقلال من استعمال الكلمات الطويلة والقاعدة التى تحكم المقال هى باختصار أن يكون المقال ممتعا لقارئه ، وفيه ما يثير الرغبة التى تدفعنا ببساطة ونحن نتناول المقال من الرف الى الاحساس بالمتعة . كل شىء فى المقال يجب أن يخضع لهذه النهاية ولابد أن يجعلنا مشدودين بأول كلمة فيه وعندما نفيق نشعر بالنشاط عند نهاية المقال وبين هذا وذاك نمر بالتجارب المختلفة فى المتعة والمفاجآت والرضا والسخط ، وقد نحلق فى آفاق الخيال مع لامب (٢) أو نغوص فى أعماق الحكمة مع بيكون (٣) ولكن

(١) **Modern English Essays,** edited by Ernest Rhys, 5 vols. (Dent).

(٢) Lamb.

(٣) Bacon.

بغير استفزاز على الاطلاق ثم يجب بعد ذلك على المقال أن يلفنا ثم يسدل ستائره حول العالم

ان مثل هذا العمل العظيم قلما يتم ، وقد يقع اللوم على القارىء بقدر ما يقع على الكاتب اذ أفسدت العادة والركود والخمول ذوقه فلكاتب القصة قصته وللشاعر نظمه ، فما هو اذاً الفن الذى يكون فى مقدور كاتب المقال أن يستعمله فى تلك القطع القصيرة من النثر التى تثيرنا فتدفعنا الى اليقظة الطويلة ثم تغرقنا فى غيبوبة هى ليست بالنوم وانما هى أقرب ما تكون الى التركيز فى الصحوة ـ بل انها أشبه ما تكون بالاسترخاء فى دفء الشمس مع تيقظ كل الجوارح ـ هذا الفن اذاً هو أن يعلم كاتب المقال علم اليقين كيف يكتب وقد يكون علمه هذا راسخا كعلم مارك باتيسون (١) ولكن فى المقال يجب أن يتوهج هذا العلم بسحر الكاتب بدرجة لا تجعله مادة جافة تبرز من بين سطوره ولا مذهباً يمزق لباب الورق • وقد أنجز ماكولى(٢) بطريقة ما وفرود(٣) بطريقة أخرى كل ذلك مرات ومرات بنجاح عظيم فقد قدما الينا من ألوان المعرفة فى متن مقالة أكثر مما ساقته فصول متعددة فى مئات من الكتب المدرسية ولكن عندما أراد مارك باتيسون أن يحدثنا فى خمس وثلاثين صفحة من القطع الصغير عن مونتيني فاننا نشعر أنه لم يتعظ من قبل بالسيد جرون(٤) والسيد جرون هذا كان رجلا (جنتلمان) ووضع يوما كتابا رديئا وكان من الواجب عليه أن يغلف نفسه وكتابه بغلاف من القهرمان (٥) حتى يتم لنا الابتهاج الدائم وما حاول أن يحدثنا عنه مارك باتيسون كان أكثر مما فى طاقة باتيسون ولذا جاءت العملية مجهدة وكما قدم جرون عملا فجا غير ناضج فقد بقى باتيسون كالثمرة الفجة بين الطعام الناضج ومن ثم استلزمت من أسناننا المضغ المستمر وشىء من ذلك قد انطبق على ماثيو أرنولد (٦) وعلى مترجم بالذات لفلسفة سبينوزا والاخبار الحرفى الصادق واكتشاف أخطاء المجرم من بين حسناته أمران ليس لهما مكان فى

---

(١) Mark Pattison.

(٢) Macauley.

(٣) Froude.

(٤) M. Grun.

(٥) وترمى الكاتبة بهذا التعبير الى حجب الكتاب ومؤلفه عن أعين القراء حتى لا يستاء منه أحد وذلك لان القهرمان غير شفاف وسوف يحجب مابداخله فلايطلع عليه أحد (المترجمة)

(٦) Matthew Arnold.

المقال حيث كل شيء يجب أن يكون لصالحنا ومنفعتنا أبد الدهر أكثر مما يسوقه عدد مارس(١) من المجلة نصف الشهرية واذا كان صوت التأنيب لا يمكن أن يسمع فى مثل هذه العجالة القصيرة فان هناك صوتا آخر أشبه بتصويت الجراد صوت رجل وسنان يتعثر فى كلمات مفككة ويتعلق فى غير هدف بأفكار مهزوزة ومثال ذلك صوت مستر هوتون (٢) فى الفقرة التالية

أضف الى ذلك أن حياته الزوجية كانت قصيرة جدا فلم تعمر الا سبع سنوات ونصف السنة ، ولم يكن يتوقع أن تنقطع هكذا سريعا وكان احترامه العاطفى لذكرى زوجته ولذكائها ــ على حد قوله ــ عقيدة أو ديناً ، وهذا الاحترام كان من النوع المبالغ فيــــه ولولا أنه متزن كل الاتزان وليس فى امكانه أن يظهر عكس ذلك لكان هلوسة فى نظر بقية الناس ومع ذلك فانه كان مأخوذا بفكرة لا تقاوم تتضمن اطنابا رقيقا حماسيا وبذلك أصبح من الصعب العثور على رجل اكتسب مثل هذه الشهرة الواسعة ومن المستحيل ألا نشعر بأن الحوادث البشرية التى مرت بحياة السيد ميل كانت مؤسفة للغــاية » ٠

الكتاب يمكن أن يحتمل مثل هذه السقطة ولكنها تضيع المقال وتسجيل سيرة انسان فى مجلدين يصبح فى الواقع سفراً لائقا حيث يكون المجال أكثر استيعابا والاشارات والتلميحات عن الأشياء الخارجية تشكل جزءا من المادة الغزيرة (ونحن نشير الى مجلد من طراز فيكتوريا) ٠ وقلما يهتم بهذا التراخى أو بتلك الطاقات وهى تنطوى فى الواقــع على قيمـــة ايجابية فى ذاتها ولكن هذه القيمة ــ وهى التى يمنحها القارىء ، وقد يكون غير محق فى ذلك نتيجة لرغبته فى الحصول على أقصى ما فى وسعه من كل المصادر الممكنة من الكتاب ــ هذه القيمة هى التى تتحكم فى المقال

لا مجال هنا للأدب الفاضح فى المقال وبطريقة أو بأخرى ، وبقوة الجهد أو بسخاء الطبيعة أو بهما ممتزجين يجب على المقال أن يكون

---

(١) وتريد المؤلفة بذلك أن الفائدة التى تعود علينا من قراءة المقال يجب أن تكون دائمة وليست فائدة وقتية فالمقال لا يختص بفترة من الزمن كموضوعات المجلة نصف الشهرية التى تهتم بالاحداث التى تدور أو تقع فى خلال فترة ظهورها وتختفى تلك الاحداث وتصبح غير ذات موضوع وتحتجب وراء ما يجد من حوادث وأخبار تالية (المترجمة)

(٢) Mr. Hutton.

خالصا نقيا نقيا كالماء أو رائقا كالخمر وفى الوقت نفسه بعيدا عن السخف والموات ورواسب الغريب من الأمور فمن بين كل الكتاب فى المجلد الأول يحقق وولتر بيتر (١) هذا العمل الشاق فى أجمل صورة ذلك لأنه قبل أن يتهيأ لكتابة مقاله « ملاحظات على ليوناردو دافينشى » مثلا يكون قد تمكن بطريقة معينة من هضم مادته فهو رجل متعلم وانما ليست المعلومات عن ليوناردو هى التى تبقى معنا وانما هى الرؤيا أو الصورة التى نحصل عليها من قصة رائعة كل شىء فيها يسهم فى اظهار تصورات الكاتب أمامنا ككل ـ وهنا فقط ـ فى المقال حيث كل القيود صارمة وحيث تظهر الوقائع عالية ـ يجعل الكاتب الأصيل ، مثل وولتر بيتر ، هذه الحدود طيعة مستسلمة • ويسبغ عليها الحق سلطانا ، ومن خلال حدودها الضيقة يمكن أن يستخلص الأشكال والتركيز ، وبالتالى يصبح المجال لا يتسع الى كثير من الزخارف التى كان يميل اليها الكتاب القدامى والتى نترفع عنها نحن وان سميناها بالزخارف • واليوم لا يجد أحد الشجاعة لكى يتوقف عند وصف سيدة ليوناردو الشهيرة التى

« تعلمت أسرار الآخرة والتى كانت ذات يوم تغوص فى أعماق البحار التى تطويها والتى تاجرت فى النادر من القماش مع تجار من الشرق ، كما كانت ليدا أم هيلين طروادة وكما كانت القديسة آن أم مارى

ان هذه الفقرة قصيرة جدا بحيث يتضمنها سياق فى الكلام دون تكلف • ولكن عندما نصل بغير توقع الى « النساء الضاحكات وتلاطم المياه العميقة » أو الى « ملىء بتراب الموتى فى الرمل ، أكفان فى لون الأرض رصعت بالحصيات الشاحبات » نتذكر فجأة أن لنا أذاناً وأن لنا أعينا وأن الانجليزية تملأ صفاً طويلا من المجلدات الضخمة بكلمات لا تحصى ، أغلبها ذات أكثر من مقطع واحد ان الرجل الانجليزى الذى على قيد الحياة والذى يرجع الى هذه المجلدات لابد أن يكون ـ بغير شك ـ رجلا ذا أصل بولندى حتى يتفهمها ، وان تحفظنا يوفر علينا ـ بغير شك ـ كثيرا من الاندفاع ، وبالمزيد من علم البيان وبمزيد من التعالى والسمو ومن أجل الاعتدال السائد وصلابة الرأى فان علينا أن نكون على استعداد لنفاضل بين عظمة سير توماس براون وبين قوة سويفت •

ومع ذلك فاذا كانت المقالة أكثر ملاءمة من كتب السيرة أو القصة العاطفية فانها تسمح بالجرأة الفجائية وباستعمال المجاز كما يمكن تنميقها

---

(١) Walter Pater.

بحيث تلمع كل ذرة من ذرات صفحاتها ، وفى هذا يكمن الخطر اذ سرعان ما نكون بصدد زخرفة وسرعان ما يبطىء التيـــار الـذى يعتبر عصب الحياة فى الأدب ، وبدلا من أنيتدفق لامعا براقا أو يندفع وئيدا بقوة النبض ذى الانفعال العميق فان الكلمات تتجمد معا فى رذاذ متجمد وتصبـح كعناقيد العنب على شجرة عيد الميلاد التى تظل براقة لليلة واحدة ثم يتراكم عليها التراب ثم ينطفىء بريقها فى اليوم التالى ان الاغراء فى الزخرفة يكون قويا عندما يكون الموضوع تافها فأين المتعة التى يمكن أن يشعر بها القارىء ازاء القول بأن أحدا قد استمتع بجولة سيراً على الأقدام أو سرى عن نفسه بالتسكع فى « شيب سايد » أو بمشاهدة السلاحف فى واجهة محل سويتينج ؟ وقد اختـــار كل من ستيفنسون وصامويل باتلر أساليب للاثارة تختلف كثيرا فى مثل هذه الموضوعات المـألوفة فهـذب ستيفنسون ـ بالطبع ـ موضوعه كما صقله وأعده على الطريقة التقليدية للقرن الثانى عشر وقد قام بعمله بطريقة محببة ولكننا لا يمكننا الا أن نشعر بالقلق كلما تقدمنا فى المقال وأقل مادة يمكن أن تكون طوع بنان الفنان المـاهر فالسبيكة قليلة جدا والعمل اليدوى مستمر ولعل ذلك هو السبب فى أن تكون النهاية على النحو التالى

« لتجلس ساكنا وتتأمل ـ ولتتذكر وجوه النساء بغير شـهوة
ولتستعرض أعمال البطولة التى يقوم بها رجال بلا حقد أو غل
ولتكن كل شىء وفى كل مكان رحمة وشفقة ومع ذلكفأنت قانع
بالبقاء كما أنت وحيث أنت »

ففى هذه النهاية نوع من تفاهة الجوهر الذى يتضح معه ـ فى الوقت الذى تصل فيه الى النهاية ـ كأنه ولا مادة فيه ليبنى منها الكاتب أعماله ويبدو أنه يريدك أن تفكر فى أفكار من عندك وتتولى تفسيرها ببساطة بقدر ما تستطيع فتلك السلاحف فى واجهة المحل والتى تبدو وهى تطل برءوسها وأرجلها من وراء أصدافها توحى بالاخلاص المميت (١) فكرة ثابتة لا تتغير • وهكذا يتنقل كاتب المقال بلا قصد من فكرة الى أخرى ونعبر معه أرضا منبسطة ممتدة ، وتلحظ أن جرحا يحدث لوكيل محام هو خطب جلل وارتداء الملكة مارى ملكة اسكتلنده لحذاء طويل كالذى يرتديه الجراحون فى العمليات الجراحية ـ وهى تسير بالقرب من محل « حدوة الحصان » فى شارع توتنام كورت ـ خطب جلل أيضا ، وعليك أن تقبل ـ بغير جدال ـ أنه

(١) رمزت الكاتبة بأصداف السلاحف الى الفكرة الثابتة • (المترجمة)

لا أحد يهتم باسكيلوس(١) وهكذا ـ وبكثير من أمثال هذه « الحواديت » المسلية وبعض الأفكار العميقة ـ يصل القارىء الى النهاية كما قيل له بألا يرى فى منطقة « شيب سايد » أكثر مما يمكنه قراءته خلال إثنتى عشرة صفحة فى مجلة يونيفرسال ولهذا يحسن أن يتوقف عن القراءة ومع ذلك فمن الواضح أن بتلر كان حريصا ـ على الأقل ـ على متعتنا مثل ستيفنسون وان كتابة المرء بأسلوبه الشخصى حتى ولو كان أسلوبا رديئا لمهمة أصعب من تقليد أديسون مثلا ، ثم يسمى هذا التقليد اجادة فى الكتابة

وكتاب المقال فى عصر فيكتوريا وان اختلف كل منهم عن الآخر تمام الاختلاف يشتركون فى صفة عامة فهم كانوا يكتبون المقالات الطوال أكثر مما يحدث عادة الآن وكانوا يكتبون لجمهور ليس لديه من وقت ما يقضيه مع المجلات فحسب بل وعلى مستوى عال من الثقافة تميز بها عصر فيكتوريا وتمكنه ثقافته من تقدير المقالات والحكم عليها وان الكلام عن الموضوعات الجادة فى مقال ، أمر يستحق المجهود وليس فى الأمر مزاح أن يعيد المرء كتابة نفس الموضوع كأحسن ما يستطيع فى خلال شهر أو شهرين لنفس الجمهور ـ الذى رحب بالمقال وأقبل عليه عندما ظهر فى مجلة ـ فيكتب نفس الموضوع فى كتاب ، فان هذا الجمهور سيقرأ الكتاب باهتمام وعناية ولكن الانتقال يحدث من جمهور صغير من أناس مثقفين هم جمهور المقال الى جمهور أكبر من أناس لم ينالوا حظاً من الثقافة • والانتقال أو التغيير لا يحدث دائما نحو الأسوأ ففى المجلد الثالث نجد مقالات السيد بيريل (٢) والسيد بيربوم (٣) ومنها يمكن أن يقال ان هناك عودة الى النمط التقليدى ، وان المقال عندما فقد حجمه وبعضا من رنينه ـ يقترب أكثر من مقال أديسون(٤) ولامب(٥) • وعلى كل حال فهناك هوة سحيقة بين السيد بيريل عندما كتب عن كارليل(٦) وبين المقال الذى يمكن أن نتصور أن كارليل كان يمكن أن يكتبه عن السيد بيريل وهناك تشابه طفيف بين سحابة المرايل (٧) بقلم ماكس بيربوم وبين اعتذار ساخر (٨)

(١) Aschylus.
(٢) Mr. Birrell.
(٣) Mr. Beerbohm.
(٤) Addison.
(٥) Lamb.
(٦) Carlyle.
(٧) A Cloud of Pinafores.
(٨) A Cynic's apology.

بقلم ليسلى ستيفن (١) ـ ولكن المقال فيه حياة وليس هناك من سبب لليأس ولما كانت الظروف قد تغيرت فان كاتب المقـــال ـ وهو أكثر حساسية للرأى العام من أى فرد أو هيئة أخرى ـ كيف نفسه ، فاذا كان كاتبا قويا فانه يستفيد من هذا التغيير أكبر استفادة أما اذا كان كاتبا ضعيفا فان هذا التغيير يسىء اليه أشد الاساءة والسيد بيريل ـ بغير شك ـ كاتب مبدع ولهذا فاننا نجد أنه على الرغم من أنه خفف كثيرا من وطأته الا أن نقده مباشر وحركته أكثر مرونة ولكن ما الذى منحه السيد بيربوم للمقال وما الذى استفاده المقال منه ؟ ان هذا سؤال معقد أشد التعقيد ، اذ أننا أمام كاتب مقال قد ركز على العمل وأنه ـ بلا منازع ـ أمير مهنته •

كان الكاتب يحجب نفسه عن قرائه فلا يظهرها فى المقـــال وكان بيربوم هو أول من قدم نفسه للقراء وأصبح مألوفا بينهم فى التسعينات• وعاد هذا الاتجـــاه الذى سيطر على المقال تماما فى عهد مونتينى (٢) الى الاختفاء بعد وفاة تشارلس لامب • فلم يكن ماثيو أرنولد (٣) مقربا الى قرائه حتى يطلقوا عليه اسم كناية وكذا لم يكن والتر بيتر (٤) محبوبا أو مألوفا لدى آلاف العائلات حتى يلقبونه ب «وات» (٥) فهما ـ وان كانا قد وهبا المقال الكثير الا أنهما لم يهبا له نفسيهما • ولا بد أن قراء التسعينات الذين اعتادوا على تقديم النصح والمعرفة كما تعودوا ألا يظهر الكاتب نفسه فى المقال ، قد عجبوا أن وجدوا انسانا يخاطبهم ولا يتميز عليهم كما أنه لا يفـوقهم فى شىء ولا بد أن «بيربوم» كان متأثرا بأفراحه وأحزانه ولم يكن لديه ما يقدمه من النصائح والارشادات والهداية ، ولم يكن لديه كذلك معلومات لينقلها الى القارىء وباختصار ودون مداورة كان يعيش فى نفسه وبقى كذلك ومرة أخرى نجد كاتب مقال قادراً على الـكتابة ولكنه فى نفس الوقت قادر على استعمال المقال كسلاح رقيق وخطير معاً

وهو لم يوجد الشخصية فى الأدب عفواً أو عن غير قصد بل أوجدها قاصدا مدركا لما يأتى • حتى اننا لنعجب هل هناك علاقة بين ماكس كاتب المقال والسيد بيربوم الانسان وانما نعلم أن روح الشخصية تحل فى كل

---

(١) Lesie Stephen.

(٢) Montaigne.

(٣) Matthew Arnold.

(٤) Walter Pater.

(٥) Wat.

كلمة ولا نعلم غير هـذا وتكمن العظمة فى قوة الاسلوب لأن معرفة فن الـكتابة هو القدرة ذاتها التى تمكنه من فرض نفسه على الأدب ، فهـذه الذات ـ بينما هى هامة ضرورية فى الأدب ـ فهى أيضا أكثر خطرا وألد عدوا على الأدب ولا عليك أن تكون ذاتك دائما وأنت تكتب وفى نفس الوقت يجب أن تكونها ولا تفقدها هذه هى المشكلة

ان بعض كتاب المقال فى مجموعة مسترراى(١) لم يجدوا ـ بصراحة ـ لهذه المشكلة حلا على الاطلاق • وقد لا يروقنا أن نلتقى بشخصيات تافهة تذوب وتتحلل فى مطبوعاتها الباقية ومما لاشك فيه أن تلك الشخصيات كانت لطيفة ومتحدثة نلتقى بها فى ساعات صفو على كأس من البيرة ولكن الأدب جاد ، لا يجديه اللطف أو طلاوة الحديث أو العـلم أو الـذكاء فى المساومة الا اذا تحقق أول شرط من شروطه وهو القدرة على الكتابة ومعرفة كيف يكتب •

وصل هذا الفن ـ فن الـكتابة ـ الى درجة الكمال عند بيربوم ولكنه لم يكلف خاطره أن يرجع الى المعـجم لينتقى منه ألفـاظا متعددة المقاطع ولم يستوعب آداب العصور ذات الشأن ولم ينصهر فى بوتقتها أو يشنف آذاننا بالايقاع المتزن أو بالتجويد الذى يصـعب الوصول اليه أو بالنغم الغريب • وكان بعض أتباعه ـ أمثال هنلى(٢) وستيفنسون(٣) ـ فى بعض الأحيان أكثر تأثيرا منه ومع ذلك فاننا نجد فى «سحابة المرايل»(٤) مالا يمكن وصفه من التباين والاثارة والتعبير القاطع وهـذا كله من ضروريات الحياة ، والحياة وحدها وليس معنى أن تقرأها أنك قد انتهيت منها فهى أشبه بالأصدقاء يفترقون لا لأن المودة قد انقطعت بينهم وانما لأنه قد حان الوقت للانصراف فالحيـاة من شأنها أن تغـير وأن تنمق وأن تضيف فحتى الكتب فى المكتبة تتغير اذا كانت حية ، فنجد فى أنفسنا الرغبة فى أن نلتقى بها مرة أخرى ، وعندئذ نجدها قد تغيرت • وعلى ذلك نعود الى مقالات بيربوم مقالا بعـد آخر ونحن على يقين أنه على مر الأيام سنجلس اليها ونتجاذب معها أطراف الحـديث وفى الواقع ان كاتب المقال هو أكثر الكتاب حساسية للرأى العام فغرفة الجلوس هى المكان الذى تتم فيه القراءة فى هذه الايام ، وتحتل مقالات بيربوم من نفوس القراء

---

(١) Mr. Rhy.

(٢) Henley.

(٣) Stevenson.

(٤) A cloud of pinafores.

منزلة وتقديرا هى فى الواقع أهل لهما   ولا تقرع كئوس الجعة أو يحرق الطباق أثناء المطالعة ولا نجد تلاعبا بالالفاظ ، أو سكرا أو جنونا ، فالكل مستغرق فى قراءاته يتجاذبون أطراف الحديث ولكن هناك تعليقات صامتة

اذا كان من الغباء أن نجد بيريوم فى داخل حجرة واحدة فانه يكون أكثر غباء أن نعتبره الفنان الذى لا يعطينا الا أحسن ما عنده أو نعتبره ممثلا لعصرنا   فليس هناك مقالات لبيريوم فى المجلدين الرابع والخامس من هذه المجموعة مجموعة راى — اذ يبدو عصره وكأنه بالفعل بعيد عنا قليلا   وغرفة الجلوس — وهى تختفى كمكان للقراءة بدأت وكأنها المذبح حيث قدم عليه الناس — فى يوم من الأيام — قربانا من فواكه بساتينهم   وهدايا صنعتها أيديهم — ولكن تبدل الحال غير الحال الآن   فالجمهور يحتاج الى مقالات كما كان فى حاجة اليها فى الماضى بل وربما هو فى أشد الحاجة اليها عن ذى قبل   يحتاج الى مقالات خفيفة متوسطة الطول لا تزيد على ١٥٠٠ كلمة   وفى القليل النادر تصل الى ١٧٥٠ كلمة وحتى هذا القدر من الكلمات يزيد على المادة التى يشتملها المقال   فحينما كتب لامب مقالا واحدا وكتب ماكس مقالين فى نفس الموضوع فقد كتب مستر بيلوك(١) فيه ما يقرب من ٣٦٥ مقالا   كانت مقالات قصارا ما فى هذا شك   ومع ذلك فانها لقدرة حقا أن يتمكن الكاتب من استخدام الجزء المخصص له فهو يبدأ فى أول الصفحة   ويعرف بكل دقة الى أى مدى سيسير   ومتى يغير الحديث   وكيف   دون أن يضحى بقيد أنملة من الصفحة — بل هو يستمر فى الكتابة وعليه أن ينتهى عند آخر كلمة فى المقال مع آخر جزء خصصه له المحرر ! وهذه المقدرة فى الكتابة تستحق الملاحظة كاستعراض للمهارات   ولكن عرض الشخصية التى اعتمد عليها مستر بيلوك كما اعتمد عليها مستر بيريوم ، هذه الشخصية تعانى من عملية العرض هذه   فلا نلتقى بالشخصية الفنية التى تتحدث بضمير المتكلم بل تصلنا مضغوطة هزيلة مثقلة باللزوميات والتكلف مثلها كمثل رجل يصيح فى خلال مكبر للصوت فى يوم عاصف

أصدقائى الصغار — قرائى هكذا يقول فى مقاله المسمى **بالقرية المجهولة** ويستطرد بعد ذلك   « فى ذات

---

(١) Belloc.

يوم كان هناك راع فى سوق فندون جاء من الشرق عن طريق لويس ومعه خراف وكانت فى عينيه آثار الآفاق التى تجعل عيون الرعاة ورجال الجبال تختلف عن أعين الآخرين ذهبت معه لأسمع منه ما سوف يرويه اذ ان حديث الرعاة يختلف كل الاختلاف عن أحاديث غيرهم .

ومن حسن الحظ لم يكن لدى هذا الراعى الا القليل من الكلام عن القرية المجهولة بالرغم من اغراء قدح البيرة اذ ان الملاحظة الوحيدة التى أبداها تدل على أنه اما شاعر صغير لا يصلح لرعى الخراف واما انه بيلوك نفسه قد تقمص شخصيته بقلمه هذا هو الجزاء الذى يجب أن يواجهه كاتب المقال المحترف فلا مفر من تقمص الشخصية اذ لايجد لديه من الوقت ما يسمح له بأن يعبر عن نفسه أو أن يعبر عن الشخصيات وهو مضطر الى أن يأخذ من الأفكار قشورها وأن يميع قوة الشخصية وهو مضطر كذلك لأن يكتفى بالموضوعات الرخيصة يقدمها لنا كل أسبوع بدلا من انتاج واحد دسم يتقدم به فى نهاية العام

ولم يكن بيلوك هو الذى قاسى وحده من هذه الحالة المتفشية وقد لا تكون المقالات التى تشكل مجموعة عام ١٩٢٠ هى أحسن ما أنتجه يراع كاتبيها بل اذا استثنينا كتابا مثل كونراد وهدسون ، اللذين تعرضا لكتابة المقال مصادفة وسلطنا الأضواء على الذين اتخذوا من كتابة المقال عادة أو حرفة ، فسوف نجد أنهم تأثروا الى حد بعيد بتغير ظروف الحياة فى المدينة الحديثة . ان الكتابة كل أسبوع أو كل يوم ، أو الكتابة المختصرة، أو الكتابة الى هؤلاء الذين يستقلون القطار فى لهفة وعجلة كل صباح فلا يكادون يجدون فسحة من الوقت للقراءة أو الكتابة الى الذين يئوبون الى منازلهم مع المساء مجهدين متعبين، مثل هذه الأنماط من الكتابة أمر شاق يؤلم النفس خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يميزون الغث من الثمين انهم انما يكتبون وهم يبعدون بالغريزة أى شىء ثمين يمكنه أن يفسده عامة القراء ، كما يبعدون أى شىء حاد لاذع يمكن أن يثيرهم وعلى ذلك اذا قرأ شخص للوكس (١) أو للينذ (٢) أو لسكوير (٣) بصفة عامة فانه يشعر بانقباض عام يشع من كتاباتهم حتى يطبع كل شىء

---

(١) Locus.

(٢) Lynd.

(٣) Squire.

بالكآبة فهم أبعد ما يكونون عن الجمال الباهر فى مقالات ولتربيتر كما انهم بعيدون عن الصراحة المفرطة التى يتمتع بها ليزلى ستيفن(١) ان الجمال والشجاعة صفتان خطرتان لا يمكن ضغطهما فى مقال قصير لا يتجاوز العمود أو نصف العمود من الجريدة وكذا ملء هذا المقال بالأفكار الدسمة مثله كمثل من يملأ جيوب صيديريته بورق اللف السميك فيشوه جال هندامه هكذا يكون الحال فى حشو المقال القصير بالأفكار العميقة تشويهاً للجمال الفنى انهم يكتبون لعالم طيب متعب ساذج والعجيب أنهم لا يكفون عن الكتابة أو يحاولون على الأقل أن يكتبوا كتابات جيدة

ولسنا فى حاجة الى الاشفاق على كلانتون بروك(٢) لما استحدثه من تحول فى كتابة المقال فمن الواضح أنه قد أستفاد ظروفه المواتية وقد يتردد المرء فى القول بأنه لم يأت بمجهود واع فى هذا الأمر ولهذا كان السبب فى تحول كاتب المقال من الخاصة من القراء الى العامة منهم، وانتقل بالمقال من حجرة الجلوس الى ألبرت‌هول (٣)٠ ومن أوجه التناقض أن يقصر المقال فى الوقت الذى تمتد فيه شخصية الكاتب اليه ليتحدث عن نفسه فلم نعد نقرأ فى المقال ضمير المتحدث (أنا) وانما ضمير الجماعة (نحن) وضمائر أخرى للتعظيم والتفخيم ومن أمثلة ذلك عندما أراد الكاتب أن ينتقد **الناى السحرى** (٤) فبدلا من أن يقول عندما « ذهبت » يقول

عندما « ذهبنا لسماع الناى السحرى
« ونحن الذين يقتضى الانتفاع بهم ؛
« ونحن » – (ولا ندرى كيف كان ذلك !) – اتبعنا هذا
الأسلوب بمقدرتنا الفائقة فى يوم من الأيام

فالموسيقى والأدب والفن لابد أن تخضع لنفس التعميم والا فلن تنتشر الكتابات منها على طول امتداد ألبرت هول وأن صوت كلاتون بروك–على قدر ما فيه من اخلاص وبعد عن التحيز–فانه قطع هذه المسافة ووصل الى مداها دون أن يعرض بضعف العامة أو بعواطفهم وهذا هو الأمر الذى يرضينا جميعا ولكن بينما « نحن » تدخل السرور والرضا

---

(١) Leslie Stephen.

(٢) Clutton Brok.

(٣) وتريد الكاتبة بذلك أن تقول ان المقال بعد أن كان لا يقرأ الا فى الصالونات بين خاصة الناس خرج الى الاماكن العامة ، خرج الى عامة الشعب (المترجمة)

(٤) The Magic Flute.

فان أنا – وهى الشريك العنيد فى الانســـان تنكمش فى يأس و الأنا » تفكر دائما فى أمور تخصها وأشياء يشعر بها المرء بنفســـه ليشارك بها – بصورة مخففة – عامة المثقفين والنابهين وهذه المشاركة بالنسبة اليه عذاب أليم وبينما البقية الباقية منا تصغى بانتباه وتستفيد بعمق فان الأنا تسرح فى الحقــول والمــزارع وتبتهج بالانطــلاق وبالانفراد بطرف أخضر من العشب أو حتى بحبة وحيدة من البطاطس

ويبدو أننا – فى المجلد الخامس من المقــالات الحديثة – قد بعدنا قليلا عن المتعة وعن فن الــكتابة واحقاقا للحق يجب علينا بالنســبة لكتاب المقال أن نتأكد من أننا لم نرفع المشهورين ونمتدحهم لأنهم سبق أن امتدحوا من قبل أو نقرظ الموتى لأنهم لن يبعثوا ليسيروا متأنقين بيننا فى ميدان بيكاديلى–بل يجب علينا أن ندرك ما الذى نقصده عندما نتحدث عمن يستطيع الكتابة وعمن يدخل علينا البهجة والسرور وعلينا أن نقارن بينهم وبين الآخرين وأن نبرز مواطن الاجادة وأن نشير الى هذه القطعة من الكتابة ونقول انها جيدة لأنها دقيقة صادقة فيها خيال

« ان الرجال لا يعتزلون مطلقــا عندما يجب عليهم الاعتزال ولاهم يعتزلون عندما يكون الاعتزال هو الحل السليم وهم مع ذلك تواقون الى العزلة حتى فى أرذل العمر أو فى حالة المرض التى هى أحوج ما تكون الى الظل الوارف مثلهم فى ذلك مثل رجال المدن الذين لازالوا قابعين أمام أبواب منازلهم لا يقبعون بداخلها وذلك لأنهم لا يعترفون ببلوغهم السن »

ونشير الى قطعة أخرى من الكتابة ونقول انها رديئة لأنها مفككــة انها « تهريج » وتفاهة

« وفكر – وعلى شفتيه تهكم لطيف معبر – فى الحجرات الهــادئة التى لم تطأها قدم وفى الماء الذى يتراقص تحت أشعة القمر وفى الشرفات حيث الموسيقى العذبة تبكى فى الليل البهيم وفكر فى عشيقات طاهرات كالأمهـــات يحمينه بأيديهن وعيـــونهن الســاهرات وفكر فى الحقول الناعسة تحت الشمس وفكر فى فراسخ من المحيطات ترزح تحت السماء الدافئة المرتجفة وفى الموانى الحارة الجميلة ذات العبير ».

وهكذا تستمر القطعة ولكننا نطرب فعلا الى الصوت وان كنا لا نسمعه ولا نحس به ان المقارنة تجعلنا نشك فى أن لفن الكتابة عموداً فقرياً تقوم عليه وانه لابد أن يكون لها فــكرة وان وراء الفــكرة ، شيء

نؤمن به عن اقتناع أو نراه يقينا وهذا ما يشكل الكلمات ويبتدعها لتعبر عما نؤمن به وعما نراه ومن أمثلة ذلك تلك الجماعة المتنوعة من لامب وبيكون بيربوم وهدسون وفيرنون لى وكونراد، وليزلى ستيفن وباتلر ووالتر بيتر هذه الجماعة وصلت بالفكرة الى أبعد مدى كم ساعدت مواهب مختلفة فى تشكيل الفكرة الى كلمات مكتوبة وكم عاقت ذلك وكم من الكتاب وكأنهم ـ وهم يكتبون ـ ينحتون صخرا صلدا وكم من كتاب آخرين يحلقون مع كل ريح مواتية ولم يكن كل من بيلوك أو لوكاس أو سكوير متعلقا بشىء فى ذاته بل كانوا يشاركون فى مشكلة العصر ـ وهى انعدام الاقتناع التام الذى يرفع الأصوات السريعة الزائلة خلال أجواء من ضباب(١) لغة أى فرد لوضعها على أرض صلبة حيث يقوم الزواج الدائم والاتحاد المستمر أى على أرض من الواقع فيها الحياة وكما أن كل التعاريف غامضة فى تحديدها فان المقال الجيد لا بد أن يقوم على صفة دائمة يجب أن يسدل المقال ستائره حولنا وهذه الستائر يجب أن تجمعنا من داخله ولا تلفظنا الى الخارج

---

(١) وتشير الكاتبة بذلك الي ضعف اللغة وهزالها نتيجة عدم الاقتناع (المترجمة)

جوزيف كونراد (١)

فجأة وبلا مقدمات ودون أن يمهد لنا حتى نرتب أفكارنا ونستعد لتأبينه ، رحل عنا ضيفنا ، وكان رحيلا بلا وداع أو احتفال ، رحيلا يتفق كل التوافق مع ظهوره الغامض

منذ سنوات طويلة مضت أقام خلالها فى هذه الدولة كان يحيط به جو من الغموض يرجع الى مولده البولندى تارة والى ظهوره المعروف تارة أخرى ، ولتفضيله الحياة فى أعماق الريف من ناحية أخرى بعيدا عن تسمع الشائعات نائيا عن اتصال الزائرات وكان على من يريد استقاء أخباره أن يعتمد على المترددين (٢) العاديين الذين تعودوا قرع جرس الباب وهم الذين قرروا أن صاحب البيت المجهول كان يتمتع بخلق حميد وبعينين براقتين ويتكلم الانجليزية بلكنة أجنبية واضحة

وعلى الرغم من أن الموت عادة يشحذ الذكريات ويركزها فقد ارتبطت عبقرية كونراد بشىء أساسى ليس عارضا يصعب تفسيره فلقد كان أكثر الكتاب شهرة فى السنوات الأخيرة باستثناء كاتب واحد معروف وعلى الرغم من زيوع شهرته هذه لم يكن شعبيا كان بعض قرائه يقرءون له بعاطفة ومتعة ، وقد ترك الآخرون فى برود وبغير صقل وكان من بين قرائه أناس أشد تقابلا فى الأعمار وأشد تناقضا فى المشاعر فطلاب المدارس فى الرابعة عشرة يدفعون طريقهم بين ماريات(٣) وسكوت(٤) وهنتى(٥) وديكينز(٦) فالتهموا كونراد مع الآخرين بينما المتحذلقون الذين

---

(١) كتب هذا المقال فى أغسطس ١٩٢٤

(٢) وتقصد الكاتبة هؤلاء الباعة الذين يترددون على المنازل (المترجمة)

(٣) Marryat.

(٤) Scott.

(٥) Henty.

(٦) Dickens.

لا يرضيهم شيء والذين التهموا مع مرور الزمن طريقهم فى أعماق الأدب وهم يقلبون المرة تلو المرة قليلا من فتات الخبز الثمينة هؤلاء وضعوا كونراد بحذر على مائدة وليمتهم ويوجد مصدر واحد لصعوبة فهمه ولعدم الاتفاق على رأى فيه وهذا المصدر دائما فى جمال أسلوبه يفتح المرء صفحاته ويشعر كما شعرت هيلين عندما نظرت الى مرآتها وأدركت انها ـ مهما فعلت ـ فلن تبدو قبيحة وهكذا كان كونراد موهوبا وهكذا علم نفسه وهذا هو التزامه نحو لغة غريبة بأن يتلطف فيها ويخطب ودها باستعمال لغة هى فى الواقع أقرب الى اللاتينية منها الى الساكسونية حتى ليبدو أنه من المستحيل عليه أن يكتب لغة عقيمة أو غير رشيقة أو غير معبرة وأحيانا نرى أن لغته شاعرية فى سكناتها وكذا فى أسلوبه فاذا ماناجاها شخص بهرته بألوانها ومعانيها الرائعة وأضفت عليه عظمة ورفعة ومع ذلك فانه من غير المقطوع به أن كونراد كان من الممكن أن يتمتع بصيت أو بشعبية أكثر لو أنه كتب ما كتب بغير ذلك الاهتمام المتزايد بالمظاهر فقد قال النقاد ان ذلك الاهتمام بالمظهر يعوق الفكر ويقف حجرة عثرة أمامه ويبعده عنا وهم يدللون على ذلك بقطع مشهورة ينزعونها من متونها ويعرضونها فى باقة من زهرات مع قطع أخرى من النثر الانجليزى كما يعترضون على كونراد بأنه يختال بنفسه وأنه عنيف متحذلق صوته (١) أغلى عنده من أنين الانسانية بآلامها هذا النقد معروف وهم فى نقدهم هذا أشبه بالصم الذين يعلقون على سيمفونية فيجارو عند عزفها فهم يرون العازفين ولكنهم يسمعون صريرا مرعبا يأتيهم من بعيد ان ملاحظاتهم مضطربة وطبيعى أنهم ينتهون الى أن أهداف الحياة كانت تحظى برعاية أكثر لو أن هؤلاء الخمسين عازفا قطعوا أحجارا ليرصف بها الطريق ان الجمال يعلم والجمال يهذب ، ولكن كيف نقنعهم بذلك اذا كان صوت الجمال لا يصل الى سمعهم فهم صم لا يسمعون ؟

انكونراد يجب أن يقرأ فى جملته ولا يقرأ أشتاتا متفرقة ومن الطبيعى أنه سوف يكون مجهولا وغير معروف بالنسبة لهؤلاء الذين فى آذانهم وقر فهم لا يسمعون موسيقاه العنيدة المظلمة فى نظرهم على ما فيها من تحفظات وكبرياء وعظمة واصرار ولا يدركون فى كتابات كونراد كيف يكون الخير أفضل من الشر وكيف يكون الاخلاص ميزة

---

(١) وتهدف الكاتبة من هذا التعبير الى أن مشاعر كونراد فى نظره أهم وأغلى من مشاعر الانسانية وآلامها (المترجمة)

طيبة وكذلك الأمانة والشجاعة ، ومع ذلك يبدو أن كونراد – فى الظاهر – يهتم بجمال الليل فى البحر ولكنه عمل غير محمود أن ننزع هــــذه المعانى من مكوناتها فذلك معناه كأننا نجفف تلك المعانى فى أطباقنا الصغيرة بعيداً عن سحر اللغة وجمالها البهيم فهى تفقد قوتها الدافعة التى هى من خصائص نثر كونراد الدائمة

استطاع كونراد بفضل شىء عنيف – هو من صفات القائد والربان – أن يترك أثرا عميقا فى الصبية والصغار وحتى انتهى كونراد من كتابة نوسترومو (١) كانت شخصياته – كما فهمها الصغار على عجل منهم – بسيطة وتتمتع بالشجاعة وعلى الرغم من ذكاء تلك الشخصيات ودهائهم وطريقة الكاتب غير المباشرة فى الكتابة كانوا يبدون وكأنهم ملاحون تعودوا على الوحدة والهدوء كما كانوا فى صراع مع الطبيعـة ولكنهم مسالمون مع البشر وكانت الطبيعة عدوا لهم انهـا هى التى أبرزت صفات العظمة والشرف وهى صفات تلائم الرجال ، كما أنها هى التى احتضنت فى خلجان آمنة فتيات جميلات عابثات لا يدرى أصلهن أحد حتى بلغن

وفوق كل ذلك فهى الطبيعة التى أظهرت تلك الشخصية المعقدة التى حنكتها التجارب مثل كابتن والى وسنجلتون العجوز وهما شخصيتان غامضتان ولكنهما عظيمتان وهما بالنسبة لكونراد من خيار البشر ولم يكن يمل مديح من يرفع شأنه من الرجال

« لقد كانا قويين قوة من لا يعرف الشك ولا يتعلق بالآمال وكان كل منهما متبرما ومـع ذلك كانا يتحملان المكاره – كانا مشاغبين ومتفـــانيين – متمردين ومخلصين ولقد حاول حســـنو الظن من النـــاس تصوير هذين الرجلين بأنهما رجـــلان يكدحان فى سـبيل لقمة العيش وهمـــا اذ يعمـــلان يخـــافان على حياتهما ومـع ذلك فهما فى الواقع رجلان عرفا العمل الشاق والحرمان والقسوة ، والفجور – ولكن لم يعرف الخوف طريقه الى قلبيهما اللذين لم يحملا غلا لأحد ؛ وهما رجلان يصعب مراسهما ولكن من السهل اقناعهما اذ لا يرتفع لهما صوت ولكنهما يحتقران فى نفسيهما الأصوات المشفقة التى تندب حظهما انه مصير فريد وخاص بهما ان المقدرة على تحمل هذا المصير تبدو فى

(١) Nostromo.

نظرهما امتيازا للصفوة المختارة ! عاش جيلهما حياة غير واضحة وان كان لاغنى عنها ولم يتذوقا حلاوة الحب أو يشعرا بسكينة البيت وماتا متحررين من ضيق القبور اذ كان البحر لهما لحدا انهما من الأبناء الخالدين للبحر الغامض »

وهكذا كانت شخصيات كتبه الأولى مثل لورد جيم (١) وتايفون (٢) وعبد النرجس (٣) والشباب (٤) وعلى الرغم من التغيرات والاتجاهات فان هذه الكتب قد استقرت فى مكان أمين بين كتبنا التقليدية وقد بلغت تلك المكانة السامية بفضل العناصر التى لا تتوافر فى كتب المغامرات البدائية كما سماها مارياب(٥) أو فينمور كوبر(٦) وذلك لأنه من الواضح أننا ـ لكى نعجب بمثل هؤلاء الرجال وبمثل هذه الأعمال عاطفيا أو من أعماق القلوب أو بحماسة المحبين ونحتفى بها ـ يجب علينا أن نتحلى بالرؤيا المزدوجة لكى نكون فى داخل الشخصية وفى نفس الوقت خارجها وحتى نعجب بصمتهم يجب على المرء أن يكون قادرا على شرح شكواهم وحتى نعجب بقوة احتمالهم يجب علينا أن نكون مرهفى الحسن لنشعر بما يعانونه من آلام ويجب أن يكون المرء مستعدا لكى يعيش على قدم المساواة مع آل والى وسنجلتون ومع ذلك يخفى عن عيونهم التى تملؤها الشكوك نفس الصفات التى تمكن المرء من تفهمهم وكونراد وحده هو الذى استطاع أن يحيا تلك الحياة المزدوجة وذلك لأن كونراد كان مكونا من شخصيتين ربان بحرى وفى نفس الوقت تعيش فى داخله تلك الشخصية المحللة الدقيقة المهذبة التى لا ترضى عن شىء وتلك الشخصية هى مارلو الذى وصفه كونراد بقوله من أكثر الناس حصافة وتفهما

كان مارلو واحدا من هؤلاء الذين يراقبون الناس وهم سعداء فى عزلتهم ولم يكن يستمتع الا بالجلوس على ظهر السفينة فى خور غير معروف فى نهر التيمز يدخن ويستعيد ذكرياته ، يدخن ويتأمل وهكذا

---

(١) Lord Jim.

(٢) Typhoon.

(٣) The Nigger of The Narcissus.

(٤) Youth.

(٥) Marryat.

(٦) Fenimore Cooper.

أخذ ينفث دخانا حتى التف حوله وكأن حلقاته كلمات عذبة وهكذا أصبحت ليالى الصيف عنده مليئة بالغيوم من دخان التبغ كان مارلو يكن الاحترام فى قرارة نفسه لجميع الرجال الذين أبحروا معه كما رأى الجانب الضاحك منهم وأظهر ما خفى منهم ووصف تلك المخلوقات الهائجة ــ وصف المتمكن ــ وهى تنقض بنجاح على الجنود الغلاظ ذوى الخبرات كما كان مولعا بملاحظة عاهات البشر ؛ وكانت « قفشاته لا ذعة ولم يكن مارلو يعيش متوجا بدخان سيجارة فقط بل كان معتادا كذلك أن يفتح عينيه فجأة ليتفحص كومة من القمامة فى ميناء أو منضدة فى دكان فيدرك كنهها وغامض مكنونها وكأنه ينظر من خلال هالة من نور وذلك بعين فاحصة ومحللة تلك كانت من خصائص مارلو

وكان مارلو يقول ان هذه القدرة كانت تحل به فجأة وعلى سبيل المثال كان يسمع ضابطا فرنسيا يتململ قائلا «يا الهى كيف يمر الوقت» فيعلق مارلو على ذلك بقوله تلك عبارة لا يمكن الا أن تكون عبارة عادية ولكن الافصاح بها صادف لحظة رؤيا عندى انه لمن العجب أن نعيش حياتنا بعيون نصف مغمضة وبآذان بليدة وبأفكار راكدة وعلى الرغم من ذلك لا يوجد بيننا الا القليل هم الذين لم يدروا بهذه اللحظات النادرة من اليقظة عندما نرى ونسمع وندرك الكثير جدا بل ندرك كل شيء ، فى ومضة قبل أن نغرق ثانية فى سبات جميل فرفعت اليه ناظرى عندما تكلم فرأيته وكأنى لم أره من قبل »

وهكذا كان يصور لنا اللوحة بعد الأخرى عن تلك الخلفية (١) المجهولة أغلبها عن السفن فى مرساها سفن وهى تشق طريقها فى العاصفة سفن فى الميناء كما صور الغروب والفجر وصور الليل والبحر فى كل مظاهره لقد صور جمال الموانى الشرقية وسحرها اللألاء وصف الرجال والنساء ووصف بيوتهم وتصرفاتهم كان دقيق الملاحظة ولا يحجم عن شيء وكانت مدرسته الاخلاص المطلق لمشاعره وأحاسيسه التى كتب عنها كونراد ان المؤلف لابد أن يتمسك بها فى أشد لحظات التجلى للخلق الفنى وفى هدوء تام كان مارلو يقول أحيانا مترحما ببعض عبارات التأمين التى تذكرنا بكل ذلك الجمال والرونق الذى أمام أعيننا وبذلك الظلام الذى يحيط بظلام الخلفية

---

(١) Background.

وباختصار يمكن للمرء أن يميز بين مارلو - الذى يعلق - وبين كونراد الذى يخلق وهذا يؤدى بنا - وان كنا على حافة خطرة - أن نفسر هذا التغيير الذى أفصح عنه كونراد عندما انتهى من آخر قصة فى مجلد تايفون « تغيير ماهر فى طبيعة الايحاء » وببعض التغيرات التى طرأت على العلاقة بين صديقين قديمين بدا لى بطريقة ما أنه لم يعد فى الدنيا شيء أكتب عنه »

ان كونراد - ودعنا نفترض أن كونراد المبدع هو الذى قال ذلك وهو يلقى بنظرة آسفة على القصص التى كتبها شاعر - كما يبدو أنه لن يصف أكثر ابداعا مما وصف به العاصفة فى **عبد النرجس** أو يضفى على خصال البحارة البريطانيين المزيد من الولاء أكثر مما قدمه من قبل فى قصتى **الشباب ولورد جيم** انه اذا مارلو المعلق هو الذى ذكره بأن من طبيعة الأيام أن تتقدم السن بالمرء فيقلع عن الملاحه ويكتفى بالجلوس على سطح السفينة ينفث الدخان ولكنه ذكره بأن تلك السنين الشاقة قد رسبت ذكرياتها بل ذهب الى أبعد من ذلك وربما لوح له بأنه ما دام قد كتب آخر ما يمكن أن يقال عن كابتن والى وعلاقته بالعالم ، فان هناك على الشاطىء عددا من الرجال والنساء وان كانت علاقاتهم ذات طابع أكثر شخصية الا أنها تستحق الدراسة واذا افترضنا أن هناك مجلدا عن هنرى جيمس على ظهر السفينة وأعطى مارلو ذلك المجلد لصديقه ليقرأه وهو فى فراشه فان هناك ما يؤيد هذا الافتراض اذ كتب كونراد فى عام ١٩٠٥ مقالا رفيعا عن ذلك الأستاذ

وعلى ذلك فقد كان مارلو - معلقا - هو الشريك المسيطر لبضع سنوات فى كتب كونراد : **نوسترومو** و **الفرصة**(١) **والسهم الذهبى**(٢) وتمثل هذه الكتب المعاهدة بين مارلو وكونراد والتى أثبتت أنها أغنى مراحل تلك المعاهدة ان القلب البشرى - كما يقول الناس - أكثر تعقيدا من الغابة فله عواصفه وله مخلوقاته الليلية واذا أردت فى نطاق أنك قصاص أن تختبر الرجل فى كل علاقاته فان الخصم الحقيقى هو الرجل وذلك لأن محنة الرجل فى المجتمع لا فى وحدته فهناك دائما - بالنسبة اليهم - فتنة متميزة فى الكتب حيث لا تقع تلك العين الذكية على زبد البحر فحسب بل تنفذ الى قلب الانسان فى تعقيداته

---

(١) **Chance.**

(٢) **The Arrow of Gold.**

ولكن لابد من الاعتراف بأنه اذا كان مارلو قد نصح كونراد بأن يغير من زاوية رؤياه فان هـذه النصيحة تعتبر جـريئة وذلك لأن رؤيا القصاص معقدة متخصصة فهى معقدة لأنه وراء شخصياته منفصل عنها فيجب أن يكون هناك شيء ثابت يربط القصاص بينه وبين شخصياته ، وهي متخصصة لأنه مادام هو بمفرده فان احساسه واحد أما مظـاهر الحياة التى يؤمن بها باقتناع فهى محدودة للغاية وعلى ذلك فهذا التوازن الدقيق من السهل الاخلال به وبعد أن تجاوز كونراد منتصف الطريق لم يكن فى امكانه أن يخلق شخصيات تتلاءم مع بيئتها وهو لم يؤمن فى أواخر كتاباته بشخصياته التى كانت أكثر تحضرا، كما آمن ببحارته فى انتاجه الأول فعندماكان يحاول أن يشير الى علاقاتهم بعالم الروائيين الآخر غير المرئى عالم القيم والمبادىء لم يكن واثقا من قيمه تلك القيم فهو يكرر المرة تلو المرة عبارة واحدة « انه يدير عجلة القيادة بعناية » وهذه العبارة تحمل فى طياتها معنوياته خاصة اذا جاء ذكرها فى نهاية عاصفة ولكن فى هـذا العالم المعقـد والذى يزداد تزاحمـا تأتى تلك العبارة الرشيقة مناسبة ان الرجال والنســاء المعقـدين فى أمزجتهم وعلاقاتهم لن يسلموا بهذا الحكم المختصر وهم اذا فعلوا فان أهم ماتنطوى عليه نفوسهم لا يخضع لهذا الحكم المختصر ومع ذلك فانه من الضرورى لعبقرية كونراد ـ بكل ما فيهـا من ترف وقوة خيـال ـ أن يكون لها قانون ما وبمقتضاه نحكم على شخصياته وظلت عقيدته تتلخص أساسا فى أن هذا العالم المتمدين وما فيه من أناس وأعين يقوم على « قليل من الأفكار البسيطة » ولكن أين نجدهم فى عالم الأفكار والعلاقات الشخصية ؟ فليس هناك صوارى فى حجرات الجلوس وأن الاعصار وان كان يسبر غور البحارة الا أنه لا يضع خبرات السياسيين ورجال الأعمال موضـع الاختبار ان البحث عن هذه العمد دون العثور عليها يدل على أن عالم كونراد فى أواخر أيامه كان يحيطه جو من الغموض عن غير قصد جو غير مقنع وغير بهيج وهو لذلك محير ومتعب ونلمس بغير وضوح الخصال النبيلة القـديمة ذات الرنين وهى الاخلاص والرحمة والشرف والقيـام بالخدمات كل هذه صفات جميلة دائمة ولكنها الآن قد أعياها التكرار كما لو كان الزمن هو الذى تغير ربما كان مارلو هو المخطىء ان طبيعة عقله بطيئة بعض الشيء فهو قد أطال الجلوس على سطح السفينة وكان عظيما فى مناجاة نفسه ، غير أنه كان أقل مهـارة فى تبـادل الحديث ، وتلك « لحظات الرؤى تومض وتخبو لا تؤدى واجب المصباح الثـابت الذى يضىء حركة الحياة وسنواتها الطويلة المتتابعة وفضلا عن ذلك كله

فلم يأخذ مارلو فى اعتباره كيف يؤمن ـ اذا أراد كونراد أن يبدعُ ـ بما يكتب أولا وقبل كل شيء

ومع كل ذلك اذا كنا نريد أن نخوض فى كتاباته الأخيرة لنحظى بغنائم وفيرة فان عددا كبيرا من مسالك تلك الكتابات سيبقى بالنسبة لغالبيتنا غير مطروق

ان كتبه الأولى ـ **الشباب ، ولورد جيم ، والاعصار ، وعبد النرجس** ـ سوف نقرؤها من أولها الى آخرها   واذا ثار السؤال ما الذى ظل حيا من كتبه وأين نضع كونراد بين صفوف الروائيين فان هذه الكتب بجوها الذى ينقل الينا شيئا قديما صادقا كل الصدق   ظل مختبئا ولكنه انكشف الآن   ان هذه الكتب سترد على فكرنا فتبدو مثل هذه الأسئلة وتصبح تلك المقارنات غير ذات موضوع   انها كتب متكاملة فاضلة جميلة   تبرز فى ذاكرتنا كما تبزغ أول نجمة متلألئة فى ليالى الصيف الدافئة بطيئة فى جلالها حتى تتلوها نجوم ونجوم

تضارب آراء النقاد المعاصرين

كثيرا ما كان الشخص المعاصر يصدم فى المقام الأول بأن اثنين من النقاد فى مجال واحد وفى وقت واحد ينقدان كتابا واحدا ويخرج كل منهما برأى مخالف للآخر كل المخالفة فبينما أحدهما يقرظ الكتاب كقطعة رائعة من الأدب الانجليزى نرى الثانى ـ فى نفس الوقت ـ يعتبره مجرد مجموعة أوراق عديمة القيمة وينصح بأن تلقى طعما للنار ومع ذلك فكلاهما متفق بالنسبة لميلتون (١) وكيتس (٢) من الشعراء القدامى. وهما بالنسبة للشاعرين يعرضان احساسا مرهفا ودون تردد يظهران حماسة صادقة ولكنهما عندما يناقشان أعمال الكتاب المعاصرين فان المناقشة تنقلب الى صفعات والكتاب ـ موضوع هذا الحديث ـ قد نشر منذ شهرين ، وصادف رأيين متعارضين ، فهو مساهمة خالدة فى الأدب الانجليزى وهو فى نفس الوقت مجرد خليط من الادعاءات الرخيصة ، وحداثة هذا الكتاب تفسر لنا هذا التناقض ، ولماذا يختلف النقاد فيه .

ان التفسير غريب فهو بالنسبة للقارىء أمر يبلبل أفكاره ويشوشها وهو ـ أى القارىء ـ يود أن ينتقى كتابه من بين فوضى الأدب المعاصر ، وهو كذلك بالنسبة للكاتب الذى لديه الرغبة الطبيعية لكى يعرف ما اذا كان عمله الذى أنتجه بالجهد والعرق وأخرجه من الأعماق ، يستحق فعلا أن يكون مصباحا منيرا من بين مصابيح الأدب الانجليزى أو أن عمله هذا شىء جدير بأن يلقى به فى النار ليطفئها ولكننا اذا وضعنا أنفسنا فى موضع القارىء لنتعرف على مشكلته أولا ، فان حيرتنا لن تطول ـ وقد حدث نفس الشىء مرارا من قبل ـ فكم سمعنا عن أطباء يحملون على دواء جديد ويصرون على وصف الدواء

---

(١) Milton.

(٢) Keats.

القديم ، ويحدث هذا الصراع مرتين فى السنة فى المتوسط ـ فى الربيع وفى الخريف ـ منذ أيام روبرت الزمير(١) أو فى عصر ستيفن فيلبس(٢) لقد عم بطريقة ما جو المتناقضات كما عم التعارض بين الناضجين من الناس كم هو رائع ذلك الاختلاف فى الرأى وكم يكون اتفاقهما نقمة علينا فاذا ما اتفق الجانبان على رأى واحد ليعلنا أن كتاب بلانك (٣) انما هو قطعة رائعة بغير شك ، فهذا أمر من شأنه أن يواجهنا بضرورة العزم عما اذا كان علينا أن نؤمن على قرارهما الى حد أن نشترى هذا الكتاب حتى ولو كان ثمنه نصف جنيه ان لكل من الناقدين شهرته ، وآراؤهما تصدر عنهما بمحض الاختيار ومن هنا سوف تتقوى وتتصلب كأعمدة من النثر الواعى الذى يتضمن عظمة الآداب فى انجلترا وأمريكا

هذا الاختلاف انما هو تهكم غريزى أو بعض من عدم الثقة فى العبقرية الحديثة التى تجعلنا نقره ، وتبعا لذلك اذا كان الناقدان سيتفقان فى الرأى ولا توجد اشارة تنبىء بذلك ـ فان نصف الجنيه يعد مبلغا ضخما لانفاقه فى شراء الكتاب تلبية لهذه الحماسة العصرية خاصة أنه فى الامكان الوصول الى نفس النتيجة والفائدة المرجوة باستعارته من مكتبة عامة . ولا زال السؤال قائما ولنوجهه بشجاعة الى النقاد أنفسهم أليس لديهم ما يوجهونه الى القارىء الذى لا يفضل كاتبا معينا ممن توفوا ، وانما يتألم لتشككه بأن تقديره للمتوفين لابد أن يتصل اتصالا حيويا عن طريق تفهمه للمعاصرين ؟ ان نظرة سريعة الى طبيعة القراء تدلنا أن الناقدين قد اتفقا على ان مثل هذا القارىء غير موجود وما فائدة حكمهما اذا ما تعلق هذا الحكم بكتب حديثة ؟ لن يساوى حكمهما هذا ، طبعا ، نصف الجنيه الذى يجب أن يدفعه القارىء لشراء الكتاب ، ان النقاد يعرضون من مكنون تجاربهم أمثلة سيئة عن أخطاء الماضى ، ولو كانت جرائم النقاد قد وجهت ضد الأدباء الذين ماتوا لفقدوا مكانتهم وضاعت شهرتهم ان النصيحة الوحيدة التى يمكن أن يقدمها النقاد هى احترام فطرة الفرد نفسه ، واتباعها بغير وجل وبدلا من اخضاعها لسيطرة اى ناقد أو مستعرض على قيد الحياة فانه يختبر تلك الفطرة بالقراءة واعادة القراءة للقطع الممتازة للسابقين .

---

(١) Robert Elsmere.

(٢) Stephen Phillips.

(٣) Blank.

ومع شكرنا المتواضع للنقاد فانه لا يسعنا الا أن نقول أن الأمر لم يكن كذلك على الدوام وعلينا أن نعتقد أنه فيما مضى لا بد أنه كانت هناك قاعدة أو نظام يحكم غالبية جمهور القراء بطريقة ليست معروفة اليوم وليس معنى ذلك أن كلا من النقاد العظام أمثال درايدين (١) وجونسون (٢) وكوليربدج (٣) وأرنولد (٤) ، كان حكما معصوما من الخطـأ للعمل المعاصر وقراره يدمغ الكتاب دمغة لا تنمحى ويجنب القارىء مشقة الوصول الى قيمة الكتاب بنفسه ان أخطاء هؤلاء الرجال العظام عن معاصريهم من الجسامة والوضوح بحيث لا تستحق التسجيل ولكن لمجرد وجودهم تأثير فى الصميم وكان من الممكن لهذا التأثير ـ وهذا افتراض ليس خياليا ـ أن يتحكم فى اختلاف القراء فى الرأى وهم حول مائدة الطعام يتجاذبون أطراف الحديث كيفما اتفق حول كتاب ظهر حديثا كما يمنح وجود هؤلاء النقاد أحاديث هؤلاء القراء المتناثرة عن هذا الكتاب سلطانا نبحث نحن عنه الآن وتكون المدارس المختلفة قد تناولته بالمناظرة الحامية كالعادة ولكن يوجد فى أعماق وعى القارىء احساس بأن هناك على الأقل رجلا واحدا وضع مبادىء الأدب نصب عينيه هذا الرجل اذا عرضنا عليه نقدا فيه انحراف (٥) أو شذوذ عابر أسبغ على هذا الانحراف صفة الدوام ودمغه بسلطان قلمه وانزله بين النقيضين اما الى جانب المديح واما الى جانب التجريح. ولكن عندما نكون بصدد خلق ناقد فعلى الطبيعة أن تكون سخية والمجتمع ناضجا ، فالمجتمعات المتناثرة حول الموائد فى العالم الحديث،

---

(١) Dryden.

(٢) Johnson.

(٣) Coleridge

(٤) Arnold.

(٥) ولكن نبرهن كيف كان هذا الانحراف عنيفا نورد فيما يلى اقتباسين يشيران الى ذلك قصة عبيط **Told by an Idiot** تجب قراءتها كما تقرأ العاصفة **Tempest** لشكسبير وكما نقرأ رحلات جاليفر **Galliver's Travels** فاذا كانت القدرات الشاعرية عند الآنسة ماكولى ـ مؤلفة قصة عبيط ـ فى الواقع أقل من قدرات شكسبير ، واذا كان تهكمها أقل عظمة من مؤلف رحلات جاليفر ، فان انصافها وحكمها لا يقلان نبلا عنها (جريدة الديلى نيوز) **Daily News** وفى اليوم التالى نقرأ مايلى «أما عن باقى قطعة الشعر من قصيدة الارض المفقودة **The Wasteland** فلو كان الشاعر اليوت قد كتبها باللغة الدارجة كلها كانت قصيدته ـ كما هى الآن ـ أوراقا عديمة القيمة بالنسبة لغير علماء الاجناس وغير رجال الادب»

جريدة المانشستر جاردیان **Manchester Guardian.**

ودوامات التيارات المختلفة هى التى تشكل مجتمع عصرنا وكل هذه المظاهر يجب أن يسيطر عليها عملاق ذو أبعاد خيالية ثم أين يوجد ذلك العملاق الذى يحق لنا أن ننتظره ؟ فما لدينا الآن انما هم مستعرضون (١) وليسوا نقادا فكأنما لدينا مليون من رجال الشرطة الأكفاء الصالحين ولكن ليس لدينا قاض واحد لدينا رجال ذواقة ذوو علم ومقدرة يحاضرون الصغار ويحتفلون بذكرى الموتى ولكن النتيجة دائما أن مقدرتهم وانتاجهم انما هو بمثابة تجفيف للأنسجة الحية من الأدب وتحويلها الى شبكة من العظام الصغيرة وبذلك يسلبون منها الحياة لأنهم ليسوا بنقاد أين نجد نشاط درايدن وحيوية أو كيتس بسلوكه الرقيق الطبيعى ان نظرته صافية وعقله سليم وأين فلوبير وقدرته الفائقة وحماسه العظيم أين كوليريدج فهو فضلا عن كل ذلك يعى فى حافظته الشعر ويخرج من حين الى حين أحكاما عامة عميقة سداها العقل عندما يتوهج بالاحتكاك مع القراءة وكأنها من روح الكتاب نفسه .

وعلى كل هذا اتفق النقاد بلا تردد أن الناقد الكبير – كما يقولون – من أندر المخلوقات ولكن اذا أظهرت المعجزة واحدا منهم فكيف نصونه وعلى أى شىء نغذيه ، فاذا لم يكن النقاد العظام هم فى الواقع شعراء فطاحل فانهم يخلقون من موفور ما لدى الطبيعة من قدرات وملكات حرمت منها سائر البشر ويجب أن يكون هناك رجل عظيم يزكى ، ومدرسة تؤسس أو تهدم ولكن عصرنا فقير الى حد العوز من كل ذلك لم يظهر اسم واحد يسيطر على الباقين ليس هناك أستاذ يفخر الصغار بالتتلمذ على يديه لقد انسحب هاردى منذ زمن من الميدان ، وهناك شىء دخيل فى عبقرية كونراد لم تجعل منه ذا فاعلية كما جعلته معبودا مبجلا ومحلا للاعجاب ولكنه مبتعد ومترفع أما عن الباقين فعلى الرغم من أنهم كثيرون نشيطون وفى أوج انتاجهم الخلاق ، فليس من بينهم من يؤثر تأثيرا ملحوظا على معاصريه ،أو يتجاوز يومنا هذا وينفذ الى المستقبل القريب الذى يحلو لنا أن نسميه بالخلود اذا اتخذنا قرنا من الزمن ليكون محلا لاختبارنا وتساءلنا كم من الأعمال أنجزت فى انجلترا فى تلك الحقبة ولا زالت باقية ، فسوف نجيب بأننا لا نستطيع الاتفاق على كتاب واحد فحسب بل سوف نختلف حتى على وجود هذا الكتاب . وذلك لأنه عصر قطع قصيرة وفقرات قليلة ، وصفحات معدودات ، وفصل

---

(١) Reviewers.

هنا وفصل هناك ، بداية هذه القصة ، ونهاية تلك هــذا هو كل الذى يمكن أن نتقدم به للمقارنة . ولكن هل يمكن أن ندخل التاريخ بمجوعة من صفحات مفككة ، أو نطلب من قراء تلك الأيام ــ وأمامهم كل هذا الأدب ــ أن « ينقوا » تلك الأكوام الهـائلة الرخيصة من أدبنا بحثا عن لآلىء دقيقة ؟ هذه هى الأســئلة التى يمكن للنقاد أن يطرحوها بحق على أصدقائهم من الكتاب والقصاصين والشعراء

والسبب فى هذا الفقر يرجع أولا الى أن عبء التشاؤم الذى يخيم على العصر كاف لكل هذا التناقض نعم انه عصر هزيل ونكرر هذا كثيرا لنعلل فقر هذا العصر ولكن وبكل صراحة اذا قارنا عصرا بآخر لـكانت المقارنة فى غير صالحنا بصورة مزرية . ويفرلى (١) والرحلة (٢) وكوبلاخان (٣) ، ودون جوان (٤) ، ومقالات هزليت (٥) ، أو كبرياء وتعصب (٦) ، هيبريون (٧) وفك أسر برومينوس (٨) كل هذه الـكتب نشرت ما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢١ ولم يكن ينقص عصرنا الانتاج ولكن اذا بحثنا عن الروائع بدا لنا أن المتشائمين كانوا على حق فى الظاهر ويبدو أن عصرا تميز بالعبقرية يعقبه عصر من المحــاولات تمرد واسراف فى الاستقامة والعمل الشاق ان كل الشرف طبعـــا لهؤلاء الذين أرســوا قواعد الأدب ولكن اذا كنا نسعى الى الروائع فأين نبحث عنها ؟ فمثلا فى مجال الشعر نرى أن قليلا من الشعر فقط هو الذى سيخلد قليلا من شعر الســيد يتس(٩) والســيد ديفز(١٠) والســيد دى لامار(١١) وطبعـــا للســيد لورنس(١٢) لحظـــات من العظمة ولكن الى جانبها ساعات من أشياء تختلف تماما عن العظمـــة والسيد بيربوم فى طريقه الخاص كامل ولـــكنه طريق ليس عظيمـــا .

---

(١) Waverley.

(٢) Excursion.

(٣) Kubla-Khan.

(٤) Don-Juan.

(٥) Hazlitt's Essays.

(٦) Pride Prejudice.

(٧) Hyperion.

(٨) Prometheus Un bound.

(٩) Yeats.

(١٠) Davies.

(١١) De Lamare.

(١٢) D.H. Lawrence.

فقرات فقط من كتاب « **بعيدا وقديما** » (١) هي التى تدخل التاريخ وكان عولص (٢) كارثة مشهورة لأنه ضخم فى جرأته وعنيف فى كوارثه. وهكذا ، نبحث وننتقى ، ثم نختار هذه الآن ونختار تلك لنرفعها للعرض، لنسمع من يقرظها فيعلى شأنها أو يهاجمها لينتقص من قدرها وفى النهاية علينا ان نلتقى بالمعارضة وعلى الرغم من هذه المختارات نجد اننا نتفق مع النقاد على أنه عصر غير قادر على الجهد المستمر ، عصر قد تناثرت فيه الكسر ولا يمكن مقارنته جدية بالعصر الذى سبقه

ولما تنتشر الآراء انتشارا عاليا ونرددها بشفاهنا سيأتى علينا وقت ندرك فيه تمام الادراك أننا لا نؤمن بكلمة واحدة مما قلنا ونحن نردد انه عصر قاحل مجدب وانه يجب علينا أن ننظر الى الماضى بحسرة ، وفى نفس الوقت نرى بشائر الربيع ان الحياة لا تنقصها الألوان فالتليفون » الذى يقطع علينا برنينه اكثر المناقشات خطورة ويختصر الملاحظات الثمينة ، فيه جمال فى ذاته وحديث الناس الدارج ليس لهم فيه أى نصيب من الخلود ومع ذلك يفصح هذا الحديث عما يدور بخلدهم ، ولهذا الحديث أساس غالبا ما يكون من الأضواء والطرقات والبيوت والآدميين سواء كانت جميلة أو قبيحة ولكن ينسج هذا الأساس نفسه حسب مقتضيات الحالة فهذه هى الحياة والحديث عن الأدب علينا أن نحاول الفصل بين الحياة وبين الأدب ونبرز الانقلاب السريع من التفاؤل ضد الاستصواب السامى والتمييز الأدق من التشاؤم

ان تفاؤلنا اذا انما هو تفاؤل فطرى ، ينبع من اليوم الجميل والشراب والحديث ينبع من حقيقة ما تقدمه الحياة من كنوز كل يوم أكثر مما يستطيع من كان طلق اللسان أن يعبر عنه ، وعلى قدر تقديرنا لمن ماتوا فاننا نفضل الحياة كما هى وهناك شىء ما يتعلق بالحاضر لا نرضى عنه بديلا ، حتى لو منحنا حق الاختيار لكى نعيش فى العصور الماضية. وللأدب الحديث بكل عيوبه سيطرته علينا وله سحره وجماله انه أشبه ما يكون بالعلاقة التى ننحى عليها باللائمة وننال منها كل يوم ومع ذلك لا غنى لنا عنها ان لهذا الأدب صفة عزيزة فى الكيان الذى نحن عليه ، فى الكيان الذى أوجدناه ، فى الكيان الذى نعيشه ونحياه ، ومهما كان عظيما وله جلاله ، فانه يصبح غريبا علينا لو أنه لم ينبع

---

(١) Far Away and Long Ago

(٢) Ulysses.

من نفوسنا ولم يكن هناك جيل أحوج فى المحافظة على معاصرينا من جيلنا اننا قد سلخنا عن أسلافنا وبعدت الشقة بيننا وبينهم ان اختلالا فى التوازن وانفصال جموع البشر عن ماضيهم ، قد هز التسلسل التاريخى من أساسه وجعل منا غرباء عن ماضينا كما خلق فينا الاحساس المرهف والتعلق المستميت بحاضرنا اننا نجد أنفسنا كل يوم نعمل أشياء أو نقول قولا أو تخطر على أذهاننا أفكار كانت تبدو مستحيلة لآبائنا وانا نشعر بالاختلاف الذى لم يشر اليه أحد من قبل باحساس مرهف أكثر من التشابه الذى عبر عنه أصدق تعبير ان الكتب الجديدة تجذبنا الى قراءتها على أمل أن قراءتها ستعكس الوضع الجديد لاتجاهاتنا وهذه الأفكار وتلك الاختلافات والتجمعات العرضية والأشياء المتناقضة تفرض نفسها علينا وتجعلنا نحس بها وكأنها أمور جديدة ـ وكما يفعل الأدب فان هذا الاحساس يحفظ هذه التغيرات والمتناقضات ومن هنا يأتى تفاؤلنا فلم يكن هناك عصر أكثر غنى من عصرنا فى كتاب عقدوا العزم على ابراز هذه الخلافات التى تفصل بيننا وبين ماضينا وقد يكون فى ذكر الأسماء ما يثير البغضاء ولكن القارىء العادى اذا انغمس فى الشعر وفى القصة وفى السير فانه قلما لا يتأثر بشجاعة واخلاص ـ وفى كلمة واحدة ـ لا يتأثر بالجدة الشاملة التى عمت كل شىء فى عصرنا ولكن نشاطنا مقصر قصورا عجيبا ان الكتاب تلو الكتاب يتركنا بنفس الاحساس بالوعد الذى لم يتحقق ، بالفقر العقلى ، بالنبوغ أو بالذكاء الذى أقتطف من الحياة ولكن لم يتحول الى أدب . ان الكثير من جيد العمل المعاصر يبدو عليه وكأنه قد أخرج تحت ضغط ووضع فى اختصار بارد لا حياة فيه حفظ بمهارة خارقة حركات وتغيرات الأشخاص بينما هم يمرون عبر التاريخ · ولكن سرعان ماخبا الوميض وخلق فينا سخطا عميقا وبقدر ما كانت المتعة عظيمة كانت الحسرة حادة ·

وبعد كل هذا نجد أنفسنا قد عدنا الى البداية ، نتذبذب من النقيض الى النقيض ، ففى لحظة نصبح متحمسين وفى التالية نعود كما كنا متشائمين ، عاجزين عن الوصول الى أية نتيجة حول معاصرينا لقد طلبنا من الناقدين المعونة ولكنهم استعاذوا بالله من المهمة والآن ـ لقد آن الأوان الذى علينا فيه أن نتقبل نصيحتهم نصحح هذه المتناقضات على ضوء روائع الماضى اننا نشعر بأننا منقادون اليهم مدفوعون لا بحكم هادىء وئيد بل بحاجة ملحة لنرسى عدم استقرارنا على قواعد أمانهم ولكن صدمة المقارنة بين الماضى والحاضر كانت ـ

بأمانة ــ مشوشة بادىء الأمر فمما لا شك فيه ان هناك بلادة فى الكتب العظيمة وهناك هدوء لا يتحرجون منه فى الصفحة تلو الصفحة من كتب وردزورث(١) وسكوت(٢) وجين أوستن(٣) هو فى الواقع مهدىء للاعصاب الى حد السبات العميق فالفرص تسنح أمامهم ومع ذلك يهملونها وتتجمع الظلال واللمحات الذكية ولكنهم يتجاهلونها ويبدون كأنهم يرفضون ــ عن قصد ــ ارضاء هذه المشاعر التى حركها وأثارها المحدثون بعنف ذلك الاحساس بالرؤيا وبالسمع وباللمس وفوق هذا كله الاحساس بالآدمى بما فى أعماقه وبادراكه المتباين وبتعقيده ، وبمتاهاته ، وباختصار الاحساس بنفسه ويوجد القليل من هذا الادراك أو الاحساس فى أعمال ورد زورث وسكوت وجين أوستن فمن أين اذا نبع الاحساس بالأمان وبالتدريج كيف وصل الينا مشرقا ومتكاملا ؟ ان قوة ايمانهم واقتناعهم هى التى تفرض نفسها علينا ان ذلك واضح وضوحا كافيا فى أعمال ورد زورث ذلك الشاعر الفيلسوف ، وانه يصدق ــ بنفس الدرجة ــ على سكوت غير المكترث والذى يكتب بلا عناء روائع ليبنى قصورا (٤) قبل الافطار ، كما يصدق على جين أوستن المتواضعة التى تكتب سرا وبهدوء لتمنحنا السعادة ففى كليهما نفس الاقتناع الطبيعى بأن للحياة صفة معينة ــ فلديهما حكمهما على السلوك وهما يعرفان الروابط بين البشر بعضهم والبعض الآخر وبين البشر والعالم وقد لا يكون لأيهما كلمة قاطعة يقولها عن الحياة ، ومع ذلك فكل شيء يعتمد عليها واننا لنجد أنفسنا نقول ، انه الايمان أولا وبعد ذلك يأتى كل شيء من تلقاء نفسه انه الايمان وحده ــ ولنتخذ مثلا بسيطا جدا أورده على عقولنا نشر كتاب **آل واطسون**(٥) وهو أن فتاة رقيقة سوف تهدىء بفطرتها من روع شاب قد صد عنه فى رقصة ، ثم اذا كنت تؤمن بصفة عامة وبغير مناقشة فانك لن تجعل الناس يشعرون بنفس الاحساس لمدة مائة عام فحسب، بل سوف تجعلهم يوقنون بأنه الأدب . فالايمان هو الشرط الذى يجعل الكتابة ممكنة ايمانك بأن انطباعتك تحمل الخير للآخرين انما هو التخلص من تقلص الشخصية أو انطوائها ويجب أن تكون طلقا ، كما كان سكوت

---

(١) Wordsword.

(٢) Scott.

(٣) Miss. Austin.

(٤) وتقصد المؤلفة بذلك انه كان يعيش فى الخيال (المترجمة)

(٥) The Watsons.

طليقا لتستكشف بنشاط – لا زال يسيطر علينـــا كالمشـــدوهين – عالم المغامرات والخيال انه أيضا تلك الخطوة الأولى فى تلك الطريقة الغـامضة التى كانت جين أوستن عظيمة فى ابتـــكارها فهى تختار الحبة الصغيرة من الخبرة ثم بعد أن تؤمن بها وتنبع من نفسها يمكن ان تضعها بدقة فى موضعها وهى بعد ذلك طليقة لتجعل منها – بطريقة لم تكشف سرها مطلقا للمحلل – تقريرا متكاملا هو الأدب

ومن هذا يصيبنا شىء من الغم من جانب معاصرينا لأنهم تنكروا للايمان ان أكثرهم اخلاصا سوف يسرد علينا ماذا حدث له وليس غير ولكنهم لا يقدرون على خلق عالم وذلك لأنهم لم يتحرروا من سائر الآدميين ولا يمكنهم أن يقصوا علينا قصصـــا لأنهم لا يؤمنـــون بأن أقاصيصهم صـــادقة وليسوا بقـــادرين على التعميم انهم يعتمدون على أحاسيسهم ومشاعرهم فشهادة تلك الأحاسيس والمشاعر أحق بالتصديق من عقولهم التى بقيت أفكارها غامضة . ولقد أكرهوا على أن ينكروا على أنفسهم شيئا من استعمال أقوى وأنفس أسلحة صنعتهم ومع كل هذه الحصيلة من الانجليزية من حصيلة الســـابقين التى تمدهم بنفائسها فانهم يتداولون بخجل من يد الى يد ومن كتـــاب الى كتـــاب الرخيص من الأدب لقد سلكوا طريقهم من زاوية جديدة فى مجالات الأدب وذلك بتدوين يومياتهم فقط وبتسجيل ومضات عابرة بتركيز يضايق وبماذا تضىء تلك الومضات ؟ وكذا بتسجيل روائع وقتيـــة زائلة ، قد لا تتضمن شيئا على الاطلاق . وهنا يتدخل النقاد وهم على حق فى ذلك .

قالوا اذا كانت هذه هى حالة الأدباء ،يتناولون الأمور التافهة الزائلة ولا يقومون بما يجب عليهم أن يقوموا به مثلهم فى ذلك كمثل الذين التفوا حول مائدة الطعام فاهتموا بالأشياء الثانوية كآنيـــة الزهور وأوعية المخللات ، عندئذ تصبح مهمة نقد العمل العصرى أشد خطرا عن ذى قبل . ولهم كل العذر فى ذلك اذا كان نقدهم على مجال أوسع ومن الأفضل عندئذ التقهقر – عمـــلا بنصيحة ماثيو أرنولد عن أرض الحاضر الملتهبة الى هدوء الماضى فقـــد كتب ماثيو ارنولد – « اننـــا ندخل أرضا ملتهبة اذا ما اقتربنا من شعر خاص بوقت قريب منا جدا ، مثل شعر بايرون (١) وشـــيلى (٢) وورد زورث وذلك لأن التقديرات لن يكون طابعها شخصيا فحسب بل فى كثير من الأحيـــان

(١) Byron.

(٢) Shelly.

تتحكم فيها الأهواء الشخصية متأثرة بالعاطفة » ويذكرنا النقاد بأن ذلك كتب عام ١٨٨٠ فقد حذرونا بألا نحكم على الموضوع كله بمجرد فحص جزء صغير منه مثلنا كمثل من يقنع بخصائص مقدار بوصة تحت المجهر لكى يحكم على خصائص شريط طوله بضعة أميال فالأشياء تبلور نفسها اذا انتظرناها ، ولذا فانهم ينصحون بالاعتدال ودراسة الأدب التقليدى وذلك لأن الحياة قصيرة فمثـــلا لم يمض على بايرون أكثر من مائة سنة ومع ذلك فبدلا من دراسة أعماله العظيمـــة ، نتعلق بالتافه من الأمور والأحداث التى لا تؤثر فى أعماله فلا زال الســـؤال الذى يلح حتى هذه اللحظة وهو هل تزوج بايرون من أخته حقا ، أم لم يتزوجها ؟ ويمكن تلخيص ذلك بأنه اذا كان عمل الكتاب يمكن تشبيهه بالثرثرة التى يطلقها جميع الزوار عندما يحين وقت الانصراف وهى أحاديث تافهة لا يمكن أن تأتى بنتيجة فانه يصبح من الواجب أن يقلع هؤلاء الـكتاب عن التعلق بأهداب الأمل فى خلق الروائع ان شـــعرهم ومسرحياتهم وسيرهم وقصصهم ليست كتبا وانما هى مجرد مذكرات (١)، والزمن انما هو كناظر المدرسة النـــاجح الذى يجمع تلك المذكرات بين يديه ويشير الى عيوبهم والى أخطائهم والى مواضع الكشط ثم يمزقها ولكنه لن يلقى بها فى سلة المهملات بل سوف يحتفظ بها لأن تلاميذ آخرين سوف يجدونها ذات فائدة كبيرة انه من مذكرات الحاضر تصنع روائع المستقبل وكما يقول النقاد الآن ـ ان الأدب عاش زمنا طويلا ومرت عليه تطورات عديدة وقصر النظر وضيق التفكير هما اللذان يغاليان فى أهمية تلك النسمات التى تهب فتداعب الزوارق الصغيرة التى تمخر عباب البحر فالعواصف تثير الأمواج على ســـطح الأدب وفى الأعماق يستمر الهدوء ويستمر السير والتقدم

أما من ناحية النقاد فان عملهم هو اصدار أحكام على كتب العصر ، وهذا العمل ـ بصراحة ـ صعب خطر وغالبا ما يكون عديم المذاق فدعنا نسأل هؤلاء النقاد ليكونوا كرماء فى تشجيعهم ليساندوا الكتاب الناشئين لأنهم كالبراعم الدقيقة والزهور المتفتحة والا فســوف يكونون عرضة للذبول وسرعان ما يصبحون فى مدى ستة أشهر على الأكثر محلا للسخرية فعلى النقاد اذا أن يتخذوا نظرة أوسع مدى وأن يتخلصـــوا من الانفعـــالات الشـــخصية اذا ما تعـــرضوا للأدب الحديث ، وعليهم أن ينظروا الى الكتاب كما لو كانوا مكلفين بالاشراف على

(١) Note books.

مبنى ضخم شيد بمجهود جماعى حيث يظل الفعلة المختلفون مجهولين لا ارتباط بينهم وليقفلوا الباب بشــــدة على المجمــــوعة الناعمة التى تستمتع بالحيــــاة الرغدة الموفورة وليكفوا ــ ولو للحظة على الأقل ــ عن الخوض فى هذا الموضوع المثير مثل هل تزوج بايرون من أخته ، ثم ينسحبون بعيدا عن المنضدة التى نجلس من حولها نتجاذب أطراف الحديث ونتناول الأدب نفسه باسلوب نافع ولنضيق عليهم الخناق وهم يرحلون ونعيد الى ذاكرتهم تلك السيدة الأرستقراطيـــة الهزيلة السيدة هيستر ستانهوب(١) التى احتفظت بجواد أشــهب فى الاســطبل الخاص بها انتظارا لعودة المسيح فتعلقت عينــاها بقمم الجبــل فى صبر نافذ تملؤها الثقة وهى فى انتظار علامات مقدمه وتدعو غيرها لكى يحذو حذوها فيأيها النقــاد لماذا لا تكونون مثل تلك السيدة ترنون الى الأفق وتنظرون الى الماضى على أنه غير منفصل عن المســتقبل ، وبذلك تمهدون الطريق لروائع قادمة

---

(١) Hester Stanhope.

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٣٫٧٥/١٩٧١